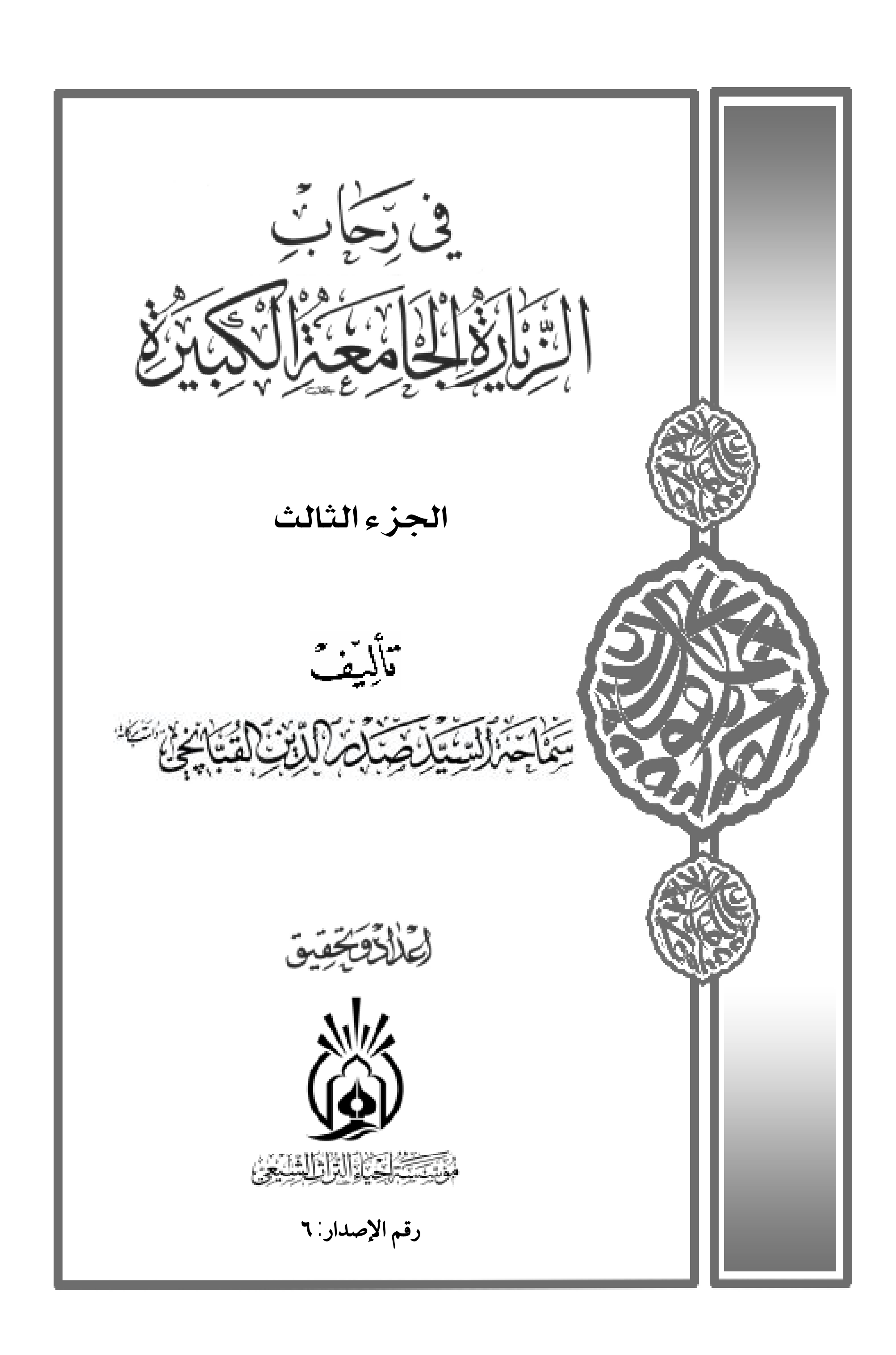

في رحاب
الزيارة الجامعة الكبيرة
الجزء الثالث
تأليف
سماحة السيد صدر الدين القبانچي
إعداد وتحقيق
مؤسسة إحياء التراث الشيعي
رقم الإصدار: ٦



مؤسسة إحياء التراث الشيعي
www.turathshiai.com
E-mail:info@turathshiai.com
النجف الأشرف
شارع الرسول ﷺ، محلة الحويش، الزقاق: ٥٤، الدار: ٢
هاتف: ٣٣٢٨١١ و٣٣٢٨١٣
ص.ب ٥٨٨

في رحاب الزيارة الجامعة الكبيرة ج ٣
السيد صدر الدين القبانچي
إعداد وتحقيق
مؤسسة إحياء التراث الشيعي

الطبعة الأولى: رمضان ١٤٢٨هـ.
رقم الإصدار: ٦
النجف الأشرف

عدد النسخ: ٣٠٠٠

إيضاح

فصول الزيارة الجامعة:

أساساً هذه الزيارة يمكن تقسيمها بشكل طبيعي إلى خمسة فصول:

الفصل الأوّل: التحية والسلام. وفي هذا الفصل نجد هذه الزيارة تبدأ بجميع مفرداتها بالسلام «السلام عليكم يا أهل بيت النبوة، السلام على الدعاة إلى الله. وهكذا».

الفصل الثاني: يبدأ باستعراض عقيدة الإنسان المؤمن بين يدي الأئمّة الأطهار. نقول هذه هي عقيدتنا: «أشهد أن لا إله إلاّ الله، وأشهد أن محمّداً عبده ورسوله، وأشهد أنكم الأئمّة الراشدون، المهديون، المعصومون، المقربون، المتقون» لاحظوا هذا استعراض عقيدة الإنسان، يعني عندما الطالب يقف أمام الأستاذ في المدرسة يقول له هذه هي النظريات التي أومن بها، فإذا كانت صحيحة اقبلها مني، وإذا كانت غير صحيحة صححها لي، نحن في الزيارة الجامعة بعد أن نبدأ في الفصل الأوّل بالسلام على أهل البيت نبدأ بالفصل الثاني بمقطع أشهد أن لا إله إلاّ الله استعراضاً عقائدياً.

الفصل الثالث: ينتقل له بشكل مرتب ورائع كأن الإمام عليه السلام رتب هذه الزيارة على شكل فصول، هذا الفصل يبدأ بشرح علاقة الأئمّة الأطهار مع الله تبارك وتعالى ومنزلتهم عنده.

ما هي منزلة أهل البيت عند الله تبارك وتعالى؟

هنا نقول: «أشهد أنكم السبيل الأعظم، والصراط الأقوم، وشهداء دار الفناء، وشفعاء دار البقاء، والرحمة الموصولة، والآية المخزونة» لاحظوا كل هذا عرض رائع جداً لتصوّرنا عن منزلة أهل البيت فيما بينهم وبين الله تبارك وتعالى.

الفصل الرابع: هو عبارة عن استعراض علاقة المؤمن بأهل البيت. لقد تضمن الفصل الثاني عرضاً لاعتقادنا بالله، وبرسول الله وبالأئمّة الأطهار، والآن ما هي علاقتنا بأهل البيت؟

هذا الفصل يكرس لشرح علاقتك أنت المؤمن بأهل البيت «أني بكم مؤمن، وبإيابكم موقن بشرايع ديني وخواتيم عملي، إني سلم لمن سالمكم وحرب لمن حاربكم».

الفصل الخامس: هو الخاتمة وهو عبارة عن الدعاء، أي بعد أن أدينا أدب التحية مع أهل البيت في الفصل الأوّل، وفي الفصل الثاني استعرضنا عقائدنا واستعرضنا منزلة أهل البيت عند الله في الفصل الثالث، وبعد أن بينا ما هي علاقتنا بأهل البيت في الفصل الرابع يأتي ختام هذا العرض بالدعاء «يا سادتي ومواليَّ لو وجدت شفعاء أقرب إلى الله منكم لجعلتهم شفعائي».

* * *

لقد تضمنت المحاضرات السابقة[1] معايشة مع أهل البيت عليهم السلام في دلالات الفصل الأوّل والثاني. أمّا الآن فلنبدأ بالمعايشة مع أهل البيت عليهم السلام في ضوء مداليل الفصل الثالث من الزيارة.

* * *

(1) طبعت في المجلد الأوّل والثاني من هذا الكتاب.

الفصل الثالث من الزيارة:

«مَنْ وَالاكُمْ فَقَدْ وَالَى اللَّهَ وَمَنْ عَادَاكُمْ فَقَدْ عَادَى اللَّهَ وَمَنْ أَحَبَّكُمْ فَقَدْ أَحَبَّ اللَّهَ [وَمَنْ أَبْغَضَكُمْ فَقَدْ أَبْغَضَ اللَّهَ] وَمَنِ اعْتَصَمَ بِكُمْ فَقَدِ اعْتَصَمَ بِاللَّهِ أَنْتُمُ الصِّرَاطُ الْأَقْوَمُ [السَّبِيلُ الْأَعْظَمُ] وَشُهَدَاءُ دَارِ الْفَنَاءِ وَشُفَعَاءُ دَارِ الْبَقَاءِ وَالرَّحْمَةُ الْمَوْصُولَةُ وَالْآيَةُ الْمَخْزُونَةُ وَالْأَمَانَةُ الْمَحْفُوظَةُ وَالْبَابُ الْمُبْتَلَى بِهِ النَّاسُ مَنْ أَتَاكُمْ نَجَا وَمَنْ لَمْ يَأْتِكُمْ هَلَكَ إِلَى اللَّهِ تَدْعُونَ وَعَلَيْهِ تَدُلُّونَ وَبِهِ تُؤْمِنُونَ وَلَهُ تُسَلِّمُونَ وَبِأَمْرِهِ تَعْمَلُونَ وَإِلَى سَبِيلِهِ تُرْشِدُونَ وَبِقَوْلِهِ تَحْكُمُونَ سَعِدَ مَنْ وَالاكُمْ وَهَلَكَ مَنْ عَادَاكُمْ وَخَابَ مَنْ جَحَدَكُمْ وَضَلَّ مَنْ فَارَقَكُمْ وَفَازَ مَنْ تَمَسَّكَ بِكُمْ وَأَمِنَ مَنْ لَجَأَ إِلَيْكُمْ وَسَلِمَ مَنْ صَدَّقَكُمْ وَهُدِيَ مَنِ اعْتَصَمَ بِكُمْ مَنِ اتَّبَعَكُمْ فَالْجَنَّةُ مَأْوَاهُ وَمَنْ خَالَفَكُمْ فَالنَّارُ مَثْوَاهُ وَمَنْ جَحَدَكُمْ كَافِرٌ وَمَنْ حَارَبَكُمْ مُشْرِكٌ وَمَنْ رَدَّ عَلَيْكُمْ فِي أَسْفَلِ دَرْكٍ مِنَ الْجَحِيمِ أَشْهَدُ أَنَّ هَذَا سَابِقٌ لَكُمْ فِيمَا مَضَى وَجَارٍ لَكُمْ فِيمَا بَقِيَ وَأَنَّ أَرْوَاحَكُمْ وَنُورَكُمْ وَطِينَتَكُمْ وَاحِدَةٌ طَابَتْ وَطَهُرَتْ بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ خَلَقَكُمُ اللَّهُ أَنْوَارًا فَجَعَلَكُمْ بِعَرْشِهِ مُحْدِقِينَ حَتَّى مَنَّ عَلَيْنَا بِكُمْ فَجَعَلَكُمْ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَجَعَلَ صَلاتَنَا [صَلَوَاتِنَا] عَلَيْكُمْ وَمَا خَصَّنَا بِهِ مِنْ وِلايَتِكُمْ طِيبًا لِخَلْقِنَا [لِخُلُقِنَا] وَطَهَارَةً لِأَنْفُسِنَا وَتَزْكِيَةً [بَرَكَةً] لَنَا وَكَفَّارَةً لِذُنُوبِنَا فَكُنَّا عِنْدَهُ مُسَلِّمِينَ بِفَضْلِكُمْ وَمَعْرُوفِينَ بِتَصْدِيقِنَا إِيَّاكُمْ فَبَلَغَ اللَّهُ بِكُمْ أَشْرَفَ مَحَلِّ الْمُكَرَّمِينَ وَأَعْلَى مَنَازِلِ الْمُقَرَّبِينَ وَأَرْفَعَ دَرَجَاتِ الْمُرْسَلِينَ حَيْثُ لا يَلْحَقُهُ لاحِقٌ وَلا يَفُوقُهُ

فَائِقٌ وَلا يَسْبِقُهُ سَابِقٌ وَلا يَطْمَعُ فِي إِدْرَاكِهِ طَامِعٌ حَتَّى لا يَبْقَى مَلَكٌ مُقَرَّبٌ وَلا نَبِيٌّ مُرْسَلٌ وَلا صِدِّيقٌ وَلا شَهِيدٌ وَلا عَالِمٌ وَلا جَاهِلٌ وَلا دَنِيٌّ وَلا فَاضِلٌ وَلا مُؤْمِنٌ صَالِحٌ وَلا فَاجِرٌ طَالِحٌ وَلا جَبَّارٌ عَنِيدٌ وَلا شَيْطَانٌ مَرِيدٌ وَلا خَلْقٌ فِيمَا بَيْنَ ذَلِكَ شَهِيدٌ إِلا عَرَّفَهُمْ جَلالَةَ أَمْرِكُمْ وَعِظَمَ خَطَرِكُمْ وَكِبَرَ شَأْنِكُمْ وَتَمَامَ نُورِكُمْ وَصِدْقَ مَقَاعِدِكُمْ وَثَبَاتَ مَقَامِكُمْ وَشَرَفَ مَحَلِّكُمْ وَمَنْزِلَتِكُمْ عِنْدَهُ وَكَرَامَتَكُمْ عَلَيْهِ وَخَاصَّتَكُمْ لَدَيْهِ وَقُرْبَ مَنْزِلَتِكُمْ مِنْهُ».

* * *

المحاضرة الحادية والأربعون:

أهل البيت عليهم السلام هم الأمانة الإلهيّة

«أَنْتُمُ الصِّرَاطُ الأَقْوَمُ والسَّبِيلُ الأَعْظَمُ وَشُهَدَاءُ دَارِ الْفَنَاءِ وَشُفَعَاءُ دَارِ الْبَقَاءِ وَالرَّحْمَةُ الْمَوْصُولَةُ وَالْآيَةُ الْمَخْزُونَةُ وَالْأَمَانَةُ الْمَحْفُوظَةُ».

بسم الله الرحمن الرحيم

المقطع الأوّل من الفصل الثالث للزيارة الجامعة الكبيرة يقول: «أنتم السبيل الأعظم، والصراط الأقوم، وشهداء دار الفناء، وشفعاء دار البقاء، والآية المخزونة، والرحمة الموصولة، والأمانة المحفوظة».

حديثنا اليوم عن الأمانة، ماذا تعني الأمانة المحفوظة في قوله: «والأمانة المحفوظة»؟

هذه الزيارة تصف أهل البيت بأنهم الأمانة المحفوظة فما هي الأمانة المحفوظة؟

وكذلك تصفهم بـ «الآية المخزونة»، فأهل البيت هم آية الله تعالى، يعني أن الله تعالى لم يخلق خلقاً أروع وأكمل من أهل بيت النبوة، أكمل المخلوقات الإنسان وأكمل الناس الأنبياء وأكمل الأنبياء هم أولوا العزم، وأهل بيت النبوة المحمّدية هم أكمل من سائر الأنبياء بعد رسول الله ﷺ. إذن الآية الإلهية التي خزنها الله تعالى في الوجود هم أهل بيت النبوة. وهم «الرحمة الموصولة» فرسول الله ﷺ هو رحمة للعالمين وأهل البيت هم امتداد للرسول فهم الرحمة المتصلة ﴿وَما أَرْسَلْناكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعالَمِينَ﴾.[1]

الأمانة المحفوظة:

هذا النص يربطنا بالنص القرآني وهو قوله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمانَةَ عَلَى

(1) الأنبياء: ١٠٧.

السَّماواتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَها وَأَشْفَقْنَ مِنْها وَحَمَلَهَا الإِنْسانُ إِنَّهُ كانَ ظَلُوماً جَهُولاً﴾[1] **صرح القرآن الكريم إن الله تعالى له في الخلق أمانة وهذه الأمانة لم تحملها السماوات ولا الجبال والأرض وإنما حملها الإنسان.**

توجد أمانتان:

١ _ أمانة الناس: شخص يضع عندك أمانة وهي أمانة محترمة، ومن أخلاق المؤمن حفظ الأمانة، ومن كبائر الذنوب خيانة الأمانة. ومن علامات المنافق خيانة الأمانة. ولهذا عندنا في الروايات عن الرسول ﷺ: «للمنافق ثلاث علامات: إذا حدّث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا ائتُمن خان»،[2] الإنسان إذا كان كذّاباً فهي درجة من درجات النفاق، وإذا خان الأمانة كذلك، وبالعكس فإن علامات المؤمن: «صدق الحديث، وأداء الأمانة، ووفاء بالعهد»[3] بهذا الصدد توجد رواية عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «امتحنوا شيعتنا عند ثلاث: عند مواقيت الصلاة كيف محافظتهم عليها، وعند أسرارهم كيف حفظهم لها عند عدونا، وإلى أموالهم كيف مواساتهم لإخوانهم فيها»[4] هذا حديث عن أمانة الإنسان.

---

(1) الأحزاب: ٧٢.

(2) من لا يحضره الفقيه ٤: ٣٦١.

(3) الكافي ٢: ٢٣٩/ ح ٢٩. وفيه عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: «إن لأهل الدين علامات يعرفون بها: صدق الحديث، وأداء الأمانة، ووفاء بالعهد، وصلة الأرحام، ورحمة الضعفاء، و...» إلخ الحديث.

(4) الخصال: ١٠٣.

٢ _ أمانـة الله: وهـي أعظـم مـن أمانـة النـاس، فكمـا يجـب أن تفـي بأمانـة البـشر، كـذلك أمانـة الله ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا﴾[1] **هـذه أمانـة الله تعـالى، والقـرآن يقـول ويكـرر التوصـية بحفـظ الأمانـة وأدائهـا:** ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا﴾،[2] **ويقـول:** ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ﴾.[3]

ما هي أمانة الله؟

السؤال الآن ما هي تلك الأمانة التي لم تحملها السماوات والأرض والجبال، أما الإنسان فقد حملها؟

عندنا بعض الروايات تقول: الأمانة هي: ولاية أمير المؤمنين عليه السلام، لكن المفسرين يطرحون مجموعة آراء في هذه الأمانة الإلهية:

التفسير الأوّل: هي العقل، فالله تعالى عرض العقل على السماوات والأرض والجبال فلم تقبله، إذ ليس لديها قدرة أن تكون كياناً عاقلاً، لكن الإنسان في تركيبه مؤهل لأن يكون عاقلاً.

التفسير الثاني: إنها الدين، فالله تعالى عرض الدين والشريعة على السماوات والجبال والأرض، فقالت ليس لدي قدرة على أن أكون خليفة الله، فأنا مسيّرة فليس لديَّ إرادة، لكن الإنسان لديه إرادة واختيار فقال: أنا أقبل التكليف، لكن هذا الإنسان الذي قبل هذه الأمانة أصبح ظلوماً جهولاً بمعصيته.

---

(1) الأحزاب: ٧٢.

(2) النساء: ٥٨.

(3) الأنفال: ٢٧.

التفسير الثالث: الذي يذكره العلامة الطباطبائي هو تفسير شامل يمكن أن ينطبق على هذه المفاهيم التي ذكرناها، وهو إن هذا الإنسان وحده هو المستعد والمؤهل لأن يكون ولياً لله، أليس الله تعالى هو ﴿وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾،[1] فالآية لا تقول إن الله تعالى ولي الجبال والكواكب، أي أنه يقبل أولئك المؤمنين ويجعلهم أولياء له وهو الذي يدبّر أمورهم، هذا الاستعداد للولاية هو الأمانة، حينئذٍ قال الله تعالى أيها الإنسان حينما تقبلت هذه الأمانة فيجب أن تؤدي حقها، فأنت مثل موظف في دائرة، وعندك معاملات الناس فهذه أمانة لا بدَّ أن تؤدي هذه الأمانة.

العقل أيضاً أمانة، والتكليف والرسالات الإلهية أيضاً أمانة، والحياة أمانة، فكل نعمة من نعم الله على الإنسان هي أمانة، فالعافية والعمر كلها أمانة لدى هذا الإنسان. وعلى هذا الأساس كان الانتحار حراماً، لماذا حرام؟ فقد يقول قائل أنا لا أريد هذا العمر، فيقال له: إن الله تعالى أودع عندك أمانة هي أمانة العمر، وأوجب عليك أن تكون حريصاً على بقائها.

كنتُ أقرأ في أحد التقارير أن في ألمانيا وهي من الدول المتقدمة أن هناك (١١/٠٠٠) حالة انتحار سنوياً، أي أن أحد عشر ألف إنسان يخون الأمانة من مجموع (١٥٠) محاولة انتحار تفشل.

وهكذا حينما تكون مسؤولاً، أو تاجراً أو لديك مسؤولية معينة، فأنت عندك أمانة فلا تخونها. وأحياناً تكون الخيانة بأشكال شتى وفي كل زمان، في هذا الزمان توجد أنواع جديد من خداع الناس.

---

(1) البقرة: ٢٥٧.

توجد سفارة افتتحوها في الصين اسمها: سفارة القمر، أي جمهورية القمر ما هي قصة هذه السفارة؟

هي شركة بسيطة من مجموعة ناس محتالين، كل ما لديهم من رأس المال هو (١٢/٠٠٠)، ففكروا كيف يحتالون على الناس، قالوا نحن شركة، والشركة فتحت سفارة اسمها سفارة القمر، واسم الشركة (بيكنك لونا فلدج)، هذه السفارة مهمتها أنه تبيع أراضي القمر للناس، كل أربعة آلاف متر بسبع وثلاثين دولاراً. ومن أجل أن يعطوا لشركتهم صفة قانونية بدؤوا بوضع مواصفات فنيّة، فقالوا أن هذه الـ (٤٠٠٠ م) يحق لصاحبها أن ينزل إلى عمق خمسة عشر ألف متراً داخل أرض القمر، وإذا وجدت هناك معدن (ذهب أو فسفور) هذا لك، أما إذا كان أكثر من (١٥٠٠٠ م) تحت الأرض ليس لك. فبدأت مجموعة من الناس بتسجيل أسمائهم، هذه هي صورة من صور الكذب والنفاق العصري.

لنعد إلى سؤال: «إنا عرضنا» هذا العرض هل هو عرض حقيقي أو تقديري؟

يعني هل صحيح أنه كانت هناك عملية عرض ورد في يوم من الأيام الكونية، أم هي قضية فرضية؟

القرآن يذكر قضايا فرضية وقضايا حقيقية، مثلاً: ﴿لَوْ أَنْزَلْنا هذَا الْقُرْآنَ عَلى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللهِ﴾[1] هذه القضية فرضية، وهكذا ﴿وَلَوْ يُؤاخِذُ اللهُ النّاسَ بِما كَسَبُوا ما تَرَكَ عَلى ظَهْرِها مِنْ دَابَّةٍ﴾،[2] الله تعالى يقول على سبيل الفرضية لو أردت أن أعاقب الناس في الدنيا فلا أحد يسلم.

(1) الحشر: ٢١.

(2) فاطر: ٤٥.

القرآن الكريم يقول: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنا بَعْضَ الْأَقاوِيلِ * لَأَخَذْنا مِنْهُ بِالْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنا مِنْهُ الْوَتِينَ﴾،[١] **يعني لو أن النبي يكذب علينا لقطعنا رأسه. هذه كلها قضايا فرضيّة، أمّا قضية عرض الأمانة على السماوات والأرض والجبال فقد يبدو أنها قضية حقيقية أي أن هناك حادثة كونية كبرى حقيقية، لكن كيف كان ذلك؟ هل للسماوات لسان، أو هو لسان حالها؟ أو ببيان آخر اعتذرت، لا نعلم ذلك ، ولكن القرآن الكريم يستعرض المشهد بشكل إجمالي ويقول إن الإنسان وحده تقبل الأمانة.**

في ضوء هذا التفسير يكون أهل البيت عليهم السلام من أعظم الأمانات التي أودعها الله تعالى لدى البشر، ولكن النص يقول: «الأمانة المحفوظة».

ما معنى محفوظة؟

لها معنيان:

المعنى الأوّل: إن الله تبارك وتعالى استودعها عند الناس وقد لا يؤدون حقها، لكنها مودعة في ذمتهم.

المعنى الثاني: إن الله تعالى حفظ هذه الأمانة، لو أن البشر أجمعوا على إطفاء نورها ما استطاعوا، كما في قوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحافِظُونَ﴾.[٢]

الله تعالى يقول إن الأنبياء وأهل بيت النبوات أنا حافظهم، مع أن البشر أجمعوا على قتل الأنبياء ﴿كُلَّما جاءَهُمْ رَسُولٌ بِما لا تَهْوى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقاً كَذَّبُوا وَفَرِيقاً يَقْتُلُونَ﴾[٣] **لكن النتيجة أن خط الأنبياء هو المنتصر، وهذا هو**

---

(1) الحاقة ٤٤ - ٤٦.

(2) الحجر: ٩.

(3) المائدة: ٧٠.

معنى حفظ الله، ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِؤُا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ﴾[١] بدأ التآمر على أهل البيت وأهل الدين وعلى نور الله من مطلع البعثة النبويّة وإلى يومنا هذا، لكن هذه الأمانة الإلهية محفوظة، فنور أهل البيت والإسلام يشع في العالم، هذا هو معنى الأمانة المحفوظة.

أهل البيت هم الأمانة:

كيف أصبح أهل البيت هم الأمانة؟

الحديث المُجمَع عليه عند المسلمين المعروف بحديث الثقلين «إني تارك (مخلف) فيكم الثقلين» أمانة لكن ثقيلة وهي «كتاب الله وعترتي أهل بيتي ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا بعدي أبداً»،[٢] هذه هي الأمانة. فهل وفى المسلمون لله ولرسوله حق هذه الأمانة؟

الحق إن الأمّة الإسلاميّة رغم أنها حاولت أن تسير مع الإسلام ورسول الله، لكن مجموعات متآمرة على الإسلام خانت أمانة الله ورسول الله صلى الله عليه وآله مما يجعلنا، نقول إن الأمّة لم تحفظ وديعة رسول الله، الأمّة بشكل عام، رغم أن هناك جماعات صالحة وهم جماعة أهل البيت الذين حفظوا هذه الأمانة ووفوا لها، لكن التيار العام لم يفوا لله ولرسوله في هذه الأمانة.

أيُّ وفاء؟ هل في موقفهم من الإمام عليّ عليه السلام حينما أُخذ مكبلاً بالأغلال وقيل له بايع وإلاّ تقتل؟

أو موقفهم مع الزهراء عليها السلام حينما جمعوا الحطب على باب

(1) الصف: ٨.

(2) أمالي الصدوق: ٥٠٠/ ٦٨٦.

دارهـا؟ وقـد كـان رسـول الله ﷺ يقـف عنـد هـذه البـاب قـائلاً: «السـلام عليكم يا أهل بيت النبوة وموضع الرسالة»؟

هـل مـوقفهم مـع الحـسن الـذي قُتـل مـسموماً ولـم يـأذنوا بزيـارة جنازته لرسول الله وهو جده. هل هذا هو حفظ الأمانة!؟

أم مـوقفهم مـع الحـسين ورأسـه يطـاف بـه فـي البلـدان، مـن بلـد إلـى بلـد، ونـساؤه سـبايا يتـصّفح وجـوههن القريـب والبعيـد، هـل هـذا هـو حفـظ للأمانة؟

إنا لله وإنا إليه راجعون

* * *

المحاضرة الثانية والأربعون:

قانون الشفاعة يوم القيامة

«شُهَدَاءُ دَارِ الْفَنَاء وَشُفَعَاءُ دَارِ الْبَقَاءِ»

بسم الله الرحمن الرحيم

حديثنا هذا اليوم عن قانون من قوانين الآخرة اسمه (الشفاعة)، حيث تقول هذه الزيارة: «وشهداء دار الفناء وشفعاء دار البقاء» وحديثنا عن هذا المقطع من الزيارة: «شفعاء دار البقاء»، والدنيا هي دار الفناء والأئمّة الأطهار كما الأنبياء هم شهداء ورقباء وأمراء على الناس في الدنيا: ﴿وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً﴾،[1] هذا في عالم الدنيا وهي عالم الشهادة والفناء.

«وشفعاء دار البقاء» فالآخرة هي دار البقاء فلا فناء يوم القيامة ولا موت يوم القيامة.

الآخرة عالم البقاء:

الرواية[2] تقول في عالم الشهادة يموت حتّى الملائكة ولا يبقى

(1) البقرة: ١٤٣.

(2) عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «... إنه يموت أهل الأرض حتّى لا يبقى أحد، ثمّ يموت أهل السماء حتّى لا يبقى أحد إلاّ ملك الموت وحملة العرش وجبرئيل وميكائيل عليهما السلام»، قال: «فيجيء ملك الموت عليه السلام حتّى يقوم بين يدي الله عزّ وجلّ، فيقال له: من بقي؟ - وهو أعلم - فيقول: يا رب لم يبق إلاّ ملك الموت وحملة العرش وجبرئيل وميكائيل عليهما السلام، فيقال له: قل لجبرئيل وميكائيل فليموتا، فتقول الملائكة: يا رب رسوليك وأمينيك، فيقول: إني قضيت على كل نفس فيها الروح الموت، ثمّ يجيء ملك الموت فيقف بين يدي الله عزّ وجلّ، فيقال له: من بقي؟ - وهو أعلم - فيقول: يا رب لم يبق إلاّ ملك الموت وحملة العرش، فيقول: قل لحمة العرش فليموتوا، قال: ثمّ يجيء كئيباً حزيناً لا يرفع طرفه، فيقال: من بقي؟ فيقول: يا رب لم يبق إلاّ ملك الموت، فيقال له: مت، فيموت، ثمّ يأخذ الأرض بيمينه والسماوات بشماله ويقول: أين الذين كانوا يدعون معي شريكاً؟ أين الذين كانوا يجعلون معي إلهاً آخر؟». أنظر: الكافي ٣: ٢٥٦/ ح ٢٥.

إلاّ ملك الموت، الله تبارك وتعالى ينادي يا ملك الموت من بقي، يقول ملك الموت إلهي وسيدي أنت وأنا.

الله تعالى يقول لملك الموت: مت، فيموت ملك الموت، وحينما يموت ويذوق صعوبة الموت يقول لو كنت أدري شدة الموت وصعوبته ما قبضت روح ابن آدم.

وفي الرواية أنه يؤتى بالموت فيذبح،[١] أي ظاهرة الفناء أيضاً تنتهي، لا يوجد شيء اسمه الفناء، على جسر القيامة، حينئذٍ يقول الله تبارك وتعالى: ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ﴾**، فلا أحد يجيب إنما يأتي من عند الله تعالى النداء** ﴿لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾**،[٢] هذا معنى** ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ﴾[٣] [٤]**.**

بعدئذٍ تعود الحياة في القيامة فذاك عالم العودة، لا موت هناك، والإنسان يبقى ملايين السنين ما دامت السماوات والأرض إلى ما شاء الله تعالى، فهو عالم البقاء الأبدي.

قوانين عالم الآخرة:

في ذاك العالم عالم القيامة توجد عدة قوانين حيث يأتي الوحي والقرآن يحدّثنا: أن في ذاك العالم توجد قوانين ومبادئ.

---

(1) عن أبي جعفر عليه السلام قال: «إذا دخل أهل الجنّة الجنّة، وأهل النار النار، جيء بالموت فيذبح، ثمّ يقال: خلود فلا موت أبداً». أنظر: الفصول المهمة ١: ٣٧٢/ ح ٦/٤٩٠.

(2) غافر: ١٦.

(3) الرحمن: ٢٦ و٢٧.

(4) في الرواية عن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «... ثمّ أمات ملك الموت، ثمّ يقول الله تبارك وتعالى: ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ﴾؟ فيرد على نفسه: ﴿لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾. أين الجبارون؟ أين الذين ادعوا معي إلهاً؟». أنظر: بحار الأنوار ٥٤: ١٠٥/ ح ٨٩.

هناك مجموعة قوانين يوم القيامة:

القانون الأوّل: قانون الحساب، يومئذٍ يوجد حساب، حيث كل شخص ينال جزاء عمله ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ * فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَاباً يَسِيراً * وَيَنْقَلِبُ إِلى أَهْلِهِ مَسْرُوراً * وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ * فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُوراً * وَيَصْلى سَعِيراً﴾،[1] **لا يوجد بشر يومئذٍ يفلت من مبدأ الحساب، لكن قوانين الحساب تختلف، فهناك حسابٌ بسيط وهناك حسابٌ عسير، وهناك من يمر دون حساب وهو أجر الصابرين** ﴿يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسابٍ﴾.[2]

القانون الثاني: قانون العفو، فهناك قانون في القيامة اسمه العفو والمغفرة: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صالِحاً ثُمَّ اهْتَدى﴾،[3] ﴿أُوْلئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئاتِهِمْ حَسَناتٍ﴾،[4] **فالإنسان المؤمن يبدل الله تعالى سيئاته حسنات.**

القانون الثالث: قانون الجزاء، فالذي يُعفى عنه يذهب إلى الجنّة، والذي لا يُعفى عنه يذهب إلى جهنم والعياذ بالله، هذا يسمى قانون الجزاء، أي بعد مرحلة الحساب يصبح الناس فريقين، ﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾.[5]

القانون الرابع: قانون الشفاعة، القرآن الكريم في العديد من الآيات يتحدّث عن قانون الشفاعة، وهو ما نريد أن نتحدّث عنه اليوم بشكل موجز.

---

(1) الانشقاق: ٧ - ١٢.

(2) الزمر: ١٠.

(3) طه: ٨٢ .

(4) الفرقان: ٧٠.

(5) الشورى: ٧.

معنى الشفاعة:

الشفاعة: تعني الوساطة، وشفيع بمعنى وسيط.

لُغوياً: جاءت الكلمة من الشفيع، فتقول جئتني بشفيع يشفع لك.

إن أحد قوانين يوم القيامة هو قانون الشفاعة، وهو ما نعبّر عنه باصطلاحنا الدارج قانون الوساطة، ولهذا سوف أطرح سؤالاً أن الوساطة هل شيء جيّد أم لا؟

فنحن في الدنيا نقول لا نريد وساطات بل نريد حكومة العدالة والقانون والحق. إذن في الآخرة كيف يوجد وساطات؟ الوساطات شيء غير جيد. إذن لماذا هي موجودة في الآخرة، وإذا كانت شيئاً جيداً، فلماذا نقول في الدنيا لا نريد وساطات؟ فهذا بحث سوف أتناوله بشكل موجز ومختصر.

على كل حال قانون الشفاعة هو قانون الوساطة يوم القيامة، بعض يتوسط لبعض، مثلاً إنسان غير قادر على العبور على الصراط يعينه إنسان آخر فيشفع له ويكون رديفاً له ويمرره، هذا هو قانون الشفاعة يوم القيامة.

الآيات القرآنية في الشفاعة:

قانون الشفاعة هو من المبادئ والقوانين التي أجمع عليها علماء الشيعة والسُّنّة فهو قانون مذكور في القرآن الكريم.

توجد مجموعة آيات بصدد الإشارة لهذا القانون.

مثلاً قوله تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾.(١)

---

(1) البقرة: ٢٥٥.

وفي آية أخرى يقول: ﴿يَوْمَئِذٍ لا تَنْفَعُ الشَّفاعَةُ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمنُ﴾.[1]

ويقول أيضاً: ﴿لا يَمْلِكُونَ الشَّفاعَةَ إِلا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمنِ عَهْداً﴾.[2]

توجد آيات قرآنية كثيرة تتحدث عن قانون الشفاعة منها قوله تعالى: ﴿وَلا يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضى﴾.[3]

الآيات المضادة:

ورغم أن هذا القانون إجماعي لدى المسلمين والقرآن الكريم يؤكده، لكن سنجد آيات مضادة، آيات في ظاهرها تنفي قانون الشفاعة.

مثلاً قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْماً لا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئاً وَلا يُقْبَلُ مِنْها شَفاعَةٌ﴾.[4]

فهذه آية صريحة تقول: ﴿وَلا يُقْبَلُ مِنْها شَفاعَةٌ﴾، ﴿وَاتَّقُوا يَوْماً لا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئاً﴾ **وهذه فيها مدلول أنه لا توجد شفاعة يوم القيامة فنسميها: (آيات مضادة).**

وهكذا مثل قوله تعالى: ﴿فَما تَنْفَعُهُمْ شَفاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾،[5] **هذه آية مضادة أيضاً.**

الجمع بين الآيات المثبتة والنافية:

هنا جاء الأئمّة الأطهار وعلماء التفسير حتّى يوفقوا بين تلك

---

(1) طه: ١٠٩.
(2) مريم: ٨٧ .
(3) الأنبياء: ٢٨.
(4) البقرة: ٤٨.
(5) المدثر: ٤٨.

الآيـات التـي تؤكـد وجـود الـشفاعة، وبـين هـذه الآيـات التـي تنفـي وجـود الشفاعة.

لقــد ذكــر المفــسرون أن الآيــات النافيــة للــشفاعة خاصــة بالنــسبة للكافرين، فالكافر لا شفاعة له يوم القيامة.

فـالقرآن الكـريم يقـول: ﴿أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾،[١] هذه عن الكافر والمنافق.

لكـن هنـاك آيـة قرآنيـة أخـرى تقـول: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاؤُكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّاباً رَحِيماً﴾،[٢] أي إذا كـان هنـاك أشـخاص مؤمنـون قـد أذنبـوا وجـاؤوا إلـى رسـول الله ﷺ يطلبـون منه الاسـتغفار والـشفاعة، فالاسـتغفار مقبـول. لكــن إذا كـانوا كـافرين ومنـافقين فلـو أن رسـول الله يـستغفر لهـم لـن يغفـر الله لهـم، وبهـذا تنحـل المـشكلة، فبالنـسبة للمـؤمن المـذنب فـإن الـشفاعة موجـودة، وبالنـسبة للكـافر الـذي لا يـؤمن بـالله أو المنـافق الـذي هـو أسـوء مـن الكـافر هـؤلاء لا تـنفعهم شـفاعة الشافعين.

إذاً لا يوجــد فــي القــرآن الكــريم تــضاد بــين آيــات تــدل علــى الشفاعة، وآيات لا تدل على الشفاعة أو تنفيها.

أحاديث حول الشفاعة:

سـوف أقـرأ لكـم اليـوم مجموعـة أحاديـث بهـذا الـشأن، ثـمّ نطـرح بعض الإشكالات للإجابة عليها.

---

(1) المنافقون: ٦.

(2) النساء: ٦٤.

الحديث الأوّل: هو الحديث المتفق عليه عند الشيعة والسنة عن رسول الله ﷺ، يقول: «ادَّخرت شفاعتي لأهل الكبائر من أمّتي»،[١] هذه الروايات يحصيها العلامة المجلسي في كتابه (بحار الأنوار، الجزء الثامن).

الحديث الثاني: عن رسول الله ﷺ: «إني أشفع يوم القيامة فأشفَع، ويُشفّع عليٌّ فيَشفّع، ويُشفّع أهلُ بيتي فيشفَعون، وإن أدنى المؤمنين شفاعةً ليَشفعُ لأربعين من إخوانه، كلٌّ قد استوجب النار».[٢]

الحديث الثالث: عن ابن مسعود يقول: يشفع نبيكم رابعَ أربعة، جبرئيل ثمّ إبراهيم ثمّ موسى أو عيسى ثمّ نبيكم. ولا يشفع أحد أكثر مما يشفع فيه نبيكم ثمّ النبيون يشفعون ثمّ الصديقون ثمّ الشهداء ويبقى في جهنم قوم فيقال لهم: ﴿ما سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ * قالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ * وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ * وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخائِضِينَ * وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ﴾.[٣]

قال ابن مسعود: فهؤلاء الذين يبقون في جهنم.[٤] أما الباقون فيخرجون من جهنم.

إن الشفاعة قد تأتي ساعة الموت، وقد تأتي بعد الموت في القبر، وقد تأتي بعد القبر، أو أوّل المحشر أو آخر المحشر أو تأتي في باب جهنم، أو تأتي آخر جهنم، بعد سنين من العذاب فيقبل الله شفاعة الشافعين في حق أشخاص قد استوجبوا العذاب.

---

(1) البحار ٨: ٣٠.

(2) المصدر السابق.

(3) المدثر: ٤٢ - ٤٦.

(4) بحار الأنوار ٨: ٣٣.

صحيح أن الشفاعة هي للكل، لكن قد تأتي بعد ألف سنة أو بعد ملايين السنين.

سوف نجيب على السؤال القائل: إنه إذا كان هناك شفاعة إذن فافعلوا ما شئتم.

في الحقيقة القرآن لا ينصح بهذا، والنبي والأئمّة لا ينصحون بهذا، والروايات تقول: «إنما أتخوَّف عليكم من البرزخ»،[1] فقد تحصل الشفاعة يوم القيامة، لكن بعد سنوات من العذاب الأليم، فكيف تتخلص منها.

الحديث الرابع: عن رسول الله ﷺ: «يقول الرجل من أهل الجنّة يوم القيامة: أي ربي عبدك فلان سقاني شربة من ماء في الدنيا فشفّعني فيه، فيقول الله تبارك وتعالى: اذهب فأخرجه من النار، فيذهب فيتجسس في النار حتّى يخرجه منها».[2]

الحديث الخامس: عن عليّ ابن أبي طالب عليه السلام قال: «قالت فاطمة لرسول الله ﷺ: يا أبتاه أين ألقاك يوم القيامة؟».

السؤال المهم لدى الزهراء عليها السلام هو أين تلقاه؟

قال ﷺ: «عند باب الجنّة ومعي لواء الحمد وأنا شفيع لأمّتي إلى ربي».

قالت: «فإن لم ألقك هناك؟».

قال رسول الله ﷺ: «على الحوض وأنا أسقي أمّتي».

قالت: «يا أبتاه فإن لم ألقك هناك؟».

قال ﷺ: «على الصراط وأنا قائم أقول ربي سلّم أمّتي».

---

(1) الكافي ٣: ٢٤٢/ ٤٧٣٣.

(2) البحار ٨: ٣٣.

قالت: «يا أبتاه يا رسول الله فإن لم ألقك على الصراط؟».

قال ﷺ: «عند الميزان أقول ربي سلم أمّتي».

قالت: «يا رسول الله فإن لم ألقك عند الميزان؟».

قال ﷺ: «على شفير جهنم أمنع شررها ولهبها من أمّتي»، فاستبشرت فاطمة بذلك.[١]

هذه محطات كبيرة يوم القيامة.

الحديث السادس: عن الإمام عليّ عليه السلام يقول: «إن للجنّة ثمانية أبواب: باب يدخل منه النبيون والصديقون، وباب يدخل منه الشهداء والصالحون، وخمسة أبواب يدخل منها شيعتنا ومحبونا، فلا أزال واقفاً على الصراط أدعو وأقول ربي سلّم شيعتي ومحبيّي وأنصاري، ومن تولاّني في دار الدنيا، فإذا النداء من بطنان العرش قد أجيبت دعوتك، وشُفّعت في شيعتك، ويشفع كل رجل من شيعتي ومن تولاني ونصرني، وحارب من حاربني في سبعين ألف من جيرانه وأقربائه.

وباب يدخل منه سائر المسلمين ممن يشهد أن لا إله إلاّ الله ولم يكن في قلبه مقدار ذرة من بغضنا أهل البيت».[٢]

هذه مجموعة روايات وأحاديث في الشفاعة.

مجموعة إشكالات على الشفاعة:

وهناك مجموعة إشكالات:

الإشكال الأوّل: أن الشفاعة سبب الإغراء بالمعاصي. وكثير من

---

(1) أمالي الصدوق: ٣٥٠/ ٤٢٢.

(2) الخصال: ٤٠٨/ ٦.

الناس يرتكب الكثير من المعاصي والمحرمات ويتسامح في ترك الواجبات بأمل الشفاعة، فأصبح قانون الشفاعة سببَ إغراء.

الجواب: إن الشفاعة هي سبب الأمل بالعفو وليس الإغراء بالمعاصي، مثل العفو الإلهي والمغفرة الإلهية، أليس القرآن يقول: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾،[١] هل تستطيع أن تقول إذن الرحمة الإلهية تصبح سبباً للإغراء؟ بل الرحمة هي سبب للأمل بالنجاة وأن يبقى باب الأمل مفتوحاً لهذا الإنسان حتّى يتحرك نحو الصلاح ولا يوصد عليه الباب.

فالشفاعة نافذة من نوافذ الرحمة الإلهية والمغفرة الإلهية، فإذا كان يوجد إشكال على الشفاعة، إذن هذا الإشكال هو إشكال على الرحمة الإلهية والعفو والمغفرة الإلهية.

الله تعالى ﴿غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ﴾،[٢] فهل يمكن لشخص أن يقول: إذا كان الله غافراً إذن أُذنب وبعدها أتوب إلى الله تعالى؟ فهل لشخص أن يقول: إن هذه القوانين هي سبب للإغراء؟

الشفاعة أيضاً كذلك، هذا هو الجواب الإجمالي الموجز.

الإشكال الثاني: أن الشفاعة تتنافى مع العدالة، أليس الله تبارك وتعالى عادلاً ولا يظلم أحداً، ففي يوم القيامة يوجد أناس يُشفع لهم فيدخلون الجنّة، وآخرون لا يُشفع لهم فلا يدخلون الجنّة، فما ذنب هؤلاء؟ فالشفاعة خلاف قانون العدالة. هذا سؤال وهو ناشئ في الحقيقة من عدم تصوّر كامل للقضية.

---

(1) الأعراف: ١٥٦.

(2) غافر: ٣.

الجواب: الشفاعة ليست خلاف العدالة، بل هي مثل قانون العفو والرحمة والتسامح، فمثلاً أنت تريد أن تتسامح مع شخص مدين لك، تقول له: أعطني بعض المبلغ والباقي لك.

هذا في الحقيقة تسامح، فهل هذا خلاف العدالة؟

كلا ليس هذا خلاف العدالة.

الله تعالى يتسامح مع عباده يوم القيامة وهو ليس خلاف العدالة.

ثمّ الشفاعة هي لمن يستحق الشفاعة، فهناك قوم لا يستحقون الشفاعة وهناك من يستحقون: ﴿وَلا يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضى﴾،(1) فالذين يستحقون تُقبل الشفاعة بحقهم، أما أولئك الذين لا يستحقون لا تُقبل الشفاعة بحقهم، فهذا ليس ظلماً لهم، فهم بالأصل لا يستحقون الشفاعة.

الإشكال الثالث: قانون الوساطة مرفوض في الدنيا، والواجب هو أن ينال كل إنسان حقّه في الدنيا بعيداً عن المحسوبيات والمنسوبيات، إذن كيف نسمح بها يوم القيامة وهو يوم العدالة المطلقة؟

الجواب: أن الوساطة المرفوضة هي عبارة عن تجاوز الحقوق، وصولاً إلى غصب حق الآخرين فهذه محرّمة ومرفوضة، الوساطة تكون محرمة إذا كنت أنت تمتنع عن الحقوق إلاّ بواسطة. وهكذا إذا كانت الوساطة على حساب حقوق الآخرين. في الحقيقة حينما نتحدّث عن الشفاعة في الدنيا فإنه ليست كل شفاعة في الدنيا باطلة، فالبشرية اليوم كلها تعمل بقانون الشفاعة.

إن الشفاعة المرفوضة هي التي بها تجاوز الحقوق، ويوم القيامة لا

---

(1) الأنبياء: ٢٨.

يوجد تجاوز حقوق، فهؤلاء أناس مؤمنون بالله تبارك وتعالى وقد أذنبوا، والله تعالى كرامة لنبيه ولأوليائه يمنحهم الشفاعة. فأي تجاوز للحقوق في هذا أو أي ظلم في هذا؟

نسأل الله أن يرزقنا في الدنيا زيارتهم وفي الآخرة شفاعتهم إنه أرحم الراحمين.

والحمد لله رب العالمين

* * *

المحاضرة الثالثة والأربعون:

أهل البيت عليهم السلام محور الامتحان الإلهي

«وَالْبَابُ الْمُبْتَلَى بِهِ النَّاسُ»

بسم الله الرحمن الرحيم

اليوم لدينا أكثر من حديث.

لـدينا حـديث قرآنـي، وحـديث فلـسفي، وحـديث روائـي عقائـدي.

كل هذا في محور قوله: «والباب المبتلى به الناس».

أهل البيت هم الباب المبتلى به الناس، فما معنى هذا؟

ولماذا كان أهل البيت هم باب هذا الابتلاء؟

وما هي سُنّة الابتلاء في القرآن الكريم؟

لماذا الابتلاء والله تعالى غني عن امتحان الناس؟

هذه مجموعة بحوث قرآنية فلسفية نتحدّث عنها.

سُنّة الابتلاء:

فـي البحـث القرآنـي نجـد أن القـرآن الكـريم يؤكـد سُـنّة مـن الـسنن الإلهيـة اسـمها: سُـنّة الابـتلاء، مثـل سُـنّة المـوت والحيـاة، أي أنهـا مـسار طبيعـي لا يتخلـف، الله تبـارك وتعـالى رَسَـم الوجـود الإنـساني علـى هـذا المسار الذي اسمه (مسار الابتلاء والتمحيص).

القرآن الكريم يؤكد هذا المعنى في آيات عديدة.

مثلاً يقول: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ﴾.[١]

---

(1) محمّد: ٣١.

وفي آية أخرى يقول: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الأَمْوالِ وَالأَنْفُسِ وَالثَّمَراتِ﴾.[١]

إذن القرآن الكريم يلخص النظرية وهي أن الوجود الإنساني مبني على الابتلاء ﴿تَبارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَياةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾.[٢]

إذن فلسفة الوجود الدنيوي حسب المفهوم القرآني قائم على أساس الابتلاء، هذا صريح القرآن الكريم. أما إذا جئنا إلى الروايات فهناك كتب الحديث من مختلف الاتجاهات خصصت أبواباً وفصولاً لذلك، مثلاً في كتاب الكافي للعلامة الشيخ الكليني وهو من أهم كتبنا الحديثية في زمن الغيبة الصغرى، فيه فصل خاص اسمه (باب التمحيص والابتلاء)[٣] يجمع كل الأحاديث الواردة عن أئمّتنا عليهم السلام في هذا الشأن.

من كل ذلك نكتشف أن الابتلاء سنّة عامة لا ينجو منها إنسان مؤمناً كان أو فاسقاً، حتّى النبي لا يخلو من الابتلاء، كما يحدّثنا القرآن عن إبراهيم شيخ الأنبياء: ﴿وَإِذِ ابْتَلى إِبْراهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِماتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾.[٤]

خلاصة النظرية:

نستطيع أن نلخّص النظرية القرآنية في الابتلاء بما يلي:

أوّلاً: أن الابتلاء ظاهرة إنسانية عامة لا يُستثنى منها أحد.

---

(1) البقرة: ١٥٥.

(2) الملك: ١ و٢.

(3) الكافي ١: ٣٦٩.

(4) البقرة: ١٢٤.

ثانياً: الابتلاء أنواع، مرة ابتلاء بالشدة ومرة بالرخاء، فمرة ابتلاء بالفقر ومرة بالغنى، ومرة بالمرض ومرة بالصحة وهكذا، ولهذا فإن القرآن يذكر عدة صور للابتلاء في عدة آيات مرة يقول: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ﴾[(١)] هذا ابتلاء سلبي بشدة، ومرة ابتلاء بالرفاهية كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنا ما عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَها لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾.[(٢)] فهي صور في الابتلاء أيضاً.

ثالثاً: أن هذا الابتلاء هو مقياس للتكامل والتفاضل، فكلما كان الإنسان أكثر إيماناً سيكون أكثر ابتلاءاً كما ورد في الحديث الشريف: «أشد الناس ابتلاءاً الأنبياء ثمّ الأولياء ثمّ الأمثل فالأمثل».[(٣)] فهو مثل صعود جبل كلما تقترب من القمة تكون الصخور أكثر قساوة والصعود أكثر صعوبة.

إذن الابتلاء ليس معناه انك عنصر مبغوض من قبل الله تعالى، بل الهدف من البلاء هو ظهور حقيقة الإنسان حتّى تتجوهر وتظهر كينونة الإنسان وباطنه وذاتياته.

إذا لم يكن هناك ابتلاء فإن كل الناس سيكونون سواسية، الامتحان الإلهي هو السبيل لظهور حقيقة الإنسان.

والبلاء أنواع أحياناً: بلاءات واضحة، وأحياناً غير واضحة. فقد يبتلى الإنسان بمرض ويقال له: اصبر، هذا بلاء واضح.

لكن أحياناً يكون بلاء خفي، مثلاً جماعة من الناس عطاشى وهم

---

(1) البقرة: ١٥٥.

(2) الكهف: ٧.

(3) الكافي ٢: ٢٥٢/ ١.

في حرب ويصلون إلى الماء ولكن الله تعالى يقول لهم لا تشربوا الماء، هنا الإنسان يجب أن يكون مطيعاً رغم أن فلسفة هذا الأمر غير معروفة.

قصة طالوت:

مثال ذلك قصة طالوت وجالوت.

طالوت كان قائداً عسكرياً لمعسكر المؤمنين، وجالوت كان قائداً عسكرياً لمعسكر الكافرين، وذلك بعد مرحلة موسى عليه السلام، حيث قال بنو إسرائيل لنبي لهم: نريد أن ندخل في جهاد ونؤسس دولة، وهذا بحث مهم جداً تاريخياً وسياسياً، ويكشف لنا نظرية أن بداية الدولة الدينية كانت من بعد موسى وعلى عهد داوود فقط، وأما ما قبل ذلك فالأنبياء كانوا يسعون لتكوين الدولة الدينية، وكان دورهم الوعظ والإرشاد. وتطورت المراحل حتّى وصلنا إلى داوود وسليمان حيث بدأت الدولة الدينية، وبدأ دور الأنبياء، دور سياسي يكون النبي فيه ملكاً وحاكماً وليس مجرد واعظاً، ولهذا فإن القرآن الكريم يقول في قصة بني إسرائيل: ﴿إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكاً نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾[1] **كانت هذه هي بداية تأسيس الدولة الدينية.**

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلإِ مِنْ بَنِي إِسْرائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسى إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ﴾[2] **القرآن لم يذكر اسم هذا النبي لكن أكثر المفسرين يقولون هو اشموئيل باللغة العبرية وهو إسماعيل باللغة العربيّة.**

أكثر المفسرين يذكرون أن هذا النبي هو الذي قال له قومه:

---

(1) البقرة: ٢٤٦.

(2) المصدر السابق.

﴿ابْعَثْ لَنَا مَلِكاً نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾[1] **فقال لهم إسماعيل إن الله تبارك وتعالى سيهبُكم ملِكاً يكون قائداً عسكرياً اسمه (طالوت) وهذا ما حدث بالفعل، واشتبكوا في معركة مع جالوت، كانت هذه بدايات تأسيس الدولة الدينية على يد الأنبياء، ولحد الآن كان الملك هو طالوت والنبي هو اشموئيل.**

﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ﴾،[2] **يعني خرجوا من المدينة بقوات عسكرية يقودهم طالوت وكان أحد المقاتلين الأبطال هو النبي داوود كان في قوات المشاة، لكن هنا برز داوود حين قتل جالوت، حتّى أصبح الناس يتحدّثون عن بطولة داوود، ولمع نجمه وتفوقت شخصيته على الملك طالوت، وبعدها أصبح داوود هو الملك وتأسست حكومة داوود، ثمّ بعد داوود سليمان.**

الشاهد في هذه القصة هو: أن طالوت ومعه القوات المسلحة خرجوا خارج المدينة، في العراء وفي الحر ووصلوا إلى نهر _ لاحظوا الامتحان الإلهي الخفي _ ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلاَّ مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلاَّ قَلِيلاً مِنْهُمْ﴾[3] **لقد شرب الجميع وبقي (٣١٣) شخصاً لم يشربوا الماء وصاموا أو اغترفوا من الماء غرفة بسيطة.**

وأنت قد تعرف سبب الابتلاء وقد لا تعرفه، لكن يجب أن تستجيب للابتلاء.

---

(1) المصدر السابق.

(2) البقرة: ٢٤٩.

(3) المصدر السابق.

قصة جيفارا:

في كتاب (حياتي) لجيفارا الذي هو شريك كاسترو في تحرير كوبا، ثمّ انتقل إلى تحرير بلاد الأرجنتين وهناك قتل وقبل سنتين، قيل: أنه عُثر على جثته وأربع من جماعته.

جيفارا يذكر في قصصه: أننا كنا نقاتل في الجبال ونزحف على القوات العسكرية وندخل معهم ثمّ ننسحب في عملية خاطفة.

يقول جيفارا: أحياناً نقضي يومين أو ثلاثة في صحاري أو جبال، مرة طالت بنا المدة ولا يوجد ماء ولا طعام ونحن قوات كبيرة، وبعد مدة أوشكنا على الموت وصلنا إلى قرية من القرى، أهل القرية أضافونا وأعطونا الماء والطعام فأكثرنا من الأكل والشرب، فلما أصبح الصباح كان جميعنا إلاّ واحداً وهو كاسترو قد أصابنا الإسهال وآلام البطن؛ لأنه منذ ثلاثة أيام لم نأكل ولم نشرب، وفجأة أكلنا الطعام الشهي، فأصبحنا غير قادرين على الأداء العسكري، وفي تلك الحالة داهمتنا القوات العسكرية ولم ينج منهم إلاّ كاسترو وعدد قليل من الآخرين اللذين لم يأكلوا وكانوا حذرين عسكرياً.

ولنرجع إلى قصة اشموئيل، هذا النبي قال لهم إن الله مبتليكم بنهر، ماء زلال عذب وأنتم عطاشى، ﴿فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي﴾.

لكن يومئذٍ من يفهم هذه الحقيقة؟ ﴿فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلاَّ قَلِيلاً مِنْهُمْ﴾، هذه امتحانات إلهية خفية، ولهذا فإن اللذين شربوا من هذا الماء لما بدأت المواجهة مع قوات جالوت قالوا لطالوت: ﴿لا طاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجالُوتَ وَجُنُودِهِ﴾، أما اللذين لم يشربوا الماء قالوا: ﴿كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً

بِـإِذْنِ اللَّـهِ﴾، **أي أن الإنسان في الرفاهية أضعف منه في حالة الابتلاء الشديد** ﴿وَلَمَّا بَرَزُوا لِجالُوتَ وَجُنُودِهِ قالُوا رَبَّنا أَفْرِغْ عَلَيْنا صَبْراً وَثَبِّتْ أَقْدامَنا وَانْصُرْنا عَلَى الْقَوْمِ الْكافِرِينَ * فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ داوُدُ جالُوتَ وَآتاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشاءُ وَلَوْ لا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعالَمِينَ﴾.[1]

فلسفة الابتلاء:

ننتقل إلى المحور الثاني في الحديث وهو بحث فلسفي.

البحث الفلسفي: لماذا كان الله تعالى يبتلي الإنسان؟

يقول الله تعالى: ﴿وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ ما فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ ما فِي قُلُوبِكُمْ﴾.[2] **فلماذا؟ هل لأن الله تعالى غير عالم بحقيقة المؤمن من الفاسق؟ فالأستاذ يمتحن الطالب ليرى كفاءته أو عدم كفاءته فهو لا يعلم الغيب. لكن الله تعالى يقول أنا من اليوم الأوّل أعرف هؤلاء أناساً مؤمنين أو غير مؤمنين.**

فالسؤال إذا كان الابتلاء هو لمعرفة الحقيقة، فإن الله تعالى عالم بالحقيقة، إذن لماذا يبتلي؟ ثمّ القرآن الكريم يقول: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجاهِدِينَ مِنْكُمْ﴾[3] **فهل أن الله تعالى لا يعلم المجاهدين إلاّ بعدَ أن يمتحنهم؟**

هنا في اجماعاتنا الإسلاميّة نقول: إن الله تبارك وتعالى لا يحتاج إلى الامتحان، فهو عالم بالناس إذن فلماذا؟ هذا سؤال فلسفي، وهذه من أكبر معضلات الفلسفة أنه لماذا الابتلاء والامتحان في الحياة الدنيا وهو عارف بحقيقتهم؟

---

(1) البقرة: ٢٥٠ و٢٥١.

(2) آل عمران: ١٥٤.

(3) محمّد: ٣١.

جوابان:

هنا يوجد جوابان على هذا السؤال الفلسفي:

الجواب الأوّل: أن ذلك هو مقتضى العدالة الإلهية، فالله تعالى يعرف حقيقتهم، لكن مقتضى العدالة عدم القصاص قبل الجناية، لا يؤخذ الإنسان بالجرم حتّى يقوم بالجرم، أما أن يقول هذا القاضي أو الملك أنا أعلم أنك إنسان مجرم فمن الآن أحاسبك، هذا خلاف العدالة، الله تبارك وتعالى عادل، ومقتضى عدالته أنه قبل أن تنكشف هوية الإنسان ويمارس شراً لا يأخذ الإنسان بمجرد النية وسوء السريرة. هنا القرآن الكريم يقول: ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾،[1] **وهذا هو معنى** ﴿حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجاهِدِينَ مِنْكُمْ﴾ **بمعنى حتّى يظهر المجاهدون على حقيقتهم.**

الجواب الثاني: وهو جواب أعمق، أنه بقطع النظر عن مسألة العدالة فالقضية فوق مستوى العدالة، القضية هي من قانون اللطف والرحمة الإلهية. الله تعالى في سر تكوين الحياة الإنسانية يقول: إذا لم نجعل مرضاً فإن من غير الممكن أن تكون الصحة، وإذا لم نخلق بكتريا ضارة، لم تكن هناك بكتريا نافعة، وإذا لم يكن هناك ظلام فإنه لا معنى للضوء.

الحياة الإنسانية قائمة أصلاً على أساس تكون الطاقة من احتكاك حار وبارد، إذا لا يوجد حار وبارد أصلاً لا يشتعل الضوء، هذه فكرة فلسفية مهمة لكني أبسطها جداً.

هذه الحياة البشرية قائمة على مبدأ اسمه (مبدأ التدافع).

---

(1) الأنفال: ٤٢.

والقرآن الكريم يذكر ذلك، وأن هذا لطف، فالمسألة ليست أن الله يريد أن يكتشف حقائقكم، أصلاً الحياة الإنسانية لا تقوم إذا لم يكن هناك تدافع، فمثلاً السيارة لا تسير إذا لم يحدث هناك تدافع بين العجلات وبين الأرض، أي الحركة في الحياة كلها قائمة على مبدأ التدافع، لا بدَّ من وجود خير وشر، لا بدَّ من شر حتّى يعرف الإنسان الخير. والقران الكريم لا يعتبر ذلك مسألة عدالة فقط وإنما هو رحمة ولطف أيضاً.

القرآن الكريم يقول في تتمة قصة داوود والابتلاء: ﴿وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الأَرْضُ﴾،[1] يعني ربط قصة داوود وجالوت ليس بقانون العدالة المتجسدة في كون طالوت على حق وجالوت على باطل، وإنما بقانون لطف الله ورحمته في حفظ هذه الأرض من خلال قانون التدافع.

هذا هو حل المعضلة الفلسفية في مسألة لماذا الله تبارك وتعالى يبتلي العباد؟

أهل البيت عليهم السلام هم محور الامتحان:

البحث الثالث: بحث عقائدي روائي، قرأنا في الزيارة الجامعة: «والباب المبتلى به الناس».

الروايات تقول إن أهل البيت عليهم السلام مثالهم مثال باب حِطَّة، فرسول الله صلى الله عليه وآله يقول: «مثل أهل بيتي في هذه الأمّة مثل باب حِطَّة في بني إسرائيل».[2]

أمير المؤمنين يقول: «إني فيكم كباب حِطَّة في بني إسرائيل».[3]

---

(1) البقرة: ٢٥١.

(2) أعيان الشيعة ١: ٤١.

(3) البحار ٢٣: ٢١٨.

باب حطَّة بني إسرائيل:

ما هي قصة باب حِطَّة بني إسرائيل؟

بنو إسرائيل حينما أمضوا أربعين عاماً في التيه، بعد أن أذن الله تعالى لهم أن يدخلوا بيت المقدس هنا جاء الوحي الإلهي ﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَداً وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّداً﴾**، هنا محل الشاهد يوجد في بيت المقدس الباب رقم ثمانية تسمى باب حِطَّة.**

﴿وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾،[1] **وخلاصة القصة أن بني إسرائيل بعد أربعين سنة في التيه كانوا يسألون نبيهم من قثائها وفومها وبصلها وعدسها. فقال لهم رسولهم: إذا أردتم أنواع الطعام فادخلوا هذه القرية.**

المفسرون يقولون هذه القرية هي عبارة عن بيت المقدس ولهذا في آية أخرى قال: ﴿ادْخُلُوا الأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ﴾.[2]

وبعض المفسرين يقول: هي قرية أريحا.

الامتحان هو عندما أتوا ليدخلوا إلى بيت المقدس وإذا باب قديمة ومنخفضة، قالوا لا ندخل من هذه الباب نريد باباً جديدة وجيدة، قال لهم نبيّهم ﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّداً﴾.

التفسير الأوّل لـ ﴿ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّداً﴾**، أي انحنوا وادخلوا؛ لأن الباب صغير ومنخفض، فالسجود تعبير عن الانحناء سواءاً بمستوى الركوع أو بمستوى أكثر أو أقل.**

---

(1) البقرة: ٥٨.

(2) المائدة: ٢١.

التفسير الثاني: أي أدخلوا شاكرين، أي أدخلوا بلغة السجود والشكر.

التفسير الثالث: أي أدخلوا ثمّ اسجدوا.

لكن بني إسرائيل وهم أهل الجدل كما يصفهم القرآن الكريم، قالوا: نحن لا ندخل من هذا الباب سجداً، بل سوف ندخل من هذه الباب لكن بالمعكوس، أي جعلوا ظهرهم للباب وانحنوا ودخلوا، إهانة للنبي وعدم استعدادٍ للتنازل، وبدلاً من أن يقولوا: حِطَّة. وحِطَّة: أي كفارة ذنوب.

بنو إسرائيل كانوا أمّة مستكبرة يقول القرآن: ﴿وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾**، أي قولوا: دخولنا هو حِطَّةٌ وتحطّ الذنوب** ﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَداً وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّداً وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ * فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ﴾[(١)] **فبدل أن يقولوا: (حِطَّة) قالوا بعبارتهم العبرية: هطتا سمقانا أي حنطة سوداء، قالوا نأكل حنطة سوداء ولا ندخل بيت المقدس بهذه الطريقة فهذا هو الكبر لدى بني إسرائيل** ﴿فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزاً مِنَ السَّمَاءِ﴾**،[(٢)] نزل عليهم طاعون أخذ فئات كبيرة منهم، بعض الروايات تقول (١٢٠) ألف مات بالطاعون.**

هذه هي فكرة باب حِطَّة، يعني أن الله تعالى أراد أن يمتحن بني إسرائيل، فباب حِطَّة هي باب امتحان.

هنا الروايات تقول إن أهل البيت مثلهم مثل باب حِطَّة في بني

---

(1) البقرة: ٥٨ و٥٩.

(2) البقرة: ٥٩.

إسرائيل، يعني هم المختبر فإذا قبل الناس الدخول في هذا المختبر يغفر لكم خطاياكم وإذا لم يقبلوا ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزاً مِنَ السَّماءِ بِما كانُوا يَفْسُقُونَ﴾. **هذا هو معنى «مثل أهل بيتي فيكم كمثل باب حِطَّة».**[1]

والحمد لله رب العالمين

* * *

---

(1) غيبة النعماني: ٤٤.

المحاضرة الرابعة والأربعون:

بحث حول السعادة والشقاء

«سَعِدَ مَنْ وَالاكُمْ وَهَلَكَ مَنْ عَادَاكُمْ»

بسم الله الرحمن الرحيم

حديثنا هذا اليوم عن هذه الفقرة «سعد من والاكم وهلك من عاداكم» هذا النص يجعل مقياس السعادة والشقاء ومقياس النجاة والهلاك هو محبة أهل البيت وبغضهم، وهذا مفهوم أساسي في معتقداتنا نحن شيعة أهل البيت وانطلاقاً من المداليل القرآنية.

كيف أصبحت ولاية أهل البيت هي مقياس السعادة والنجاة ومخالفتهم مقياس الهلاك؟

الدليل على ذلك ما هو؟ هذا موضوع حديثنا اليوم وفيه مجموعة أبحاث:

بحث حول السعادة والشقاء:

البحث الأوّل: هل أن السعادة والشقاء هل هي قضية اختيارية أم هي قضية إجبارية؟ هذا بحث تناولناه في محاضرات سابقة، وهنا تأتي نظرية الإسلام ونظرية أهل البيت. وهي نظرية الأمر بين الأمرين أنه لا جبرية مطلقة ولا إرادية مطلقة وإنما هي أمر بين أمرين. فمهما تكن عوامل الحتمية يبقى الإنسان هو صاحب الموقف النهائي، كما نقرأ ذلك مثلاً في قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى﴾[1] القرآن هنا يقص علينا قصة قوم ثمود ويقول: ﴿هَدَيْنَاهُمْ﴾ أي: جاءتهم الهداية من الله لكنهم ﴿اسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى﴾ ولم

(1) فصلت: ١٧.

يجبرهم أحد على ذلك أي أن المسألة ليست جبرية، ولا هي اختيارية مطلقة لا دور فيها لإرادة الله تعالى وفضله وتوفيقه.

الله لـه إرادة ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ﴾،[1] وهـذا بحث تناولناه في لقاءات سابقة.

ما هي السعادة؟

اليوم عندنا بحث آخر، وهو أن السعادة بالمنظور الديني ما هي؟ هل هي سعادة الدنيا أم سعادة الآخرة؟ أم سعادة الدارين؟

اليوم المدرسة الإلحادية والمدرسة المادية والنظرية الليبرالية هكذا تقول: إن مساحة السعادة هي الدنيا فقط، وأما ما وراء الدنيا فهو شيء خارج عن إرادتنا ولا ضرورة؛ لأن نفكر بما بعد الموت.

علينا أن نفكر بحدود دائرتنا الدنيوية.

الدين يقول يجب البحث عن السعادة في الدارين، سعادة الدنيا وما بعد الدنيا.

قد يتصور بعض الناس أن الإسلام لا يهتم بالدنيا وأن الإنسان المؤمن لا يفكر بسعادته في الدنيا، لا ليس كذلك، المؤمن يفكر بسعادته في الدنيا وفي الآخرة.

إن الله بعث الأنبياء للدفاع عن الإنسان في الدنيا وليس فقط في الآخرة، والدين هدفه إنقاذ الإنسان وسعادته في الدنيا والآخرة، ولهذا فإن الأنبياء دخلوا معارك سياسية من أجل الضعفاء والطبقات المحرومة وذلك لتحقيق سعادتهم.

---

(1) الأنعام: ١٢٥.

موسى حينما ذهب إلى فرعون كان لديه مطلبان، الإيمان بالله وهو المطلب الأوّل، والمطلب الثاني المهم هو أن ﴿أَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ أي أطلقهم من الاستعباد، هدف موسى إذن هو تحرير الشعب المستضعف، إذن الأنبياء يفكرون بسعادة الدنيا وسعادة الآخرة.

أنا قبل أن أصل إلى هذا البحث كانت لدي مجموعة أسئلة عرضها عليّ بعض المؤمنين من المحاضرة السابقة وكان عليّ أن أجيب عليها؛ لأنه يهمني أن أشجع الشباب المؤمنين على السؤال.

الإجابة على مجموعة أسئلة:

نحن في بعض المحاضرات السابقة تحدّثنا عن زيارة الأولياء، وزيارة القبور وكيف أنهم يسمعون الكلام ويردون السلام، وطرحنا مجموعة موضوعات في النظرية الدينية، ووردت إليَّ أسئلة على ضوء تلك المحاضرة، وأنا سأجيب على هذه الأسئلة بإيجاز وأشجع على تفاعل الإخوة والأخوات مع البحث الثقافي.

الحج بدون زيارة:

السؤال الأوّل: حول الحديث عن رسول الله ﷺ الذي يقول: «من حجّ ولم يزرني فقد جفاني»،[1] إذا كان ترك زيارة النبي جفاءاً للنبي والجفاء مع النبي محرم إذن الزيارة أصبحت واجبة.

الجواب: نعم ترك زيارة النبي جفاء، لكن الجفاء له مستويان، مرة يكون جفاءاً بمستوى شديد فيكون محرماً، ومرة يكون جفاء بمستوى

---

(1) مستدرك الوسائل ١٠: ١٨١/ ١.

بسيط فيكون مكروهاً مثل ذهابك إلى سفر ولم تحضر هدية لأولادك، أو تذهب إلى كربلاء فتزور الحسين عليه السلام ولا تزور أخاه العبّاس عليه السلام، هذا جفاء، لكنه يكون مرةً كبيراً فيكون محرماً ومرةً يكون مكروهاً، الفقهاء يقولون إن ترك زيارة النبي صلى الله عليه وآله هو جفاء للنبي لكنه جفاء بمستوى الكراهة الشديدة وليس بمستوى الحرمة.

البقاء و الفناء:

السؤال الثاني: نقلتم الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله الذي يقول: «خُلقتم للبقاء لا للفناء»،[1] السائل يقول: كيف نفسر هذا مع قوله تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْها فانٍ * وَيَبْقى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَالْإِكْرامِ﴾.[2]

الجواب: أن الآية القرآنية التي تقول: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْها فانٍ﴾ تتحدّث عن الفناء الدنيوي والحديث الذي يقول: «خلقتم للبقاء» يعني البقاء الأخروي وليس الدنيوي، فهناك فناء دنيوي وهو ثابت في النظرية الدينية في القرآن والسُّنّة ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْها فانٍ﴾، ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾[3] لكن ما بعد الدنيا هناك فناء أو هناك بقاء؟ أيضاً بالبداهة الدينية الدار الآخرة هي دار الخلود ﴿ادْخُلُوها بِسَلامٍ ذلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ﴾[4] إذن بالفعل «خلقتم للبقاء»، أي خلقتم للخلود.

القرآن الكريم في أكثر من خمسين آية يتحدّث عن الخلود

---

(1) البحار ٥٨: ٧٨.
(2) الرحمن: ٢٦ و٢٧.
(3) الزمر: ٣٠.
(4) ق: ٣٤.

﴿أُولَئِكَ أَصْحابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيها خالِدُونَ﴾،[1] **ومرة يقول:** ﴿أُولَئِكَ أَصْحابُ النَّار هُمْ فِيها خالِدُونَ﴾[2] **إذن هذا بقاء، فالحديث الذي يقول: «خلقتم للبقاء لا للفناء» هو منسجم مع قوله تعالى:** ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْها فانٍ﴾ **فهما ليسا متضادين بل بالعكس الآية تتحدّث عن الفناء الدنيوي، والحديث يرمي إلى البقاء الأخروي وهذا شيء يجتمع بعضه مع البعض الآخر.**

زيارة القبور:

السؤال الثالث: ذكرتم أن أرواح الأئمّة تعرج من القبور بعد اليوم الثالث كما في الروايات، إذن الأئمّة والأنبياء والصالحون ليسوا في قبورهم الآن وإنما هم عند ربهم يُرزقون.

السائل يقول: إذا كان الأنبياء والأئمّة عند ربهم يرزقون إذن ما معنى أن نزورهم؟ وإذا لم يكونوا موجودين في القبر إذن لماذا نقول السلام عليك يا رسول الله؟ كيف نفسر زيارة القبور مع نظرية أن الأنبياء والأولياء والشهداء هم عند ربهم يرزقون وليسوا في قبورهم؟ وما هو الدليل؟

الجواب: أن النظرية الدينية تقول: رغم أن روح المؤمن هي عند ربه لكن هناك ربط بين عالم الآخرة وبين عالم القبر، هناك نحو من أنحاء الارتباط لا ندري كيفيته، وحتّى روح المؤمنين فصحيح أنها خرجت من الدنيا لكن هناك ارتباط بين روح المؤمن وبين هذا المجتمع، بين روح المؤمن وبين عائلته وبيته وأولاده، بين أولئك

---

(1) البقرة: ٨٢ .

(2) البقرة: ٣٩.

الأموات وبين عالم الدنيا هناك زيارات واتصال مستمر كما تؤكده الروايات، أي أن الميت ليس مقطوعاً تماماً عن الدنيا، عمله مقطوع صحيح، تأثيره مقطوع _ لنقل أنه بمستوى من المستويات _ صحيح، لكن هناك اتصال وشهود واطلاع وحزن وفرح، الأئمّة يطلعون على سيئاتنا وحسناتنا ويتألمون إذا أسأنا، الأموات هكذا.

السائل يقول: ما هو الدليل القرآني ومن الروايات الشريفة على أن هناك ربط بين الإنسان بعد الموت وبين القبر؟

الجواب: أنا أذكّركم فقط بآية قرآنية واحدة في سورة يس ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذا هُمْ مِنَ الأَجْداثِ إِلى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ * قالُوا يا وَيْلَنا مَنْ بَعَثَنا مِنْ مَرْقَدِنا هذا ما وَعَدَ الرَّحْمنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾،[1] **الآية تتحدّث أن في ساعة القيامة نفخ الصور، يعني قيام الساعة، ملايين البشر بل مليارات النفوس البشرية منذ آدم وهي قد فارقت الحياة وأصبحت رميماً وانتهت منذ آلاف السنين** ﴿فَإِذا هُمْ مِنَ الأَجْداثِ إِلى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ﴾ **وهنا الأجداث تعني القبور وينسلون، أي يخرجون بسرعة، ثمّ يلتفتون إلى قبورهم، أي أن هناك علاقة** ﴿قالُوا يا وَيْلَنا مَنْ بَعَثَنا مِنْ مَرْقَدِنا هذا ما وَعَدَ الرَّحْمنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾ **هذه الآية كافية في الدلالة على أن ثمة ارتباط بين الأرواح وبين القبر، أما أكثر من ذلك فنحن لا نعلم كيفية الارتباط، وهكذا الروايات التي تصل إلى مستوى البداهة الدينية «القبر إما روضة من رياض الجنّة أو حفرة من حفر النيران»،[2] ولما نقول روضة من**

---

(1) يس: ٥١ و٥٢.

(2) من لا يحضره الفقيه ١: ١٧١/ ٤٩٨.

رياض الجنّة يعني لذلك الإنسان الذي يتعايش مع هذه الحالة في القبر. وهذه القضية ليست فقط في الفكر الشيعي وإنما هي في الفكر الإسلامي كله، ولهذا كل المسلمين يزورون رسول الله ﷺ ويقولون: السلام عليك يا رسول الله ويروون رواية فكرتها صحيحة وهي: «سلموا عليَّ بعد مماتي، فإني أسمع السلام».[١]

السعيد من أحبَّ عليّاً:

نعود إلى موضوعنا وهو السعادة والشقاء «سعد من والاكم وهلك من عاداكم» وأنا في بداية الحديث أقرأ لكم رواية للتبرك والتيمن وهي رواية جميلة، أنا في البداية كنت أتصور أن هذه الرواية ربما ينفرد بها علماؤنا الشيعة، ثمّ رأيت بعد ذلك أن هذه الرواية تروى في مصادر سنية معتبرة:

الرواية تقول: في ليلة عرفة، عن رسول الله ﷺ: «إن الله تبارك وتعالى باهى بكم وغفر لكم عامة وعليّ خاصة، وإني رسول الله إليكم غير محابٍ لقرابتي: هذا جبرئيل يخبرني أن السعيد كل السعيد حق السعيد من أحبّ عليّاً في حياته وبعد موته، وأن الشقي كل الشقي حق الشقي من أبغض عليّاً في حياته وبعد وفاته».[٢]

هذه الرواية في سياق «سعد من والاكم وهلك من عاداكم» السعادة المطلوبة حسب النظرية الإسلاميّة هي سعادة الدارين وليست

---

(1) روت مصادر العامة حديثاً عن رسول الله ﷺ قال: «ما من أحد يسلّم عليَّ إلاّ ردّ الله ﷻ إليَّ روحي حتّى أردّ عليه السلام» رواه أحمد في مسنده ٢: ٥٢٧، والبيهقي في سُننه ٥: ٢٤٥، وغيرهم...

(2) الأمالي للصدوق: ٢٤٩/ ٨ .

فقط سعادة دار الدنيا، طبعاً الناس بالفطرة المؤمن والكافر يبحثون عن السعادة وهي نزعة فطرية ألهمها الله تعالى للإنسان، لكن الفرق بين المؤمن والكافر أن المؤمن طالما يعتقد بأن الحياة هي أطول من الدنيا وهناك حياة حقيقية وراء الدنيا، إذن يبحث عن السعادة في هذا المقطع الزمني القصير الذي اسمه الدنيا والتي تعني الدانية أي الصغيرة، أما الآخرة فهي الحياة الأبدية، المؤمن الذي يؤمن بالحياة الأبدية إذن بالوازع الفطري هو سيبحث عن سعادته في الحياة الدنيوية وفي الحياة الأخروية التي يؤمن بها، أما الكافر الذي لا يؤمن بالآخرة فبالطبع أنه لا يبحث عن سعادة الآخرة.

الطريق نحو السعادة:

اليوم لديّ بحث ساخن، لعلّي أكتفي بعنوانه فقط في مقارنة بين الليبرالية وبين الإسلام، الليبرالية والنظرية الغربية المادية وعلماء الغرب اليوم يتساءلون: ما هو الطريق للسعادة؟

الإسلام أيضاً يقول: ما هو الطريق إلى السعادة؟

الليبرالية تقول: الطريق إلى السعادة هو التوافق مع الأهواء ومع المصالح الغريزية. ولهذا توجد عندهم نظرية تقول: حتّى الأعراف الاجتماعية لا يجب التقيد بها. أي افعل ما شئت دون حياء أو وجل، هذه هي خلاصة النظرية الليبرالية التي يصطلحون عليها (التوافق مع الذات)، أي مع الأهواء الذاتية.

أما نظرية الإسلام فهي شيء آخر، نظريته أن الطريق إلى السعادة هو التوافق مع الحق لا إلى الأهواء، النظرية الدينية تقول إن سعادة

الإنسان في الدنيا أو في الآخرة ليست بأن يعطي لنفسه كل ما تشتهي، فهذه ليست هي السعادة بل هي يمكن أن تكون راحة وقتية، كمن نام وقد فاته موعد القطار، فهو في ساعات النوم قد ارتاح لكنه فيما بعد يندم، يمكن أنك تنشغل بالألعاب والاستراحة والنوم وما شاكل ذلك وأنت في ذروة الامتحانات النهائية لكن البقية يقرؤون ويتعبون، وأنت الآن في أُنس لكن عندما يعطونك النتيجة وتكون راسباً فعند ذاك تندم، السعادة ليست أن تعطي نفسك ما تريد بل هل أن تعطي الحق ما يريد، فكل شيء في وقته من التعب والراحة واللذة، هذه نظرية الإسلام، التوافق مع الحق وليس التوافق مع الذات وهنا تأتي طاعة الله وطاعة الرسول وصلة الرحم والصدقة على الفقراء، فهذا يمكن أن لا يكون فيه مكسب مادي لكنه يتوافق مع الحق، حق البشرية ﴿الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾[1] **هذا حق وليس باطلاً، أنت حينما تستحوذ على الأموال** ﴿يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ﴾ **هذه حقوق الضعفاء وحقوق الآخرين فيمكن أنك سعيد بها لكن هذا ليس بحق بل هو باطل،** ﴿يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذابٍ أَلِيمٍ﴾[2] **هذا نتيجته ليست السعادة بل الشقاء، هذا فرق إجمالي سردته لكم في التمييز بين النظرية الليبرالية فيما هي السعادة، والنظرية الإسلاميّة فيما هي السعادة.**

دخول الجنّة بسلام:

أقرأ لكم حديثين للتبرك، حديث عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: «لا

---

(1) التوبة: ٧١.

(2) التوبة: ٣٤.

تغضبوا ولا تغضبوا، أفشوا السلام، وأطيبوا الكلام، وصلوا بالليل والناس نيام، تدخلوا الجنّة بسلام»،[1] هذه القضايا تحسبها بسيطة، وهي بالفعل بسيطة لكنها تعبر عن كمال الإنسان، فالله يريد الإنسان المتكامل صاحب الضمير الإنساني الحي، العاطفة الإنسانية، الروح الطيبة الكريمة.

الله يبغض ثلاثة:

الحديث الثاني عن الإمام الرضا عليه السلام قال: «إن الله تعالى يبغض ثلاثة أشياء، القيل والقال، وإضاعة المال، وكثرة السؤال»،[2] لاحظوا الإسلام دائماً لا يفكر بأن تعطي نفسك هواها وإنما اعط لنفسك ما به شخصيتها والتزامها وكمالها وإنسانيتها وليس ما به غرائزها وأهواؤها الذاتية.

مقارنة بين الإسلام والليبرالية:

الطريق إلى السعادة هو التوافق مع الحق وليس التوافق مع الأهواء، يقول القرآن: ﴿مَنْ عَمِلَ صالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَياةً طَيِّبَةً﴾،[3] لكن في نفس الوقت، الدين يقول: أيها الناس لا تتصوروا أن السعادة تربحونها وتكسبونها بغير بلاء ومشقة، كلا، وإنما «حُفَّت الجنة بالمكاره وحُفّت النار بالشهوات»،[4] هذه العبارة قبل (١٤٠٠) سنة وهي حديث شريف لكن اليوم هو يعطيك الجواب على الامتياز ما بين النظرية

---

(1) الكافي ٢: ٦٤٥.
(2) الكافي ٥: ٣٠١/ ٥.
(3) النحل: ٩٧.
(4) روضة الواعظين: ٤٢١.

الليبرالية والنظرية الإسلاميّة، «حفّت النار بالشهوات»، أي أن هذه النظرية الليبرالية تقول اعط لنفسك ما تشتهي، الإسلام يقول: «حفّت النار بالشهوات» و«حفّت الجنّة بالمكاره»، أي بالبلاء والشدة والتمحيص وهذا في الحقيقة مفهوم فطري، النجاح في الدنيا مثلاً الطالب لا يتفوق في دروسه إلاّ إذا تعب (من طلب العُلا سهر الليالي)، كل إنسان في الحياة لن يكون متفوقاً إذا لم يتعب على نفسه سواءاً في كسب، أو علم أو رياضة أو في كل شيء، الإسلام هكذا يقول: لا يمكن التفوق في عالم الآخرة بدون بلاء وتمحيص ومكاره وبدون محاربة النفس والهوى «حُفّت الجنّة بالمكاره وحُفت النار بالشهوات».[١]

المؤمن والبلاء:

ولهذا الحديث يقول: «إن البلاء أسرع إلى المؤمن التقي من المطر إلى قرار الأرض»،[٢] والبلاء بأشكال كثيرة فهناك من هو مبتلى بالفقر أو الجيران أو الأولاد أو زوجته أو زوجة مبتلية بزوجها، مبتلى بمشاكل سياسية واليوم في العراق شيعة أهل البيت عليهم السلام مبتلون ابتلاءاً عظيماً، ابتلاء بالحرب الطائفية وبالقتل على الهوية، الإسلام يقول: من خلال هذا الابتلاء أنا أربّيكم أيها المؤمنون، الله تعالى يقول: من خلال هذا البلاء أعرج بكم للكمال.

لاحظوا سيكون فرق كبير بين نظرة المتدين ونظرة غير المتدين، فالإنسان اللاديني يقول عندما يصاب ببلاء لماذا أنا مبتلى، لكن الإنسان المتدين يقول: (لا

---

(1) من حديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله، أنظر: بحار الأنوار ٦٧: ٧٨.

(2) الكافي ٢: ٢٥٩/ ح ٢٩.

حول ولا قوة إلا بالله، الحمد لله الذي لا يحمد على مكروه سواه)، ثمّ يعمل لمعالجة البلاء والتخلص منه لكن يتلقاه كهدية من الله تبارك وتعالى، هذا المؤمن سعيد حتّى لو كان مبتلى.

أيّوب عليه السلام كان (٤٠) سنة مريضاً، لكن هل كان سعيداً أو شقياً؟ أيّوب كان أسعد الناس رغم أنه مريض، القضية ليست قضية أسماء وإنما قضية واقعيات.

قصة سعيد بن جبير:

سعيد بن جبير[1] كان اسمه سعيد لكن لنرَ هل أن سعيد بن جبير في المنظور المادي كان سعيداً؟ وفي المنظور الديني أيضاً هل كان سعيداً أو لا؟

سعيد بن جبير كان من الصالحين التابعين يعني طبقة ما بعد الصحابة الذين لم يدركوا رسول الله صلى الله عليه وآله وهو من المفسرين الكبار وكان ملازماً لإمامنا عليّ بن الحسين عليه السلام وهو شخصية معروفة في التاريخ، نتيجة الملاحقات الطائفية كما يحدث مع الشيعة اليوم، ألقى الحجاج بن يوسف الثقفي القبض على سعيد بن جبير، أوّل ما وقع نظر الحجاج على سعيد بن جبير وهو مكتوف أمامه قال له: أنت شقي بن كُسير، قال له: أمي أعرف باسمي واسمي هو سعيد بن جبير قال الحجاج: ما رأيك في أبي بكر وعمر هل هما في الجنّة أم في النار؟ قال سعيد: لو دخلت الجنّة ورأيت من فيها لأخبرتك بمن فيها ولو دخلت النار ورأيت

---

(1) أنظر: ترجمة سعيد بن جبير ومحاورته الحجاج ومن ثمّ مقتله بأمره، في: الاختصاص: ٢٠٥؛ الإمامة والسياسة ٢: ٦١؛ البداية والنهاية ٩: ١١٦.

من فيها لأخبرتك، قال: ما قولك في الخلفاء الراشدين؟ قال: لست عليهم بوكيل، قال: أيهم أحب إليك؟ قال: أحبهم إليّ أرضاهم إلى خالقي، قال: أيهم أرضى لخالقك؟ قال: علم ذلك عند ربي، استشاط الحجاج غضباً وقال: أبيت أن تصدقني، قال: أبيت أن أكذبك، قال: دع عنك هذا اقتلوه، فلما أُخذ ليقتل، قال له الحجاج: أي قتلةٍ تحب أن نقتلك؟ قال له: أنت اختر لي القتلة التي تحب أن تقتل بها لأنها قصاصك، اختر لنفسك فإن القصاص أمامك، فأمر بقتله على القبلة، فكان سعيد بن جبير يقول: ﴿وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّماواتِ وَالأَرْضَ حَنِيفاً وَما أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾،[1] قال: حولوه لغير القبلة، فكان سعيد بن جبير يقرأ: ﴿أَيْنَما تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾،[2] قال: اجعلوه على وجهه، فلما وضعوه على وجهه قال: ﴿مِنْها خَلَقْناكُمْ وَفِيها نُعِيدُكُمْ﴾،[3] ثمّ قتل سعيد بن جبير، هذا سعيد بن جبير رغم هذا البلاء الذي مرّ به لكنه سعيد بمعنى الكلمة، السعادة هي سعادة الدارين، وإذا كانت الدنيا دار بلاء فإن المطلوب أن نربح الدار الآخرة «سعد من والاكم».

الزيارة الشريفة تقول: «سعد من والاكم وهلك من عاداكم»، هذا صحيح على طول التاريخ.

«سعد من والاكم وهلك من عاداكم وخاب من جحدكم وأمن من لجأ إليكم وهُدي من اعتصم بكم».

---

(1) الأنعام: ٧٩.
(2) البقرة: ١١٥.
(3) طه: ٥٥.

نافع بن هلال ليلة العاشر:

هذا نافع بن هلال أحد أصحاب الحسين عليه السلام ليلة العاشر من المحرم الحرام يقول: رأيت الحسين خارجاً من المخيم فخشيت عليه، أخشى أن يكون هناك كمين قد نصب له، يقول: خرجت أقفو أثره.

الحسين التفت إليَّ وقال: «أنافع هذا؟».

قلت: نعم سيدي فداك نافع.

قال: «ما جاء بك يا نافع؟».

قلت له: سيدي رأيتك خارج الخيام وخفت عليك من الأعداء.

التفت إليَّ وقال: «يا نافع إن القوم لا يريدون غيري ألا تسلك بين هذين الجبلين؟».

يقول نافع: وقعت على قدمي الحسين أقبلهما وأقول: سيدي إن فرسي بألف وإن سيفي بألف، لا والله لا تركتك يا أبا عبد الله حتّى يكلاّ عن جري وفري.

هذه ساعة وفي الصباح في يوم عاشوراء الإمام الحسين عليه السلام واقف على جثث الضحايا وهم مجزرون وينادي: «ما لي أناديكم فلا تسمعون وأدعوكم فلا تجيبون».

إنا لله وإنا إليه راجعون

* * *

المحاضرة الخامسة والأربعون:

الاعتصام بحبل الله

«وَهُدِيَ مَن اعْتَصَمَ بِكُمْ»

بسم الله الرحمن الرحيم

الحديث هذا اليوم عن هذا المقطع من الزيارة: «وهدي من اعتصم بكم».

هنا مجموعة أبحاث:

البحث الأوّل: الله وأهل البيت عليهم السلام:

بحث في الاعتصام بالله تعالى وما هو الترابط بين الاعتصام بالله والاعتصام بأهل البيت عليهم السلام وهل نحن بحاجة إلى اعتصام بشخصية بشرية على الأرض أو لا حاجة إلى ذلك؟

البحث الثاني: التجسيد البشري:

هذا البحث ينقلنا إلى بحث ثانٍ وهو: إذا كان لا بدَّ من تجسيد الاعتصام على مستوى النماذج البشرية لقوله: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ﴾،[1] فالسؤال ما هو هذا التجسيد على الأرض؟ ومن هو حبل الله في الأرض؟

هنا تأتي مدرسة الشيعة وتأتي مدرسة أهل السُنّة، الشيعة يقولون: حبل الله على الأرض، هو عبارة عن أهل البيت عليهم السلام، وأهل السُنّة يقولون: حبل الله الذي نعتصم به هم عبارة عن صحابة رسول الله، هؤلاء يقولون أهل البيت، وهؤلاء يقولون أصحاب رسول الله، وكلهم يريدون الاعتصام. هذا بحث خلافي بين مذهب الشيعة وبين مذهب السُنّة.

---

(1) آل عمران: ١٠٣.

البحث الثالث: تقييم الشعب العراقي:

وهـذا البحـث ينقلنـا تـدريجياً إلـى تقييمنـا للـشعب العراقـي وشـيعة أهل البيت في العراق حيث نقف عند مناقشة للدكتور علي الوردي قبل خمسين عاماً فـي كتابـه (وعـاظ الـسلاطين) حيـث طـرح تقييمـه الـسلبي للعـراقيين الـذي يقـول فيـه: إن الشخـصية العراقيـة مزدوجـة تجتمـع فيهـا البـداوة والحـضارة وهـي أشـبه بالشخـصية المنافقـة، وعلَّـل ذلـك بأسـباب ربمـا نوّفـق هـذا اليـوم وبـشكل مـوجز إلـى مناقـشته فـي نظريتـه التـي فيهـا الكثيـر مـن الاسـتدلالات والـشواهد الـصحيحة ولكـن الاسـتنتاج لـيس صحيحاً.

اليـوم أنـت تـرى _ مـثلاً _ آلاف النـاس يـذهبون مـشاةً إلـى زيـارة الإمام الحسين عليه السلام مـن جنوب العـراق إلى كـربلاء. ولـو جاء رجل غريـب أجنبـي ربّمـا قـال إن هـذا شـعب متخلـف، حيـث النـاس غيـر مـستعدين لركـوب الـسيارة ويمـشون علـى الأرض، أو أنهـم شـعب فقيـر لا يملكـون أجـور الـسيارة، لعـل هـذا الرجـل الغريـب لا يعـرف أن هـذا الأمـر لـه سـبب ولـه خلفيـة أخـرى نعـم مظهـر القـضية أن هـؤلاء يمـشون مـشياً علـى الأقـدام إلـى كـربلاء لكـن واقـع القـضية أنهـم يمـشون إلـى كـربلاء لـيس لتخلـف ثقافي أو تخلف اقتصادي.

الـدكتور علـي الـوردي طرح بعـض الـشواهد عـن العـراقيين ثـمّ اسـتنتج نتيجة خاطئة وهي أن الشخصية العراقية مزدوجة وقد نناقشه اليوم.

هـذه مجموعـة أبحـاث ننطلـق إليهـا مـن قولـه فـي الزيـارة: «وهـدي مـن اعتصم بكم».

الاعتصام بحبل الله:

الاعتصام يعني التمسك بالشيء طلباً للأمان وللنجاة، تتمسك بشيء وتعتصم به حتّى تنجو، هذه العملية تسمى عملية اعتصام، ولهذا فإن القرآن الكريم وبنفس هذا المعنى اللغوي وليس بمعنى آخر يقول: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً﴾،(١) يعني تمسكوا بحبل الله، وهكذا في قصة ابن نوح عندما آوى إلى جبل فقال له نوح: ﴿لا عاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾،(٢) يعني أنت لا يوجد لك مخلّص من الغرق، الجبل لا يعصمك، العصمة هنا بمعنى المانع من الخطر، هذا هو معنى الاعتصام بالشيء.

نحن نجد في القرآن الكريم قوله: ﴿اعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ﴾ وهنا في الزيارة الجامعة نطرح مفهوم الاعتصام بأهل البيت، إذن ما هي العلاقة بينهما، القرآن يقول: ﴿حَبْلِ اللَّهِ﴾ نحن نقول: (أهل البيت) هل يوجد فرق بين حبل الله وبين أهل البيت؟ ما هو حبل الله؟ وما هو حبل أهل البيت؟

هناك بحث مطروح في الساحة وهو أن الإنسان هل هو بحاجة إلى عاصم وحبل يتمسك به للوصول إلى الله، أو أننا لا نحتاج إلى ذلك بل أن الوجدان الإنساني والضمير الفطري يكفي في أن يوصلك إلى الله تعالى وأنت غير محتاج إلى واسطة لا إلى أنبياء ولا أئمّة ولا قرآن؟ هذا بحث معاصر وقديم وهو أن الإنسان هل يحتاج إلى من يجسد له على الأرض حبل الله أو لا، بل يكفي الحركة الوجدانية نحو الله تبارك وتعالى، كما يقول المثل: (كل الطرق تؤدي إلى روما)، أنت إذن أصلح

---

(1) آل عمران: ١٠٣.

(2) هود: ٤٣.

قلبك تصل إلى الله تعالى سواء كنت شيعياً أو سنياً أو كنت مسلماً أو مسيحياً أو يهودياً.

هنا اتجاهان أساسيان:

أهل الباطن وأهل الظاهر:

الاتجاه الأوّل: نسميه اتجاه أهل الباطن، وهؤلاء أهل الباطن وهم المتصوفة لديهم نظرية تقول: إننا لسنا بحاجة إلى أن تتجسد القدوة على الأرض لكي نتمسك بها وحدها وتحصر الطريق إلى الله تعالى من خلالها، بل أصلح قلبك تصل إلى الله تبارك وتعالى على أي دين كنتَ وعلى أي مذهب كنتَ، هذا هو الاتجاه الوجداني ويُسمي أتباعه الوجدانيين أو الاطلاقيين، بمعنى أنت في أي اتجاه تمشي تصل إلى الله تعالى، لأن القرآن يقول: ﴿أَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ﴾،[1] أينما تذهب تصل إلى الله، إذن ليس بالضروري أن تكون مسلماً أو مسيحياً أو تصلي أو لا تصلي، لاحظوا مثلاً ابن عربي ماذا يقول وهو من المتصوفة ومن القرن السابع الهجري، وأنا أذكر ما قاله من دون تعليق، حيث لا أريد أن أتعمق في نظريته وبالتأكيد فإن لديه نقاط قوة كثيرة، لديه أبيات شعرية يقول فيها:

لقد كنت قبل اليوم أنكر صاحبي	إذا لم يكن ديني إلى دينه داني
وقد صار قلبي قابلاً كل صورة	فمرعى لغزلان وبيتٍ لأوثان
ودير لرهبان وكعبة طائف	وألواح توراة ومصحف قرآني
أدين بدين الحب أنّا توجهت	حقائبه أرسلتُ ديني وإيماني

(1) البقرة: ١١٥.

المهم إذن هو حب الله تعالى، وأنا يجتمع في قلبي قرآن وتوراة بيت للأصنام وكعبة وصومعة للرهبان، كلهم أقبلهم وكلهم أصدقائي وأنا لا أُفرّق بين واحد وواحد ولا أُفرق بين دين ودين، هذه النظرية نسميها النظرية الوجدانية حيث المهم فيها فقط إصلاح الوجدان، وهذه النظرية رغم أنها قديمة لكن اليوم يوجد إحياء لهذه النظرية، المطروح اليوم في الغرب تعالوا أيها الناس نتفق على دين واحد اسمه الوجدان لا يوجد بعده مسلم ومسيحي ويهودي ومجوسي وشيعي وسني نتفق على دين واحد هو الوجدان، ونعتبر هذا الدين هو ديننا والناس أحرار فيما يعملون ويعتقدون وعلى هذه النظرية قد يُستشهد بالقرآن الكريم حين يقول: ﴿أَيْنَما تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾، و﴿إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾.[1]

القرآن الكريم يقول في سورة المائدة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصارى مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صالِحاً فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.[2]

القرآن يقول: ﴿مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صالِحاً﴾، حيث لا يوجد هنا نبي، لا يوجد حاجة للإيمان بعيسى أو موسى أو محمّد ﷺ هذا بعض الاستدلالات للنظرية الأولى.

ننتقل للنظرية الثانية التي نسميها نظرية التوحيديين، هؤلاء يعتقدون أن الدين لله تعالى، وأن الطريق لله هو عبر الأنبياء فقط. والوجدان وحده غير كافٍ، بل نحتاج إلى نبوة، وحينئذٍ جاءت النبوة، ورسول الله ﷺ هو خاتم الأنبياء ولكن السؤال من هو الذي يجسد حبل الله بعد النبي؟

(1) الشعراء: ٨٩ .

(2) المائدة: ٦٩.

الصحابة أم أهل البيت عليهم السلام؟

هنا أصبحت لدينا مدرستان مدرسة الشيعة ومدرسة السُّنّة.

الشيعة يقولون: أهل البيت، السُّنّة يقولون: الصحابة.

دليلنا على الحاجة إلى الأنبياء أن الوجدان يخطأ ولا يمكن اعتماده فإن للظالم وجداناً وللمظلوم وجداناً وللغني والفقير وجداناً، السارق يقول: إن وجداني يحتمّ عليَّ أن أسرق، لأنني محتاج ولأن الغني لا يتضرر بذلك، فأي وجدان نعتمد؟ وجدان الجبابرة، وجدان السلاطين، هؤلاء أيضاً يقولون إن لديهم وجداناً.

بالأمس كان هناك حديث مطروح بالإذاعات أن العراق لا يمكن أن يوحّده ولا يمكن أن يجمعه ولا أن يستقر فيه الأمن إلاّ عبر الدكتاتورية، يعني إلاّ عبر المقابر الجماعية، وإلاّ عبر قمع الناس بالأسلحة الكيميائية، هذا أيضاً وجدان!، إسرائيل مثلاً حينما قصفت بيروت لتحرير جنديين، استعدت أن تدمر بنى ومؤسسات دولة كاملة، هذا هو وجدان الجبابرة والسلاطين، ويوجد وجدان الأغنياء والمترفين، يراك تموت جوعاً ووجدانه لا يتحرك.

النظرية الوجدانية غير كافية، الوجدان لا يمكن أن يوصلك دائماً إلى صواب، لا بدّ من ترشيد، لا بدّ من نبوة، وهنا جاءت النظرية الثانية وهي نظرية المدرسة النبويّة، هؤلاء نسميهم أهل الظاهر، يعني يعتمدون على الظاهر القرآني الذي يقول: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخاسِرِينَ﴾.(١)

---

(1) آل عمران: ٨٥.

أهل البيت عليهم السلام حبل الله:

وصلنا إلى البحث الثاني وهو أنه بعد رسول الله ما هو حبل الله الذي نتمسك به؟ السنّة يقولون: إن حبل الله هم الصحابة بدليل قول رسول الله صلى الله عليه وآله: «أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم»،[1] يعني أن الذي يجسد الإسلام على الأرض هم صحابة رسول الله وأنتم بأي واحدٍ من الصحابة تقتدون فإنكم تعتصمون بحبل الله. أما الشيعة فيقولون: إن حبل الله هم أهل البيت بدليل قول رسول الله صلى الله عليه وآله: «إني تارك فيكم الثقلين ما إن تمسكتم بهما لن تظلوا بعدي أبداً كتاب الله وعترتي أهل بيتي»،[2] ذلك دليل أهل السنّة وهذا دليل الشيعة.

نحن ماذا نصنع؟

علماء الشيعة جاءوا وناقشوا حديث «أصحابي كالنجوم» هل أن هذا الحديث صحيح من حيث الصدور، أو هو حديث مفتعل على رسول الله؟ ثانياً ما هي دلالته؟

الشيخ الصدوق في كتاب معاني الأخبار تناول هذا الحديث بالدراسة ويبدو أن هذا الحديث وارد في كتبنا أيضاً وليس في كتب أهل السنّة فقط، لكن الشيخ الصدوق ينقل باقي الحديث وهو كالتالي: فقالوا: يا رسول الله صلى الله عليه وآله من هم أصحابك؟ قال: «أصحابي أهل بيتي»، وبهذه الطريقة استطاع الشيخ الصدوق أن يحلّ مشكلة التضاد بين حديث الأصحاب وحديث الثقلين، على أن هناك مجالاً للمناقشة في

(1) كشف الخفاء ١: ١٣٢/ ٣٨١.

(2) بصائر الدرجات: ٤٣٣.

سند هذا الحديث فهو حديث لم يثبت بالتواتر واليقين بخلاف حديث الثقلين الثابت بالتواتر واليقين، ويقول علماء الحديث إنهم متى ما تعارض حديث ظني مع حديث يقيني فإنه يتقدم الثاني على الأوّل.

ومن الناحية العلميّة لا يمكن اعتماد حديث «أصحابي كالنجوم» بصيغته المطلقة حيث لا يمكن أن نعتمد على كل الأصحاب وكان بينهم قتال. ولو كنت أنت الآن في زمن حرب صفين فلمن تتبع؟ تدخل في جيش عليّ أو جيش معاوية؟ إذا كان الحديث يقول: «بأيهم اقتديتم اهتديتم» إذن حرب عليّ شرعية وحرب معاوية شرعية. ولو صرت مع هؤلاء تذهب إلى الجنّة ولو صرت مع هؤلاء تذهب إلى الجنّة أيضاً بينما هم قاتل ومقتول، وهكذا في حرب الجمل أين الحق؟ الحق مع عائشة أو مع عليّ؟ وفق نظرية «أصحابي كالنجوم»، أنت مع من تذهب فأنت على صواب، القاتل والمقتول على حق. وهذا غير ممكن، ولهذا فإن شيعة أهل البيت ناقشوا في رواية «أصحابي كالنجوم» وقالوا إن هذه الرواية إمّا أن تكون مفتعلة ومكذوبة أو أنَّ لها تفسيراً آخر وهو أن المقصود هو أهل البيت وليس المقصود مطلق الصحابة.

بعض نساء النبي صلى الله عليه وآله:

توجد رواية يرويها العلامة المجلسي في البحار[1]:

دخلت امرأة قصيرة على النبي صلى الله عليه وآله وكانت عائشة تنظر لها

---

(1) ج ٦٣: ٦١، والرواية هكذا: جاءت امرأة إلى النبي صلى الله عليه وآله تسأله عن شيء وعائشة عنده، فلما انصرفت وكانت قصيرة، قالت عائشة بيدها تحكي قصرها، فقال لها رسول الله صلى الله عليه وآله: «تخللي»، فقالت: يا رسول الله وهل أكلت شيئاً؟ قال صلى الله عليه وآله: «تخللي»، ففعلت، فألقت مضغة من فيها.
قال المجلسي: كأنه بإعجازه صلى الله عليه وآله حدثت مضغة اللحم بين أسنانها لتعلم أن الغيبة بمنزلة أكل لحوم الناس.

وكانت عائشة بعد ذلك تسخر منها وتهزأ بها وتقلدها بالمشي. فقال لها رسول الله ﷺ: «تخللي» _ أي: خللي أسنانك _ لأن الغيبة هي أكل لحم الميت.

الحقيقة أن أصحاب النبي ونساء النبي هم ليسوا معصومين ولديهم أخطاء فكيف نقتدي بهم جميعاً بدون أن نتحرى ما هو الحق فنتبعه.

رواية في الصحابة:

رسول الله ﷺ يقول في رواية يذكرها البخاري وغير البخاري من علماء أهل السنّة: «كأني يوم القيامة واقف على الحوض وإذا بجمع من أصحابي يأتون فيذادون فأقول: إلهي أصحابي أصحابي فيقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك».(١)

إذن لا يمكن اعتماد جميع الصحابة واعتبار موقفهم جميعاً موقفاً صحيحاً.

شيعة أهل البيت يعتقدون أن القدوة المتجسّدة على الأرض وحبل الله الذي يجب أن نعتصم به هم أهل البيت عليهم السلام وحدهم «فاز من تمسك بكم، وأمن من لجأ إليكم، وسلم من صدّقكم، وهُدي من اعتصم بكم».(٢)

الله لا يُرى بالعين، ولا هناك حبل ممدود من السماء إلى الأرض حتّى نذهب ونبحث عن ذلك الحبل وننظر له بالتلسكوب والمجهر حتّى نرى أين ذلك الحبل، حبل الله هو عبارة عن الأنبياء والأولياء والصالحين

---

(1) أنظر نص الحديث في: صحيح البخاري ٥: ١٩٢؛ صحيح مسلم ١: ١٥٠.

(2) من الزيارة المروية عن الإمام الهادي عليه السلام، أنظر: البلد الأمين: ١٩٧؛ وبحار الأنوار ٩٩: ١٢٧.

«من اعتصم بهم فقد اعتصم بالله»،[١] هذا هو معنى ما نقرأ في الزيارة: «هُدي من اعتصم بكم».

توجد ثلاثة أسئلة سوف نواجهها:

السؤال الأوّل: حينما تقولون أهل البيت هم القدوة التي نعتصم بها، قد يقول قائل هذا رجوع إلى الماضي وأنتم تريدون أن ترجعونا إلى الوراء، إلى ما قبل ألف سنة فلقد مضى على الأئمّة أكثر من ألف عام إذن أنتم رجعيون، فلماذا لا تقدمون لنا قدوة من العلماء ومن الفلاسفة ومن العباقرة الجدد؟

السؤال الثاني: أن أهل البيت لو كانوا حاضرين كان يمكن أن نعتصم بهم، لكن الآن أهل البيت غير حاضرين وهم غائبون، فما معنى «من اعتصم بكم فقد اعتصم بالله» أين أهل البيت حتّى نتمسك بهم؟ أليسوا الآن هم في القبور؟ ونحن نذهب ونزورهم إذن كيف نتمسك بهم؟

السؤال الثالث: إذا أردنا أن نتمسك بأهل البيت، فهناك اجتهادات عديدة. وكل واحد يفهم رؤى ومواقف أهل البيت بشكل معين، نفس الشيعة قد اختلفوا. فهناك إسماعيلية وهناك اثنى عشرية وزيدية وهؤلاء كلهم يقولون إنهم أتباع أهل البيت، إذن أين قوله: «هُدي من اعتصم بكم» هؤلاء كلهم معتصمون بأهل البيت ويوجد أناس يسمّون (عليّ اللاهية) يعني يحبون الإمام عليّ بدرجة العبودية له، إذن هذه مدارس ومذاهب شتى من داخل الجسم الشيعي، إذن كيف تفترضون أن الاعتصام بأهل البيت هو سبب النجاة «من ركبها نجى»[٢]

---

(1) الكافي ٤: ٥٧٩.

(2) كفاية الأثر: ٣٨.

يوجد الكثير من الشيعة لم ينجوا لأنهم على مذاهب غير صحيحة، وليس كلهم على حق، بل فيهم على حق وفيهم على باطل.

هذه ثلاثة أسئلة.

شيعة العراق:

يهمني اليوم أن أتناول تقييماً لشيعة أهل البيت في العراق وأؤجل الإجابة على تلك الأسئلة إلى محاضرة لاحقة إن شاء الله تعالى.

شيعة أهل البيت هم الذين اعتصموا بأهل البيت عليهم السلام، لنشاهد شيعة أهل البيت في العراق هل اهتدوا أم لم يهتدوا، نجوا أم لم ينجوا؟

هنا تأتي نظرية يذكرها الدكتور علي الوردي في كتابه (وعاظ السلاطين) قبل خمسين عاماً. وأنا أُقدّر استدلالاته وبحوثه وهو عالم اجتماع لكنه يطرح عدة نظريات تستحق النقد والمناقشة.

النظرية الأولى: أن الشعب العراقي له شخصية مزدوجة فهو يحب أهل البيت لكنه يقف ضد أهل البيت. الشعب العراقي يريد الإيمان لكنه يقف ضد الإيمان، وهو مظلوم لكنه يقف مع الظلمة، ثمّ يذكر سببين لهذه الشخصيّة المزدوجة.

السبب الأوّل: أن العراق يقع جغرافياً على مشارف البادية، على بوابة الصحراء فاختلطت البداوة والمدنيّة.

والسبب الثاني: أن العراق كان مهبط الحضارات ودائماً يوجد فيه صراع حضاري، وهذا هو الذي أدى إلى نشوء حالة الازدواجية لدى العراقيين.

ثمّ يطرح نظرية ثانية غريبة أيضاً ويا ليته موجود اليوم ليرى خطأ نظريته، يطرح نظرية قبل خمسين عاماً في كتابه (وعاظ السلاطين) ونحن

الآن في عام (٢٠٠٦ م)، في ذلك التاريخ قال: إن الدين في العراق قد انتهى، وإذا انتهى الدين فإن الطائفية التي هي بنت الدين ستنتهي وتنتقل إلى رحمة الله كما انتقل أبوها الدين!!

هذا الحديث قبل واحد وخمسين عاماً يقول فيه الدكتور الوردي: إن الدين في العراق انتهى وهو يستند إلى تحليل ويكون نظرية هي نظرية إن كل موعظة دينية لا تجدي نفعاً لماذا؟ لأن العرف الاجتماعي يسير باتجاه آخر والموعظة والقيم الدينية لا تكاد تقف أمام عجلة التاريخ. وأن الأمّة ذاهبة في وادٍ والدين وأهل الدين في وادٍ آخر، إذن الموعظة والقيم الدينية لا تجدي نفعاً ويجب الاستسلام للقيم العرفية وقطار الشهوة سائر تقوده الشهوة، والدين قد انتهى وأن المواعظ والقيم الدينية حينما تصطدم بالعرف والطبيعة الاجتماعية فسوف تنتهي.

هذه النظريات طرحها علي الوردي قبل واحد وخمسين عاماً وليته اليوم يكون حاضراً ويرى قوة الدين، ليس فقط في العراق، بل ليرى أن التدين تحول إلى ظاهرة عالمية، حتّى العالم الغربي يدخل في مرحلة العودة إلى الله، لأن الدين يملأ فراغاً في النفس البشرية لا يملؤه أي شيء، الحضارة المادية لا تملؤ حاجة الإنسان إلى دين، وحنين فطرة الإنسان إلى دين ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾[1] اليوم حتّى الغربيين يفكرون بالعودة إلى الدين وإلى الله تبارك وتعالى.

أمّا إذا تحدّثنا عن الشعب العراقي الذي أجمع سلاطين الجور ـ وبالخصوص حزب البعث ـ على سحق الدين في العراق، وسحق علاقة

(1) الرعد: ٢٨.

الشعب بأهل البيت في العراق، لكن أنظروا ما هو الواقع؟ هذا الدين يتحرك على الأرض وملايين الناس يذهبون مشاةً لزيارة الإمام الحسين عليه السلام ويقطعون مئات الكيلومترات رغم الإرهاب والتحديات، ورغم الدنيا والفضائيات، ولقد تبين أن الدين قوي.

الاشتراكية التي حكمت العراق خمسة وثلاثين عاماً لم يعد لها ذكرٌ أصلاً، وكانت في الحقيقة خدعة للشعب ولم يُخدع بها. لقد روَّج لها الطغاة لكنها انتهت، أما الدين فلم ينته، التشيع لم ينته، أهل البيت لم ينتهوا ولم ينته الإسلام، في العام الماضي وفي مطلع هذا العام (٢٠٠٦ م) كانت الصحافة الدنماركية قد نشرت صوراً ساخرة كريكاتورية عن رسول الله صلى الله عليه وآله ألهبت العالم الإسلامي كله، ونزل الملايين إلى الشارع يقولون نحن فداء لرسول الله. هذه هي نهاية الدين التي يقول عنها الوردي!!، هذا هو الدين. في الحقيقة الدين يتعمق يوماً بعد يوم وخاصة في العراق، لقد انتصر الدين على أعداء الدين، انتصر الدين على كل محاولات استئصال جذور الدين.

التسامح والازدواجية:

وأما أطروحة أن الشعب العراقي له شخصية مزدوجة، فهذا في الحقيقة سوء فهم وغلط في المفاهيم، يوجد فرق بين التسامح والازدواجية، الازدواجية تعني النفاق والواقع الموجود ليس هو ازدواجية، الواقع الموجود في العراق وغير العراق هو شي نسميه تسامحاً في الالتزامات الدينية، وهذا ليس ازدواجية. القرآن الكريم يشرح هذا المفهوم ويقول: ﴿وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلاً صالِحاً وَآخَرَ سَيِّئاً

عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾،[1] ويقول: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾[2] وهذا ليس معناه النفاق والازدواجية، بل معناه أنه يوجد تسامح لدى هؤلاء الناس في الالتزامات الدينيّة.

المسلمون كلهم يصلون والصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر لكن في الحقيقة ليس كل المسلمين منتهين عن الفحشاء والمنكر، ولا تستطيع أن تقول إن كل المسلمين منافقون ولديهم شخصيّة مزدوجة هذا الواقع ليس خاصاً بالشعب العراقي. هذا حال كل العالم الإسلامي، فيه طاعة وفيه معصية، يوجد فرق بين أن نقول هذا نفاق وازدواجية وبين أن نقول هذا خطأ يحتاج تصحيح. وكل إنسان لديه خطأ ويحتاج إلى تصحيح، هذا ذنب يحتاج إلى استغفار، وكل إنسان لديه ذنب ويحتاج إلى استغفار.

هذا هو الجمال الديني الذي يقول: «لو لا أنكم تذنبون فتتوبون لخلَقَ الله خَلقاً آخر يذنب فيتوب»،[3] الله تعالى يقول أنتم عبادي لديكم طاعة ومعصية. أنا أدري أنكم في معركة حق وباطل، بين جنود الرحمن وجنود الشيطان وأنا فتحت لكم باباً عريضاً هو باب التوبة وفي نفس الوقت ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾[4] وهذا ليس ازدواج شخصية، بل هذا تسامح في الدين. وهو موجود لدى كل المسلمين إلاّ من عصم الله، ولعل هذا موجود في شعوب أخرى أكثر مما هو في الشعب العراقي.

---

(1) التوبة: ١٠٢.

(2) هود: ١١٥.

(3) أنظر كتاب الدعاء للطبراني: ٥٠٨، والحديث هكذا: عن سلمان الفارسي عن النبي ﷺ قال: «لولا أنكم تذنبون لجاء الله بقوم يذنبون فيغفر لهم».

(4) هود: ١١٥.

التسامح في الدين له مراتب أكثر وأقل والله ﴿يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبادِهِ وَيَعْفُوا عَنِ السَّيِّئاتِ﴾،(1) ونحن يجب أن نستقبل كل هؤلاء الناس. ومن غير الممكن أن نشطب على المسلمين، ونقول إن لديهم ازدواجية في الشخصيّة.

الدكتور علي الوردي وقع في خلط فيما هو مفهوم الازدواجية والتي تعني النفاق وذا الوجهين واللسانين. وهذا مرفوض. لكن هناك تسامح في الالتزامات الدينية. وهذه ظاهرة ينظر إليها الإسلام ويقول: ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾.(٢)

هل انتهى الدين؟

وأما نظرية أن الدين قد انتهى فهي مقولة بعيدة عن الواقع، لقد انتهت الشيوعيّة، والعالم الغربي اليوم أصبح ينفتح على الإسلام، في فرنسا الإسلام هو الدين الثاني بعد المسيحية، وفي أمريكا الدين الثاني هو الإسلام، التدين اليوم أقوى منه بالأمس، ليس فقط الإسلام وإنما الدين عموماً سواء أكان الإسلام أو المسيحية.

التدين اليوم في العراق أقوى بكثير مما كان عليه قبل عشر سنوات وعشرين سنة، وأقوى حتّى مما كان عليه قبل خمسين سنة في الخمسينيات، حيث كان موج الشيوعية وموج الإلحاد هنا في العراق، وهنا في النجف بالذات، المرجعية الدينيّة هي التي قادت الحرب ضد الإلحاد بفتوى: (الشيوعية كفر وإلحاد) اليوم هذه المرجعية الدينية تقود المسيرة السياسية، وهذا الشعب العظيم الذي نشاهده في زيارة الإمام

(1) التوبة: ١٠٤.

(2) التوبة: ١٠٢.

الحسين عليه السلام والإمام عليّ عليه السلام كما نشاهده إلى جانب ذلك في الانتخابات، يدلل على تلاحم الدين والسياسة. وأعداء الدين يهددون الزوار بالمفخخات ويهددون المنتخبين بالمفخخات أيضاً.

هذا هو فهمنا للشعب العراقي. ولهذا فقد كان الشعب العراقي وما يزال موضع حب خاص لأهل البيت عليهم السلام والمشكلة الحقيقية هي مشكلة سلاطين الجور، وليست مشكلة الشعب، مشكلة ابن زياد حينما تسلَّط على الكوفة ومشكلة معاوية حينما تسلط على العالم الإسلامي، ومشكلة صدام حينما تسلط على هذا الشعب بحماية قوى دولية، المشكلة هنا، وليست مشكلة أن الشعب لديه ازدواج في الشخصية.

في الحقيقة الشعب العراقي مشكلته أن سلاطين الجور أرادوا أن يسوقوه على خلاف إرادته. وقد بقيَ محافظاً على إرادته حتّى إذا كان مكبلاً وأسيراً، لقد بقى الشعب العراقي محباً لأهل البيت ومؤمناً بهم فيما ابتعدت عنهم شعوب أخرى، ولكن الإرادة العراقية ما سُحقت، والولاء العراقي ما سُحق والتدين العراقي ما سُحق. ونحن نقف موقف إكبار للشعب العراقي، وللشباب العراقي المحروم.

الشعب العراقي نقطة القوة عنده هي امتلاك القدوة، وهي أهل البيت عليهم السلام وتبقى نقطة القوة لدى الشعب العراقي هو تمسكهم بأهل البيت، والذي يوحد العراقيين هم أهل البيت عليهم السلام والذي نصرنا الآن هو تمسكنا بأهل البيت عليهم السلام ونحن على مشارف ذكرى انتفاضة شعبان عام (١٩٩١م) حيث انتفض الشعب العراقي وحرّر أربعة عشر محافظة، ولم تفشل الانتفاضة لكن العامل الدولي أجاز لصدام أن يقصف الأهالي والمدن بصواريخ أرض أرض، هذا هو عامل دولي

وليس ازدواجاً في الشخصية الحقيقة. إن اتهام العراقيين بالازدواجية ظلم للعراقيين، حيث يوجد ظلم عسكري وظلم تاريخي. العراقيون في الوقت الذي يظلمهم الجبابرة يأتي كتّاب ومؤلفون يظلمون العراقيين بهذا الشكل. لقد كانت انتفاضة شعبان قد انطلقت في ذكرى ولادة إمام العصر عليه السلام وهذا يعني أن الدين عند العراقيين وعند شيعة أهل البيت ليس أعزلاً، وإنما هو قادر على تحريك الشعب في اللحظة المناسبة، والعراق على ما يقوله التاريخ الروائي سوف يكون عاصمة الإمام صاحب الزمان عليه السلام العراق هذا الذي اجتمعت عليه السيوف؛ لأنه يوالي أهل البيت. هذا العراق سيكون هو عاصمة صاحب العصر والزمان عليه السلام وسيُبنى هنا في ظهر الكوفة كما تقول الرواية مسجد له ألف باب لأن النجف سوف تصبح موطن العالم كله وسيكون مسكن إمام زماننا إلى جوار مسجد السهلة العظيم. ومن مركز الكوفة إلى النجف هذا سوف يكون مركز العاصمة ومركز التحرك الثقافي العالمي، هذا العراق وهذا التديّن فيه. مبارك لكم أنتم بالخصوص الشباب هنيئاً لكم وأنتم في هذه الظروف الصعبة الشديدة عليكم، لكن الله تعالى من لطفه أشعَّ نور أهل البيت عليهم السلام في قلوب هؤلاء الشباب وسيذكر التاريخ للعراقيين مواقفهم هذه، وتحدياتهم وصبرهم على هذه المواجهات، وستشهدون أمام رسول الله صلى الله عليه وآله أن هكذا صبرنا وتحملنا ﴿رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً﴾.[1]

والحمد لله رب العالمين

* * *

(1) الأحزاب: ٢٣.

المحاضرة السادسة والأربعون:

مرجعية أهل البيت عليهم السلام

«وَهُدِيَ مَنِ اعْتَصَمَ بِكُمْ»

(٢)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحديث هذا اليوم مرة أخرى عن قوله: «هُدي من اعتصم بكم»، الذي يعني أن طريق الهداية هو الاعتصام والتمسك بأهل البيت عليهم السلام وهو الذي نسميه اليوم بالمصطلح الحديث المرجعية الدينية والسياسية.

إن كل أمّة وكل مجموعة وكل حزب لهم شخص يرجعون إليه هذا يسمونه المرجعية الدينية والسياسية، وفي الطب توجد مرجعية طبّية، في الهندسة توجد مرجعية هندسية يعني مصدر القرار، الذي يُسمّى مرجعية، والسؤال عن الأمّة الإسلاميّة من هي مرجعيتها الدينية والسياسية؟ المصدر الذي يأخذون منه القرار الديني والقرار السياسي هذا يسمى مرجعية دينية سياسية.

نحن شيعة أهل البيت نعتقد أن المرجعية الدينية والسياسية للمسلمين بعد رسول الله صلى الله عليه وآله هم أهل البيت عليهم السلام، وفي حال غياب أهل البيت هم نواب أهل البيت، وهذه هي نظرية مرجعية أهل البيت.

هذا بحث نريد أن نقف عنده.

بعد رسول الله صلى الله عليه وآله برزت ثلاث نظريات:

أوّلاً: نظرية مرجعية أهل البيت عليهم السلام:

وهذه هي نظرية الشيعة التي أكدها رسول الله صلى الله عليه وآله في وصيَّته حينما قال: «إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي أهل بيتي».[1]

(1) بصائر الدرجات: ٤٣٣.

قرأت رواية تقول: إن عمر بن الخطاب التفت مرة إلى ابن عبّاس فقال له: من أين جئت يا عبد الله؟ قلت: من المسجد، قال: كيف خلفت ابن عمّك؟ فظننته يعني عبد الله بن جعفر، قلت: خلفته يلعب مع أترابه، قال: لم أعن ذلك، إنما عنيت عظيمكم أهل البيت، قلت: خلّفته يمتح بالغرب (يعني الدلو) على نخيلات من فلان وهو يقرأ القرآن، قال: يا عبد الله هل بقي في نفسه شيء من أمر الخلافة؟ قلت: نعم، قال: أيزعم أن رسول الله ﷺ نص عليه؟ قلت: نعم، وأزيدك، سألت أبي عمّا يدعيه فقال: صدق، فقال عمر: لقد كان من رسول الله ﷺ في أمره ذرو (أي طرف) من قول لا يثبت حجة، ولا يقطع عذراً... ولقد أراد في مرضه أن يصرح باسمه فمنعت من ذلك... إلخ.[1]

هذه روايات مصادر السُّنّة تتحدث عن ساعة الوصية حين قال رسول الله ﷺ: «آتوني بدواة وكتف أكتب لكم كتاباً لن تضلوا بعدي أبداً»،[2] فقال عمر بن الخطاب: إن الرجل ليهجر! حسبنا كتاب الله، فافترق القوم.[3]

نرجع إلى أصل الموضوع، أن شيعة أهل البيت يعتقدون أن المرجعية الدينية والسياسية بعد رسول الله ﷺ هي لعليّ عليه السلام وأولاد عليّ عليهم السلام.

ثانياً: نظرية عدالة الصحابة:

لقد برزت نظرية ثانية. والواقع السياسي هو الذي أفرزها فلم تكن نظرية مطروحة ولكن فرضت على أرض الواقع. ما هي النظرية؟

---

(1) أنظر: شرح نهج البلاغة ١٢: ٢٠.

(2) راجع طبقات ابن سعد ٢: ٢٤٣.

(3) الإرشاد: ١٨٤.

هي نظرية عدالة الصحابة ومرجعية الصحابة، وبدل أن يكون المرجع الديني والسياسي هو عليّ وأهل بيته عليهم السلام، تقول هذه النظرية: إن كل الصحابة وبدون استثناء وهم كل من صحب رسول الله صلى الله عليه وآله فهو مصدر للتشريع. فالمرجعية الدينية والسياسية هي للصحابة، واختلف القائلون بهذه النظرية وهم أهل السُنّة فيما هو تعريف الصحابي، هل هو الذي عاش مع رسول الله مدة طويلة؟ أو الذي عاش مع رسول الله شهراً واحداً؟ أو الذي رأى رسول الله مرة واحدة فهو الصحابي؟ لقد اختلفوا في هذه المسألة.

أصول نظرية التكفير:

نرجع إلى أصل الفكرة وهي (نظرية عدالة الصحابة) التي تطورت حتّى انتهت إلى الفكر التكفيري. يرى علماء أهل السُنّة ومحدّثيهم: أن من انتقصَ واحداً من الصحابة فهو زنديق لا يؤاكل ولا يشارب، ولا يصلى عليه.[1]

هذه هي نظرية التكفير، وهذه أصولها! ويوجد من الصحابة من أساء إلى رسول الله صلى الله عليه وآله، ويوجد صحابة آذوا رسول الله كما يقول القرآن الكريم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾،[2] كان يوجد من يؤذي النبي ويقول القرآن الكريم عنه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنادُونَكَ مِنْ وَراءِ الْحُجُراتِ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ﴾،[3] هم هؤلاء الصحابة ولم يأتوا من الأرجنتين أو البرازيل، وحتّى نكون موضوعيين يوجد أناس بينهم

---

(1) راجع: نظرية عدالة الصحابة لأحمد حسين يعقوب: ٣٨.
(2) الأحزاب: ٥٧.
(3) الحجرات: ٤.

صالحون ومخلصون ويوجد بينهم أناس كما قال القرآن الكريم: ﴿أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ﴾. ولكن النظرية المتشددة التي تمثل الخلفية التكفيرية اليوم وكما يقول ابن حجر العسقلاني والذي يعتبر مصدراً ثقافياً مهماً لأهل السُنّة ينقل عن أحد محدّثيهم قوله: إذا رأيت الرجل ينتقص أحداً من أصحاب رسول الله ﷺ فاعلم أنه زنديق...[١]

لماذا؟

المسألة لم تعد هي الإيمان بعدالة الصحابة، بل فوق العدالة، بل تقديس بمستوى النبوة، لماذا هذا الغلو؟ الشيعة يُتهمون بالغلو. لكن أولئك الذين يقولون إن من انتقص واحداً من الصحابة لا يُصلى عليه أليس هذا غلوّاً في الصحابة؟ المطروح الآن شيء آخر هو تقديس الصحابة وبمستوى غير قابل للنقاش وغير قابل للنقد، على كل حال هذه هي نظرية عدالة الصحابة، وهنالك كتاب جيد أتمنى على الشباب أن يطلعوا عليه، وهو كتاب (أحمد حسين يعقوب) من أهل السنة، كتاب خُصّص لمناقشة هذه النظرية اسمه (نظرية عدالة الصحابة) يناقش هذه النظرية ويفندها وفق الأصول القرآنية. وفي الواقع التاريخي، وكيف أن الصحابة هم أنفسهم ما كانوا مقتنعين بعدالة بعضهم. كانوا يقتلون بعضهم بعضاً، وأن معاوية الذي شرع سب الإمام عليّ عليه السلام سبعين سنة على المنابر هل كان هذا معتقداً بعدالة عليّ عليه السلام لماذا نكون مثاليين أكثر من المثالية نفسها؟ هم كانوا يختلفون بعضهم مع البعض الآخر. عائشة كانت تقول: اقتلوا نعثلاً _ أي عثمان _ فقد كفر، أو قتل الله نعثلاً.[٢]

---

(1) الإصابة ١: ٢٢.

(2) الفتوح لابن أعثم ١: ٦٤؛ شرح نهج البلاغة ٦: ٢١٥؛ الإمامة والسياسة ١: ٧٢، وفيه: فقد فجر.

التاريخ لم يقدّم صورة طيبة عن الخلافات الإسلاميّة، أحداث السقيفة، وحركة الردّة، ومقتل عثمان وقتال النهروان، وصفين، والجمل، هذا ليس تاريخاً نظيفاً حتّى نأتي وننزه كل من كان في ذلك التاريخ ورغم ذلك فهذا ليس موضوع مناقشتي اليوم، إنما هو استعراض لنظرية عدالة الصحابة كما قلت لكم في الأسبوع الماضي أنهم يستندون فيها إلى ما ورد في الحديث عن رسول الله محمّد صلى الله عليه وآله أنه قال: «أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم».[١]

الحمد لله فقد جاء علماء أحد السُّنّة مثل ابن تيمية وقال: هذا حديث ضعيف، ضعيف سنداً قبل أن نناقشه علمياً.

بعض أهل السُّنّة قالوا إن هذا الحديث لا يمكن الاعتماد عليه.

نظرية عدالة الصحابة طُرحت في مقابل نظرية مرجعية أهل البيت، ثمّ تطورت القضية أكثر في الفكر السُّنّي، وتطورت المسألة إلى نظرية (عصمة الأمّة) كل الأمّة الإسلاميّة، أن الأمّة الإسلاميّة معصومة، وأن المرجعية النهائية الشرعية السياسية هي الأمّة، ليس فقط الصحابة، بل على طول التاريخ، الصحابة ذهبوا ثمّ جاء بعدهم التابعون ثمّ تابعو التابعين وإلى يومنا هذا. من هي المرجعية الدينية والسياسية؟ تقول تلك المدرسة، مدرسة عدالة الصحابة وهي مدرسة الخلفاء ونحن نسمّيها المدرسة السلطانية بعد رسول الله صلى الله عليه وآله طرحت نظرية عدالة وعصمة الأمّة الإسلاميّة، إن الأمّة الإسلاميّة لا تنحرف وهم يستندون إلى قوله صلى الله عليه وآله في ما روي عنه: «لا تجتمع أمّتي على خطأ»،[٢] أو في نص آخر: «لا

(1) ميزن الاعتدال ١: ٨٢؛ لسان الميزان ١: ١٣٦.

(2) راجع: مسند أحمد ٦: ٣٩٦؛ مجمع الزوائد ١: ١٧٧.

تجتمع أمّتي على ضلالة»،[1] إذن الأمّة الإسلاميّة معصومة ونحن لا نحتاج إلى إمام معصوم لأن الأمّة الإسلاميّة هي معصومة. والنبي ﷺ يقول: «لا تجتمع أمّتي على ضلالة»، هذه النظرية مهزوزة، ما المقصود بنظرية عصمة الأمّة؟

هل أن كل أفراد الأمّة هم معصومون؟ لا يمكن ذلك لأن هنالك أهل خطأ وأهل انحرافات. إذن لا بدّ للأمّة _ حينما نقول إن الأمّة الإسلاميّة كلها لا تخطأ ولا تكون على ضلال _ لا بدّ لها من عاصم يعصمها من الانزلاق في الانحراف، إذن هنالك سفينة نجاة للأمّة، ولا بدّ أن يكون هناك ضوء، ولا بدّ أن تكون هناك شمعة هداية، لا بدّ أن تكون سفينة نجاة حتّى إذا كانوا أقلية كما قال رسول الله ﷺ: «جماعة أمّتي أهل الحق وإن قلّوا»،[2] وهذه الرواية ثابتة عند السُنّة والشيعة.

على كل حال نظرية عصمة الأمّة لا بدّ أن ترجع إلى وجود الدليل الهادي المعصوم، وإلاّ لا يمكن القول إن الأمّة الإسلاميّة بجميع أحزابها وطوائفها ومذاهبها معصومة، ولا يمكن القول إن هؤلاء كلهم على صواب. على كل حال هذه النظريات قابلة للمناقشة.

نحن ذكرنا في المحاضرة السابقة وجود ثلاث شبهات على نظرية مرجعية الأئمّة من أهل البيت عليهم السلام.

أوّلاً: إن أهل البيت مرجعية دينية وسياسية، لو كانوا حاضرين وهم الآن ليسوا حاضرين، فنريد أن نعرف كيف نرجع إليهم؟ كيف تكون مرجعية دينية وسياسية وهي غائبة؟ هذا هو الإشكال الأوّل.

---

(1) راجع: شرح نهج البلاغة ٨: ١٢٣.

(2) الخصال: ١٥٠، ونحوه في كنز العمال ١: ٣٧٨/ ح ١٦٤٤ عن أمير المؤمنين عليه السلام قال في حديث: «... والجماعة والله مجامعة أهل الحق وإن قلّوا».

ثانياً: أن هذا عودة إلى الماضي ورجوع إلى القرون الماضية وهذه رجعية، نحن كان مرجعنا جعفر بن محمّد الصادق عليه السلام ولكن اليوم فليكن مرجعنا أنشتاين أو نيوتن لأن هؤلاء علماء المدنية الحديثة، أما أن ترجعونا إلى ألف سنة أو ألف وأربعمائة سنة أليس هذا عودة إلى الماضي؟

ثالثاً: الشيعة هم قد اختلفوا، وليسوا معتصمين بأهل البيت عليهم السلام وتوجد لديهم خلافات واتجاهات متعددة، إذن أين الهداية في قوله: «هُدي من اعتصم بكم».

فضل الفقراء:

هذه شبهة ثالثة وأنا اليوم بصدد الإجابة السريعة عن هذه الشبهات، ولكن بودي أوّلاً أن أقرأ لكم رواية جميلة وهذه الرواية لا علاقة لها بالموضوع ولكن لها علاقة بحضوركم، لها علاقة بشعبنا، لها علاقة بالناس الفقراء، لها علاقة بالناس الذين يتحملون شدائد العصر، شدائد هذه المرحلة. والرواية عن رسول الله محمّد صلى الله عليه وآله يرويها الشيخ النراقي في كتاب (جامع السعادات)[1] الرواية تقول: «إن أهل الجنّة كل أشعث _ أشعث يعني رث الملابس وجهه مغبر شعره مترب _ أغبر وذي طمرين _ يعني لا يملك إلاّ قطعتي قماش _ لا يؤبَه به _ أي لا يوجد له وزن في المجتمع فقير لا يُحترم نكرة مستضعف _ الذين إذا استأذنوا على الأمراء لم يؤذن لهم وإذا خطبوا النساء لم يزوجوا _ لأن هذا مسكين لا يملك شيئاً ولا يملك مستقبلاً ولا شهادة ولا بيتاً وإنما

(1) جامع السعادات ٢: ٢٨٣.

يرونه، بائعاً بسيطاً يقولون له اذهب _ وإذا قالوا لم يُنصت لهم، حوائج أحدهم تتخلخل في صدره، لو قُسّم نوره يوم القيامة على الناس لوسعهم»، يعني هذا النور لو قسم على جميع أهل المحشر لوصل نوره إلى جميعهم.

الحقيقة أننا اليوم مستضعفون في العالم وهو أمر ينطبق على مجمل واقعنا.

أنا بالأمس كنتُ أستمع الأخبار التي تحدّثت عن نخوة عالمية لاستحضار حوالي (١٢/٠٠٠) مقاتل من المجتمع الدولي لكي يكونوا حداً فاصلاً بين حزب الله وإسرائيل على الشريط الحدودي الجنوبي وبدأت الجحافل ألفين.. ألفين.. ألفين.. من مختلف دول العالم تتقدم استجابة للطلب الإسرائيلي. أتدرون هذه النخوة العالمية لمن؟ هذه النخوة العالمية لحماية إسرائيل من أي هجوم محتمل لأبناء حزب الله. وأصبح ميناء بيروت يزدحم بالأساطيل التي تنقل القوات الدولية لحماية إسرائيل. ويوم كانت إسرائيل تقصف لبنان قصفاً جوياً وبحرياً كان العالم كله صامتاً، وانتهت الحرب بانتصار حزب الله وصمود لبنان. والآن بدأت الجحافل تتحرك ليكونوا درعاً يحمي إسرائيل.

إن العالم لا يسمع صوتنا كشيعة أهل البيت في العراق، حيث هنا المذابح اليومية التي تجري بالعراق، من الذي يسمع صوتنا؟ هذا الحديث عن رسول الله محمّد ﷺ في وصف المؤمنين يقول: «الذين إذا استأذنوا على الأمراء لا يؤذن لهم، وإذا خطبوا لا يزوّجوا، وإذا قالوا لم يُنصت لهم».[1] هذا الحديث يمكن أن نعتبره قراءة لمجمل واقعنا السياسي في العالم، نصيح ونتحدّث عن مظلومية

(1) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٢: ١٨٣.

الشعب العراقي ولا أحد يُنصت لنا من العالم، والحديث يقول عن رسول الله هؤلاء المظلومون لو قُسّم نورهم على الناس لَوسعهم، هؤلاء المظلومون سواءٌ أكانوا أفراداً أم كانوا أمّةً كاملة. هؤلاء لهم منزلة يوم القيامة. أحببت أن أقرأ هذا الحديث لكم للاستبشار به ثمّ نرجع لموضوعنا العلمي.

قلنا أن هناك ثلاث نظريات:

١ _ عصمة أهل البيت عليهم السلام.

٢ _ عصمة الصحابة.

٣ _ عصمة الأمّة.

وكان لدينا حول عصمة أهل البيت عليهم السلام ثلاث شبهات:

الشبهة الأولى: كيف نعتصم بالإمام الغائب؟

الشبهة الأولى: غياب الأئمّة فكيف نعتصم بهم؟

الجواب على هذه الشبهة أن المقصود بالاعتصام هو الاعتصام العملي بمبادئهم وأخلاقهم ووصاياهم.

قصة زيد النار:

وهنا بودي أن أعرض لكم قصة زيد النار.

توجد شخصية في التاريخ الإسلامي لعلكم سمعتم بها أو قد ذكرته لكم مسبقاً وهو زيد النار، هناك اثنان باسم زيد من أهل البيت الأوّل هو زيد بن عليّ بن الحسين أخو الإمام الباقر عليه السلام هذا الذي قُتِلَ شهيداً في الكوفة وهو رجلٌ من أبطال الإسلام. والأئمّة عليهم السلام يُكبرون شأنه ويعظمون منزلته؛ لأنه ثار طالباً لإعادة الحكم لآل محمّد، ولكن يوجد زيد آخر اسمه زيد النار وهو زيد ابن الإمام موسى بن جعفر عليه السلام

وهو أخو الإمام الرضا عليه السلام يُسمى زيد النار، لقد كان هذا الرجل _ حسب رواية التاريخ _ فاسقاً شارباً للخمر ساقطاً أخلاقياً وقد اشترك في ثورة على الحكم العبّاسي هي الثورة المعروفة باسم ثورة (أبو السرايا) وقد صار فيها زيد والياً على البصرة. وزيد لما صار والياً على البصرة أحرق دور بني العبّاس وأشعل النار فيها ولهذا سمي بزيد النار، ولكنه بعد ذلك أسره الوالي العبّاسي وفشلت ثورة (أبو السرايا) ثمّ أطلق سراحه الخليفة العبّاسي تزلفاً للإمام الرضا عليه السلام ثمّ قتله في عملية اغتيال سرية معروفة.

الرواية تقول: إن الإمام الرضا عليه السلام كان جالساً وسمع زيداً يتباهى بِنَسبِه وحَسبه فقال له:

«يا زيد أغرّك قول ناقلي الكوفة أن فاطمة أحصنت فرجها فحرَّم الله ذريتها على النار!؟ والله ما ذلك إلاّ للحسن والحسين وَوِلد بطنها خاصة».

أنظروا ها هو الإمام يناقش زيداً ويقول له بأنك من ذرية رسول الله وتفعل ما تفعل من المعاصي، ثمّ تدخل الجنّة وتُحَرَّم على النار وأبوك موسى بن جعفر يصوم النهار ويقوم الليل وأنت معه يوم القيامة في نفس المنزلة، هذا ظلم لأنك ستكون حينئذٍ أعزّ على الله من موسى بن جعفر!! اسمعوا الاستدلال «أما أن يكون موسى بن جعفر يطيع الله ويصوم نهاره ويقوم ليله وتعصيه أنت ثمّ تأتي يوم القيامة سواءاً معه، إذن أنت أكرم على الله من موسى بن جعفر عليه السلام لا يكون ذلك أبداً».

ولذلك حينما أمر الخليفة العبّاسي بإطلاق سراحه للتفضّل والتكرّم على الإمام الرضا عليه السلام قائلاً له: أخوك زيد مثل زيد بن عليّ الذي ثار

على الأمويين فقال الإمام: «لا تقس أخي زيداً بزيد بن عليّ ذلك ثار غاضباً لله طالباً للحكم للرضا من آل محمّد».(١)

إذن أين الزبدة من القصة؟ الزبدة هي أن الاعتصام بأهل البيت عليهم السلام عندما تقول: «وهُدي من اعتصم بكم» المقصود بالاعتصام هو الاعتصام العملي والتمسك بحبلهم، أي بمنهجهم ودينهم.

لنعد إلى الشبهة الأولى التي تقول إن أهل البيت الآن غائبون فكيف نتمسك بهم، يعني هل نتمسح بقبورهم؟ أم ننذر لهم النذورات؟ وأنتم تقولون بعد ألف وأربعمائة عام بمرجعية أهل البيت، أين هو الإمام الصادق حتّى نطلب منه الموقف السياسي؟ وأين هو الإمام الحسين حتّى نطلب منه الموقف السياسي؟ وأين هو الإمام الباقر حتّى نطلب منه الموقف الشرعي والسياسي؟

هذه شبهة فما هو الجواب على هذه الشبهة؟

الجواب على هذه الشبهة بسيط وهو أن المقصود بمرجعيتهم الدينية والسياسية هو مرجعية مذهبهم ومرجعية نوّابهم أيام غيبتهم. هذه المدرسة هي مدرستنا الفكرية. ومذهب أهل البيت هو مذهبنا التشريعي سواءٌ أكان الأئمّة حاضرين أم كانوا غائبين. واليوم العالم الإسلامي يتوزع إلى مذاهب يوجد هناك من يتبع الإمام أحمد بن حنبل وهو قد مات قبل حوالي (١٢٠٠) سنة وهؤلاء يسمَون الحنابلة، يعني أن مدرستهم التشريعية الفقهية أخذت من أحمد بن حنبل، وهناك ناس يتبعون الإمام الشافعي أو ما شاكل ذلك، إن المقصود هو اتّباع المدرسة الفكرية والعقائدية لأولئك الأشخاص ونحن حينما نقول بمرجعية

(1) عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢: ٢٢٥.

أهل البيت يعني المرجعية الفكرية والعقائدية لفكرهم ومنهجهم. ولا يوجد فرق بين أن يكونوا موجودين أم غير موجودين، كذلك الأنبياء كانوا موجودين أم غير موجودين ونحن يُسموننا أتباع الأنبياء في حضورهم أو في غيابهم، لأن التمسك والاعتصام بالأنبياء هو التمسك بفكرهم وشريعتهم.

إبراهيم عليه السلام يبحث عن الضيف:

دعوني أذكر لكم قصة إبراهيم خليل الرحمن عليه السلام، إبراهيم كان مضيافاً وكان يقطع مسافة ميل بحثاً عن الضيف. يوماً ما بحث عن ضيف فلم يجد ضيفاً ورجع إلى منزله وإذا برجل جالس عنده في المضيف فقال له: من تكون أنت حتّى تدخل بدون إذني؟

قال له: أنا دخلت بأمر مالك هذا المضيف!! قال: من أنت؟

قال: أنا جبرئيل، أرسلني الله تعالى إليك لأكون ضيفك لأنك لم تجد ضيفاً وأنا هنا ضيفك والله تعالى تكريماً لك أرسلني ضيفاً عندك.

قال: يا جبرئيل لماذا؟ هذه المحبة من الله تعالى؟

قال: لأنك لم تسأل أحداً أبداً، ولا رددتَ سائلاً أبداً.

أنت من خصوصياتك أنك ما سألت غير الله، وكل اعتمادك على الله، وليس على البشر. أنت يا إبراهيم كنت نقياً خالصاً لا تسأل غير الله.

هذه الفكرة في الحقيقة هي أخلاق وثقافة سواءٌ أكان إبراهيم عليه السلام موجوداً أم غير موجود، هذه المدرسة وهذه التعاليم الإبراهيميّة يسميها الإسلام الحنيفية الكبرى بمعنى مدرسة النقاء ومدرسة الطهر ومدرسة النظافة. وإبراهيم اليوم غير موجود بيننا وقد مضى على وفاة إبراهيم أكثر من ثلاثة آلاف سنة، ولكن هذه ثقافة إبراهيم، هذه الثقافة

الحنيفيـة، هـذه الثقافـة الاجتماعيـة وهـذه الأخـلاق غيـر مرتبطـة بوجـود الـشخص. نحـن حينمـا نتبـع الأنبيـاء إنمـا نتبـع تعـاليمهم سـواء كـانوا موجـودين أم غيـر موجـودين، هـذه مدرسـتهم، هـذه ثقـافتهم هـذه أخلاقهـم هذه حضارتهم.

لقـد كـان رسـول الله صلى الله عليه وآله مـثلاً يجلـس جلـسة العبـد، ويأكـل مـع العبيـد. وهـذه ثقافـة اجتماعيـة وسياسية رائعة يعنـي أيهـا الحـاكم أيهـا الملـك أيهـا الأميـر إن هـذا رسـول الله أشـرف الخلـق لكـن يجلـس ويأكـل مـع العبيـد وأنـت لا تتكبـر إذا أصـبحت موظفـاً أو أميـراً أو شـيخاً أو وزيـراً هـذا هـو معنـى إتبـاع الأنبيـاء يعنـي إتبـاع مدرسـة الأنبيـاء حتّـى لـو كـانوا غـائبين عنّـا، حتّى إذا كان الأئمّة غائبين عنا.

أميـر المـؤمنين حـين يقـول: «أأقنـع مـن نفـسي بـأن يقـال هـذا أميـر المـؤمنين ثـمّ لا أشـارك النـاس فـي جـشوبة العـيش، ولعـل فـي الحجـاز أو اليمامـة مـن لا طمـع لـه بـالقرص ولا عهـد لـه بالـشبع»،[1] يعنـي لعـل أحـداً فـي أقـصى العـالم الإسـلامي أو أدنـاه هـو جـائع لـيس لديـه أمـل برغيـف الخبـز وأنا يقال لي أمير المؤمنين، أنا لا أفرح بهذا اللقب.

هـذه هـي أخـلاق «هُـدي مـن اعتـصم بكـم»، يعنـي التمـسك بـالأخلاق في المجال السياسي وفي المجال الاجتماعي وفي مجال الأسرة.

معالم الفكر الشيعي:

مدرسـة الـشيعة محافظـة علـى أصـالتها ولهـا مجموعـة مبـادئ ومعـالم

---

(1) نهج البلاغة ٣: ٧٢.

ولعلّي في يوم من الأيام أقرأ لكم وأشرح لكم بشكل مبسط ما هي مبادئ مدرستنا ونحن إلى الآن نتميز بهذه المبادئ.

من جملتها _ لاحظوا _ الفرق بين مدرسة الشيعة والمدرسة التكفيرية وقد قرأت لكم حديث ابن حجر الذي يقول: (من انتقص واحداً من الصحابة فهو زنديق لا تصلوا عليه)، لكن أنظر إلى مدرسة شيعة أهل البيت التي تقول إن النصراني إذا كان فقيراً في البلاد الإسلاميّة فيجب أن نطعمه من بيت المال!!

توجد معالم لمدرسة شيعة أهل البيت في الجانب السياسي، كما هو في المجال العقائدي.

شيعة أهل البيت متميزون في فهمهم للمعتقدات الإسلاميّة الكبرى، المدرسة الأخرى تقول كما في الرواية التي ترويها صحاح السنة: «إن الله ينزل كل ليلة جمعة على حمار»،[1] نحن نعتقد أن هذه خرافة، هذه ليست ثقافة أهل البيت، عقائدياً لنا معالم خاصة، وسياسياً لنا معالم خاصة وأخلاقياً مدرسة أهل البيت لها أخلاقية خاصة.

وقد تسأل أين أجد الإمام الصادق حتّى أذهب وأسأله عن الموقف السياسي، في الفيدرالية مثلاً هل يريد الفيدرالية أم لا؟ يريد الانتخابات أم لا؟ يريد الدستور أم لا؟ أين هو الإمام الصادق حتّى نسأله هذا السؤال؟

الجواب: أن المرجعية الدينية والسياسية في حال غيبتهم تكون لنوابهم ومثل ما كان للأنبياء أوصياء كذلك الأئمّة لديهم نواب.

---

(1) الإيضاح: ١٧.

الرواية تقول عن إمام العصر عليه السلام: «فإنهم حجتي عليكم وأنا حجة الله والراد عليهم كالراد علينا وهو على حد الشرك بالله»،[1] هؤلاء هم نواب الأئمّة ونحن نأخذ الموقف السياسي من هؤلاء.

الشبهة الثانية: الثقافة الرجعية:

وهي تقول أنتم من دعاة الرجعية تريدون ربطنا بثقافة ما قبل ألف وأربعمائة سنة، والدنيا قد تغيرت والزمان قد تغير والظروف تغيّرت، هذه عودة إلى الماضي وأنتم متمسكون بالماضي، لماذا لا تكونون من أصحاب الحاضر وأهل الزمن المتقدم المعاصر؟ أو ليست هذه رجعية عندما تربطوننا برجال القرون الماضية؟ ومهما كان لهم منزلة في زمانهم لكننا اليوم بحاجة إلى نماذج وقيادات أخرى، لندفع الناس إلى الارتباط والاعتصام بالدول الكبرى والشخصيات العالمية المعاصرة، أهل البيت لا يمثلون دولة ولا يمثلون الأمم المتحدة ولا يمثلون دول عدم الانحياز.

هذه الشبهة كان لها سوق في بداية القرن العشرين يوم زحفت المدنية على العالم الإسلامي، وكثير من الناس انبهر بالغرب وإبداع الغرب والإشعاع الغربي أمّا اليوم فالحقيقة إن العالم صار يعرف: أن الإسلام والأمّة الإسلاميّة لهم إمكانات ولهم حضارة ولهم أطروحة واستطاع الإسلام اليوم بنفس المبادئ أن يؤسس دولة كبرى وعلى رأسها علماء دين وأن يكون لديه حضور سياسي في المحافل الداخلية والخارجية، ولديه برلمان وانتخابات، ولديه إذاعات ولديه تلفزة ولديه فضائيات، ومحاولات تصنيع الطاقة النووية.

---

(1) كمال الدين: ٤٨٤.

اليوم لا يتصور أحد أن أبناء الإسلام يركبون على الحمير والبغال، هذا التصور كان موجوداً قبل مائة سنة أمّا الآن فقد اتضح أن الإسلام وأهل الإسلام وخصوصاً شيعة أهل البيت قادرون على اتخاذ الموقف السياسي البارع، والموقف العسكري البارع المناسب والمضي قدماً في مجال التصنيع والتمدّن ومواكبة الحداثة.

الإسلام لا يقول لك لا تركب سيارة أو طيارة ولا هذه هي المدنية الحديثة. والشيء المرفوض هو الأبعاد الأخلاقية والجانب الفلسفي في المدنية الحديثة.

كنت أقرأ قبل أيام خبراً يقول إن هناك امرأة أمريكية لها عشرون عاماً لم تقص أظافرها حتّى بلغ طول الاظفر أكثر من متر، سواءٌ أكان هذا العمل صحيحاً أم خطأ فهو أمر ذوقي وليس له علاقة بالمدنية الحديثة، واليوم توجد مسابقات في العالم في أطول شارب في العالم، ولكن هذا ليس له علاقة بالمدنية الحديثة، أو هنالك مسابقة أخرى في أقبح وجه في العالم وكان الفائز بريطانياً ولله الحمد، نحن نفهم المدنية الحديثة فيما هي البعد العلمي مثل التطور التقني، والمدنية بهذا المعنى ضرورة لا بدّ منها ونحن لا نريد أن نعيش بالآليات السابقة، لا بدّ من التجديد، ولكن المدنية الحديثة شيء والمدنية الأخلاقية شيء آخر.

اليوم حينما ندعو للرجوع لأهل البيت عليهم السلام فهو مثل الرجوع للقرآن ولكن ذلك لا يعني الرجوع إلى عهد البادية. والقرآن لا يعني ثقافة البداوة، صحيح أنه نزل في عهد البادية ولكن هذا لا يعني أن حضارة القرآن هي حضارة بادية وحضارة صحراء بل هي حضارة

إنسانية تأخذ رؤاها ومعالمها من الله سبحانه وتعالى، فالرجوع إلى أهل البيت ليس رجعية ولا يتضاد مع المدنية الحديثة، المدنية الحديثة العلمية مقبولة ولكن المدنية الحديثة في بعدها الأخلاقي هي مسألة ذوقية، نحن في الحقيقة نفهم أن العلم مقبول والمدنية العلمية مقبولة والتقدم العلمي مقبول، أما السلوك الأخلاقي فكل شعب له سلوكه وكل شعب له أخلاقه ونحن كمسلمين لدينا أخلاقيتنا وثقافتنا الخاصة ولا يعني الارتباط بأهل البيت العودة إلى عصر البادية وإلى عصر الجِمال والحمير.. لا ليس كذلك، لا بدّ من أن نميّز بين ما هي المدنية الحديثة العلمية وبين ما هي القضايا الأخلاقية والفلسفية.

الشبهة الثالثة: اختلاف الشيعة:

الشبهة الثالثة: وهي إذا كان أهل البيت هم عنصر الأمان والنجاة والسلامة فلماذا شيعة أهل البيت مختلفون؟ لماذا هناك عدة اتجاهات وعدة مدارس سواءاً فقهياً أو سياسياً؟ فأين الهداية حين تقولون: «هُدي من اعتصم بكم».

الجواب: أن الإسلام يقول إن أهل البيت مثل القرآن يمثلون حافتي الصراط المستقيم فهذه جادة لها سياجان الأوّل هو القرآن والثاني هو أهل البيت والذي يمشي في وسط الجادة فهو في أمان، وأن هذه الجادة توصلك إلى الهدف وهذه الجادة هي جادة صحيحة ولكن هناك فرق بين سلامة الجادة وبين كيفية السير فأنت قد تسير في جادة سليمة وذات اتجاه صحيح لكن تخالف قوانين السير وأصول السير فتقع وتسقط، وهذا أمر آخر لا علاقة له بسلامة الجادة وصحتها.

نحن نقول إن جادة القرآن صحيحة وجادة أهل البيت صحيحة «هُدي من اعتصم بكم»، الذي يمشي على جادتكم مشياً صحيحاً فإنه لا يضيع في الصحراء ولكن قد يمشي بأسلوب على خلاف القانون وبمخالفة شروط السير الصحيح فحينئذٍ سوف يضيع وقد يهلك وتصيبه المشكلات. وهذا ليس له علاقة بسلامة الجادة، لاحظوا حينما نقول: «هُدي من اعتصم بكم»، فهذا لا يعني أن شيعة أهل البيت لا تصيبهم الخلافات ولا المشاكل سواءاً خلافات فكرية أم فقهية أو خلافات سياسية أو شخصية ولكنهم هم على جادة صحيحة ولكن داخل هذه الجادة قد يختلفون فيما بينهم.

والحمد لله رب العالمين

* * *

المحاضرة السابعة والأربعون:

الطريق إلى الجنّة

«مَنِ اتَّبَعَكُمْ فَالْجَنَّةُ مَأْوَاهُ وَمَنْ خَالَفَكُمْ فَالنَّارُ مَثْوَاهُ»

بسم الله الرحمن الرحيم

اليوم حديثنا في هذا المقطع من زيارة الجامعة: «من اتبعكم فالجنّة مأواه ومن خالفكم فالنار مثواه».

هذان طريقان: طريق يؤدي إلى الجنّة وهو اتّباعهم، وطريق يؤدي إلى النار وهو مخالفتهم.

إتّباع أهل البيت عليهم السلام:

أوّلاً: إن هذا الأمر هو إجماعي في الفكر الإسلامي، يعني أن جميع المسلمين من السنّة والشيعة يعتقدون أن أهل البيت هم الطريق إلى النجاة، فحبّهم واجب وهم أهل الحق كما تواتر في الحديث الصحيح: «عليّ مع الحق والحق مع عليّ»،[1] هذه لا يختلف فيه أحد من المسلمين، لكن بطبيعة الحال فإن أهل السنّة سيقولون نحن نمثل طريق أهل البيت ولستم أنتم الشيعة، فهم يعتقدون أن مذهب أهل البيت هو مذهب أبي بكر وعمر وعثمان ومعاوية وأن أهل البيت قبلوا بهؤلاء وبالحكم الأموي وبالمدارس الإسلاميّة الموجودة يومئذٍ، وأن أهل البيت كانوا علماء صالحين كسائر العلماء الصالحين ونحن نحبهم ومذهبهم هو مذهبنا.

لاحظوا أن أهل السُنّة لا يرون أن أهل البيت لهم مذهب خاص

---

(1) الخصال: ٤٩٦.

واتجاه خاص ومدرسة خاصة رغم اعتقادهم أن اتباع أهل البيت هو سبيل النجاة، فكل المسلمين يعتقدون به ويعتقدون بالحديث الشريف المعروف بحديث السفينة: «مثل أهل بيتي فيكم مثل سفينة نوح، من ركبها نجا، ومن تخلف عنها غرق وهوى»،[1] هذا الحديث لسنا فقط نحن من يرويه، وإنما يرويه صحاح أهل السنة أيضاً، إذن المسألة أوّلاً إجماعية «من اتبعكم فالجنّة مأواه»، كما أن: «عليّ قسيم الجنّة والنار»،[2] هي أيضاً مسألة إجماعية لا يناقش فيها أهل السُنّة وأئمّتهم يقولون: نعم عليّ هو قسيم الجنّة والنار.

حكم القرآن في المسألة:

ثانياً: القرآن الكريم ماذا يقول؟

الزيارة تقول: «من اتّبعكم فالجنّة مأواه ومن خالفكم فالنار مثواه»، أي توزيع الجنّة والنار على طائفتين هما من اتبعكم ومن خالفكم.

القرآن الكريم يقول في آيتين متتاليتين من سورة البقرة: ﴿بَلى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولئِكَ أَصْحابُ النّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ * وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ أُولئِكَ أَصْحابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيها خالِدُونَ﴾،[3] **فأهل الجنّة هم الذين آمنوا وعملوا الصالحات، وأهل النار أولئك الذين كسبوا سيئةً، أي أصحاب المعاصي** ﴿وَأَحاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ﴾**، يعني أغلق كل النوافذ وسدَّ كل الطرق إلى الله تعالى واستحوذ على قلبه الشيطان ف** ﴿فَأُولئِكَ أَصْحابُ النّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ﴾.

(1) إعلام الورى ١: ٣٤، ورواه الحاكم في المستدرك ٢: ٣٤٣.
(2) أمالي الصدوق: ١٥٠/ ح ١/١٤٦؛ كنز العمال ١٣: ١٥٢/ ٣٦٤٧٥.
(3) البقرة: ١٨١ و١٨٢.

حينما نأتي للتفاسير نجدها تقول: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ «هم أنت وشيعتك يا عليّ»،[١] كما جاء في الحديث الصحيح عن رسول الله ﷺ، وإن العمل الصالح هو ولاية عليّ عليه السلام، وهذا أيضاً أمر ثابت بطرق الفريقين من السُنّة والشيعة.

الحديث عن الإمام الحسن العسكري عليه السلام يقول: «ولاية عليّ حسنة لا تضر معها سيئة، ومخالفة عليّ سيئة لا ينفع معها شيء»،[٢] كيف ذلك؟ لأن إذا كان «عليّ مع الحق والحق مع عليّ» فمخالفته تعني مخالفة الحق.

الحديث القدسي يقول: «ولاية عليّ حصني، فمن دخل حصني أمن من عذابي».[٣]

وهذان حديثان كلٌ منهما حديث قدسي الأوّل يقول: «كلمة لا إله إلاّ الله حصني، فمن قالها دخل حصني، ومن دخل حصني أمن من عذابي»[٤] والحديث الثاني يقول: «ولاية عليّ حصني، فمن دخل حصني أمن من عذابي»، هذان الحديثان في الحقيقة بينهما تطابق فكلمة التوحيد هي كلمة الولاية، فولاية عليّ هي ولاية رسول الله ﷺ وولاية رسول الله هي ولاية الله تبارك وتعالى، هذا حديث طالما تناولناه في محاضرات سابقة.

اليوم أيضاً حديثنا على سبيل الإيجاز عن فلسفة الإتّباع، لاحظوا الزيارة لم تقل: (من أحبَّكم فالجنّة مأواه) بل قالت: «من اتّبعكم فالجنّة مأواه» إذن هناك قضيتان: إحداهما الحب والأخرى الإتّباع.

---

(1) البقرة: ٨١ و٨٢ .
(2) البحار ٨ : ٣٠١/ ٥٥.
(3) أمالي الصدوق: ٣٠٦/ ٣٥٠.
(4) الجوار السنية: ١٤٧.

القرآن ماذا يريد؟

أهل البيت ماذا يريدون؟ إبراهيم عليه السلام **قال:** ﴿فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾،[١] **لاحظوا التركيز على نظرية الإتّباع.**

القرآن الكريم أيضاً يقول: ﴿إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾،[٢] **فمجرد أن تحبوا الله فهذا غير كافٍ.**

معنى الإتّباع:

نقف عند الإتّباع ومعنى الإتّباع، ثمّ عن تحليل علمي للإجابة على سؤال لماذا من يَتّبعهم فالجنّة مأواه؟ ما معنى هذا؟

الإتّباع لغةً: يعني أن تمشي خلف شيء وتتبعه، ولهذا في قصة موسى والخضر، قال موسى عليه السلام: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ﴾.[٣]

مراتب الإتّباع:

لكن هذا المفهوم اللغوي سوف يتوسع إلى كل متابعة سواءاً كانت متابعة في الخطى المادية، أو متابعة قلبية، أو متابعة فكرية، أو متابعة سياسية، كل متابعة فإنها يصدق عليها إتّباع، وسوف نجد أن لدينا عدة مستويات من المتابعة.

المتابعة القلبيّة:

مرةً تكون متابعة قلبية، الزيارة هكذا تقول: «وقلبي لقلبكم سلمٌ» لكن هذه أدنى المراحل.

---

(1) إبراهيم: ٣٦.

(2) آل عمران: ٣١.

(3) الكهف: ٦٦.

المتابعة الفكرية:

هناك مرحلة أعلى منها وهي المتابعة الفكرية: وهي أن تؤمن بجميع الرؤى الفكرية التي جاءت عن الأنبياء وعن أهل بيت النبوّة، فقد جاء في الزيارة: «ورأيي لكم تَبع»، هذه نسميها المتابعة الثقافية «قلبي لكم سلم رأيي لكم تبع».

المتابعة العملية:

لكن هناك مرحلة ثالثة أعلى وهي مرحلة الإتّباع العملي، الزيارة تقول: «محقق لما حققتم، مبطلٌ لما أبطلتم».

المتابعة السياسية:

إذن أصبح لدينا متابعة قلبية، ومتابعة ثقافية ومتابعة عملية حتّى نصل إلى المتابعة السياسيّة وهي قوله: «ونصرتي لكم مُعدة»، وهذه مرحلة أعلى ليس فقط في السلم وإنما في الحرب أيضاً، هذه مستويات المتابعة.

الفكرة التي يقولها الإسلام في القرآن ويقولها أهل البيت في الحديث الشريف: أن النجاة ليس من خلال مستوى الموالاة القلبية فقط، وإنما بحاجة إلى موالاة عملية «محقق لما حققتم، مبطل لما أبطلتم»، لا بدّ من متابعة عملية.

الحديث عن الإمام الباقر عليه السلام حيث يسأله الراوي فيقول: جُعلت فداك إن الشيعة عندنا كثيرون.

قال عليه السلام: «هل يعطف الغني على الفقير؟ وهل يتجاوز المحسن عن المسيء؟».

قلت: لا.

قال: «ليس هؤلاء بشيعة، الشيعة من يفعل هكذا».[1]

(1) الكافي ٢: ١٧٣/ ١١.

الـشيعي الحقيقـي هـو ذاك الـذي يتبـع أخـلاق أهـل البيـت وسـلوك أهـل البيـت، صـار عنـدنا شـيعي حقيقـي وشـيعي مجـازي، الـشيعي الحقيقـي هـو صـاحب الميـدان العملـي، الـشيعي المجـازي هـو الـذي يكتفـي بالمحبـة القلبيـة أو علـى مـستوى الادعـاء فقـط ويقـول نحـن مـن شـيعتكم، أمّـا علـى مستوى الواقع فهو لا يحقق ما حققوه ولا يبطل ما أبطلوه.

أقرأ لكم رواية للتبرك في فضل هؤلاء الشيعة.

فضل الإتّباع:

الرواية عن رسول الله ﷺ: «يا عليّ هذا حبيبي جبرئيل يخبرني عن الله ﷻ أنه قد أعطى محبيك وشيعتك سبع خصال: الرفق عند الموت، الأنس عند الوحشة، النور عند الظلمة، الأمن عند الفزع، القسط عند الميزان، الجواز على الصراط، ودخول الجنّة قبل سائر الناس بثمانين عاماً».[1]

فلسفة النجاة بالإتّباع:

هـذه المفـاهيم كلهـا أعتقـد أننـا سـبق وأن تناولناهـا معكـم والـشيء الجديـد الـذي نتناولـه اليـوم في هـذا الـسياق هـو: لمـاذا وكيـف أن مـن اتَّـبعهم فالجنّة مأواه؟

هنـــا يوجـــد تفـــسيران علميـــان، ومـــن المفيـــد أن الـــشباب المثقـــف يسمعون هذه التفاسير:

التفسير الأوّل: فلسفة النتيجة الجزائية.

التفسير الثاني: فلسفة النتيجة التكوينية.

---

(1) أمالي الصدوق: ٤١٦/ ٥٤٨.

فلسفة النتيجة الجزائية:

تعني أن الله تبارك وتعالى بفضل من عنده ومن كرمه يقول: من يسلك هذا الطريق فأنا بالمقابل سوف أعطيه الجنّة، هذا كجزاء لذاك، الجنّة هي جزاء المحسنين والصالحين وهم الذين يتبعون أهل البيت، مثلاً يقول الأب لابنه إذا نجحت في الامتحان فسآخذك لزيارة الإمام الرضا عليه السلام، أي أن هذا جزاؤك، الامتحان هو في مادة كيمياء وفيزياء وجغرافية وتاريخ، وليس له علاقة بزيارة الإمام الرضا عليه السلام لكن الأب من عنده كجزاء في مقابل ذاك وبدون أن يكون هناك أي ترابط تكويني بين الفعل وبين الجزاء.

هذا التفسير يقول: إن الله تعالى يقول إن تتّبعهم فأنا أعطيك القصور والجنّات والحور العين وما شاكل، الجنّة شيء آخر وليست هي محبة أهل البيت وإتّباعهم، فالجنّة شيء والإتّباع شيء آخر، لكن الله تعالى يقول من يتّبع هذا الطريق أعطيه هذه النتيجة، هذا نسميه فلسفة النتيجة الجزائية.

فلسفة النتيجة التكوينية:

ولكن هناك تفسير آخر يذكره العلماء وهو تفسير أعمق نسميه فلسفة النتيجة التكوينية، وهذا مفهوم جديد في هذا المضمون، الفكرة كما يقول بعض المفسرين: إن الجنّة خُلقت من اتّباع عليّ وولايته ونوره، وهذا طبعاً وفق روايات تؤيد هذا المعنى، أن الجنّة بأنهارها وحورها وقصورها هي عبارة عن أنهار من ماء ولبن وعسل، لكن كل الجنّة خلقت من ولاء عليّ الذي هو ولاء النبوة والذي يعني ولاية الله

تبارك وتعالى، فحين نتحدّث عن عليّ فهذا يعني النبوة والتي تعني الارتباط بالله، الجنّة خُلقت من ولاية الله، وولاية الله هي ولاية رسول الله. والتي هي ولاية عليّ، هذه الولاية بشكلها الآخر هي الجنّة، أي أن الجنّة هي نفس الولاية والمحبة والنار هي نفس العداوة لعليّ.

التفسير الفلسفي الذي سميناه نظرية النتيجة التكوينية يقول: إن الجنّة مخلوقة من حب عليّ والنار مخلوقة من عداء عليّ، الجنّة هي عبارة عن حصيلة القيم الأخلاقية التوحيدية، أي أن الأنهار والحور العين هي عبارة عن الصدق والوفاء والكرم والشجاعة والروح الإنسانية والتواضع والحنان والرأفة وصلة الرحم، حينئذٍ فإن هذه القيم الأخلاقية هي خلاصة أهل البيت عليهم السلام فهم تجسم للقيم الأخلاقية، فالتفسير حينما يقول إن الجنّة خُلقت من حب عليّ، يعني أنها خُلقت من القيم الأخلاقية، وخُلقت النار من قيم الشر وهي الحسد والبغض والعداوة والحقد والكراهية والعدوان والظلم، فالنار خُلقت من هذه المفردات، حينئذٍ التفسير يقول: الجنّة خُلقت من ولاء أهل البيت، والنار خُلقت من عداء أهل البيت عليهم السلام.

إذن بقانون: أن كل شيء يرجع إلى أصله، هذا الذي عنده ولاية يرجع إلى أصله وأصل الولاية هو الجنّة، أي أن ترجمة الولاية يوم القيامة هي الجنّة، في الحقيقة أن الجنّة هي ليست شيئاً آخر غير الولاية، فالجنّة هي عبارة عن صورة من صور الولاية وانعكاس من انعكاسات الولاية، وإذا كان عندك ضغن وحسد وحقد وبغض وكراهية للحق فهذا في الحقيقة عبارة عن نار تشتعل في قلبك الآن، ولكنك لا تشعر بها وبعد

الموت تنكشف عند الإنسان أن هذه نار وهذا هو معنى قوله: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾،[1] أي أن العداوة والحسد والبغض بعد الموت ترجع إلى أصلها وهي النار، فالتفسير يقول: «من اتّبعكم فالجنّة مأواه»، هي نتيجة تكوينية في الحقيقة وهي ليست عبارة عن جزاء كالتفسير السابق، الولاية هي عبارة عن الجنّة والعداوة هي عبارة عن النار، وهذا الأمر ينكشف بعد الموت، هذه نظرية فلسفية تسمى نظرية النتيجة التكوينية «من اتّبعكم فالجنّة مأواه ومن خالفكم فالنار مثواه».

هذا الأمر لعل القرآن الكريم وبالتعمق في باطنه يكشف لنا هذا المعنى أيضاً، إبراهيم قال: ﴿فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي﴾،[2] حتّى لو لم يكن من عشيرتي ولا من ذريتي لكنه إن تبع منهجي فهو منّي، أي هو جزء مني، يعني أنا وهو روح واحدة وكيان واحد، إذن كان هناك توحد تكويني بين النبوة وبين إتّباع النبوة ﴿فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي﴾، لاحظوا هذه وحدة تكوينية فهو لم يقل: (من تبعني فإنه معي) وإنما قال: ﴿فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي﴾، أي هو جزء مني كما في قول رسول الله ﷺ: «حسين مني وأنا من حسين»،[3] وليس هو شيء آخر وهكذا «شيعتنا منّا» وليس (معنا) والتي هي أيضاً صحيحة لكن الحديث يعطينا معنىً أعمق: «شيعتنا منّا خلقوا من فاضل طينتنا»،[4] هذا تلاحم تكويني ويؤيد نظرية النتيجة التكوينية، التي تقول: إن ما لدينا من ولاية ومحبة وارتباط بهم عليهم السلام،

---

(1) التوبة: ٤٩.

(2) إبراهيم: ٣٦.

(3) شرح الأخبار ٣: ١١٢/ ١٠٥٠.

(4) بحار الأنوار ٥٣: ٣٠٣.

يعني أننا جزء من كتلتهم وكيانهم ونورهم، ونورهم هو الجنّة في الحقيقة ﴿وَأَشْرَقَتِ الأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾،[1] هناك روايات تفسّر ذلك ولو على مستوى الترجمة التطبيقية، أنه يعني وأشرقت الأرض بنور الإمام صاحب العصر والزمان عليه السلام ونور أهل البيت عليهم السلام، طبعاً الآية تقول: ﴿بِنُورِ رَبِّهَا﴾، لكن نور ربها هو نور أهل البيت عليهم السلام؛ لأنهم نور الله.

إذن هناك تفسيران لقوله: «من اتَّبعكم فالجنّة مأواه ومن خالفكم فالنار مثواه» ومهما يكن الحال فإن هذا انسياق طبيعي لا يتخلف، أن شيعة أهل البيت هم في الدنيا يسيرون سيراً تكوينياً نحو الجنّة وأعداء أهل البيت يسيرون سيراً تكوينياً نحو النار وإن كانوا جميعاً لا يرون ذلك، لكن لو كُشف عن أبصارنا لرأينا ذلك مثل أصحاب الحسين عليه السلام لما كُشف عن أبصارهم رأوا أنهم ليسوا في كربلاء وإنما في الجنّة، وهكذا في قصة الإمام الهادي عليه السلام حين وضعه الحاكم العبّاسي في خان الصعاليك فقد قال لصاحبه: «أنظر ما ترى؟» وإذا هو يرى الجنّة وحورها وقصورها فقال عليه السلام: «نحن لسنا في خان الصعاليك»،[2] يعني هذا مُعدٌّ لنا ويعيش معنا في الحقيقة، لاحظوا أن «من اتّبعكم» يسير سيراً تكوينياً إلى الجنّة «فالجنّة مأواه» وإن «من خالفكم فالنار مثواه»، أيضاً سيراً تكوينياً لا يتخلف عنه، لأن كل شيء يرجع إلى أصله، هذا هو الحديث حول فلسفة: «من اتّبعكم فالجنّة مأواه ومن خالفكم فالنار مثواه».

---

(1) الزمر: ٦٩.
(2) بصائر الدرجات: ٤٢٦.

الموقف الدفاعي للإمام الحسين عليه السلام:

الإمام الحسين عليه السلام في طريقه إلى كربلاء حينما التقى بالحر الرياحي قال له أحد أصحابه: يا أبا عبد الله لنبدأهم بقتال فهؤلاء أهون علينا ممن يأتي بعدهم.

قال الحسين عليه السلام: «إني أكره أن أبدأ بالقتال»، أي إذا هم اعتدوا فأنا سأدافع لكن لا أبدأ أنا بالقتال.

يوم عاشوراء أيضاً العبّاس عليه السلام حينما جاء للحسين عليه السلام وقال: يا أبا عبد الله قد ضاق صدري من هؤلاء الأعداء وسئمت الحياة.

الإمام الحسين عليه السلام قال: «أطلب لهؤلاء الصبية قليلاً من الماء»، الأثر يقول: إن العبّاس وصل المشرعة وملأ القربة، وهنا يأتي دور العداء والتوحش ضد أهل البيت وضد الأطفال وضد البشر، كمن له لعين وراء نخلةٍ ضربه على يمينه فقطعها فأخذ السيف بشماله وهو يقول:

والله إن قطعتموا يميني ... إني أحامي أبداً عن ديني

إنا لله وإنا إليه راجعون

* * *

المحاضرة الثامنة والأربعون:

بحث في

قانون الجزاء الإلهي

«مَنِ اتَّبَعَكُمْ فَالْجَنَّةُ مَأْوَاهُ وَمَنْ خَالَفَكُمْ فَالنَّارُ مَثْوَاهُ».

(٢)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحديث اليوم عن هذا المقطع من الزيارة الجامعة الكبيرة: «من اتّبعكم فالجنّة مأواه، ومن خالفكم فالنار مثواه».

هذه الجملة تعطي نظرية أن الجنّة للمؤمنين الموالين لأهل بيت النبوّة، والنار للمعادين لهم، وهذه النظرية مفروغ منها في ثقافتنا الدينية وهي تفتح لنا باباً للحديث النظري والعلمي عن مسألة القبول والجزاء، يعني قبول الأعمال وجزاء الأعمال ما هو قانونه؟

قانون الجزاء القبول:

ما هو القانون في أن الله يقبل هذا العمل ولا يقبل هذا العمل؟

الفكر الديني لدى أهل البيت يقول: إن الأعمال مقبولة بشرط الولاية وهي بدون ولاية غير مقبولة، هذا الأمر ما هي فلسفته؟ وهكذا نظرية جزاء الأعمال، حيث أن ثقافتنا الدينية تقول إن الكافرين جزاؤهم النار والمؤمنين جزاؤهم الجنّة، ما هي فلسفة ذلك؟ لماذا الكافر يذهب إلى النار والمؤمن يذهب إلى الجنّة؟

وهنا ستثار مجموعة شبهات أو أسئلة.

مجموعة أسئلة:

هل من المعقول أن يذهب أكثرية البشر إلى جهنم؟ العالم اليوم أكثر من ستة مليارات إنسان، العالم على طول الزمان يبلغ مليارات الناس

وربع هؤلاء الناس مسلم، البقية منهم ليس مسلماً، إذا جئنا للمسلمين فإن ملياراً وربع مليار مسلماً، وثلاثة أرباعهم من غير شيعة أهل البيت وربعهم من شيعة أهل البيت، فإذا قبلنا نظرية إن قبول الأعمال بالولاية كان معناه أن أكثر المسلمين وعلى طول التاريخ أعمالهم غير مقبولة.

وهنا يطرح السؤال التالي: كيف ينسجم ذلك مع العدل الإلهي، ومع اللطف الإلهي، ومع الحكمة الإلهية؟

وسوف تثار أسئلة أخرى في هذا المجال، ربما نجيب عليها أثناء الحديث، إن ما نريد أن نقف عنده هو البحث عن هذا المقطع من النص: «من اعتصم بكم فالجنّة مأواه».

وهنا نسجل مجموعة أمور:

العقل ماذا يقول؟

الأمر الأوّل: نحن نعتقد أن أدواتنا في المعرفة هي العقل أوّلاً، والنصوص الدينية ثانياً.

الأمر الثاني: ما يأتينا من نصوص القرآن والسُنّة قد تكشف عوالم لا يصلها العقل.

وحينئذٍ تعالوا ننظر ماذا يقول العقل في قانون الأعمال وجزاء الأعمال؟ ثمّ ماذا تقول النصوص الدينية في شرح قانون قبول الأعمال وجزاء الأعمال؟

ثلاثة قوانين في الفعل الإلهي:

العقل ماذا يقول؟ والنصوص ماذا تقول؟

نحن نعتقد وفقاً للعقل ووفقاً للنصوص الدينية أن الفعل الإلهي يعتمد على ثلاثة قوانين:

القــانون الأوّل: العــدل ﴿وَلا يَظْلِــمُ رَبُّــكَ أَحَــداً﴾،(1) **فجميــع الأفعــال الإلهية تسير على مبدأ العدالة ولا تخرج عنها.**

القـانون الثـاني: الحكمـة فـإن الله تعـالى لا يعمـل عمـلاً بـدون حكمـة ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.(2)

القـانون الثالـث: قـانون اللطـف، ﴿اللَّـهُ لَطِيـفٌ بِعِبـادِهِ﴾،(3) **الـذي يعنـي التسامح والعطف والكرم والعطاء.**

الله تبــارك وتعــالى يــستند علــى ثلاثــة عناصــر فــي عملــه: العدالــة، والحكمة، واللطف.

حينئـذٍ يأتي السؤال التالي: إن العدل واللطف الإلهي كيف يسمح بأن يدخل أكثر الناس في النار؟ أين العدالة؟ وأين الحكمة؟ وأين اللطف؟

هـذه أسئلة مطروحـة أنـا أثيرهـا حتّـى تكـون معتقـداتنا معتقـدات قائمـة على أُسس علمية، نحن عندما نعتقد بشيء لدينا أدلة علمية عليه.

فكر أهل البيت ماذا يقول؟

هذا ما أريد اليوم أن أشير إليه وباختصار.

ماذا يقول الفكر الديني؟

العقـل يقـول: لا بـدّ مـن اعتمـاد العدالـة و الرحمـة فـي الحـساب يـوم القيامـة، الله لا بـدّ أن يعتمـد العدالـة واللطـف بالعبـاد، ثـمّ نـأتي للنـصوص الدينية لنرى ماذا تقول؟ يعني الفكر الديني ماذا يقول؟

---

(1) الكهف: ٤٩.

(2) إبراهيم: ٤.

(3) الشورى: ١٩.

الفكر الديني يقول:

أوّلاً: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾،[١] وهذا يعني أن الله تعالى لا يقبل غير الإسلام، هذا نسميه قانون الاختصاص، اختصاص قبول الأعمال بالمسلمين.

ثانياً: لا يُقبل عمل إلاّ بالولاية، هنا يأتي الحر العاملي في كتاب (وسائل الشيعة) والعلامة الكليني في كتابه (الكافي) حيث يذكرون مجموعة روايات صحيحة تؤكد أن شرط القبول ليس مجرد التوحيد ولا الإيمان بالنبوة وإنما الإيمان بإمامة أهل البيت عليهم السلام.

ثالثاً: كما تؤكد الأحاديث الصحيحة أن التوحيد أمان من النار، يعني أن كل موحّد وكل من قال: (لا إله إلاّ الله) كما تقول رواياتنا هو محرّم على النار، هذا ثابت في ثقافتنا الدينية وهنا تأتي الرواية المعروفة: «كلمة لا إله إلاّ الله حصني فمن دخل حصني أمن من عذابي».[٢]

رابعاً: قانون إن لكل عمل جزاء، كل عمل لا بدّ له من جزاء ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ﴾،[٣] سواء أكان يهودياً أو نصرانياً أو كافراً أو مسلماً، إن كلمة ﴿مَنْ﴾ في قوله: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ﴾ للإنسان العاقل وهذا معناه أن الكافر إذا عمل حسنة لا بدّ أن يرى النتيجة (لكل عمل جزاء) وهكذا أيضاً: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾،[٤] حتّى إذا كان من أهل الإسلام والإيمان وأهل

---

(1) آل عمران: ٨٥.

(2) الجواهر السنية: ١٥٢.

(3) الزلزال: ٧.

(4) الزلزال: ٨.

صلاة الليل، لكن ﴿مَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾، لا بدّ أن يراه، القرآن الكريم يقول: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِما كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾.[١]

النصوص الدينية تقول: «حب عليّ حسنة لا يضر معها سيئة»[٢] وتقول: «ولاية عليّ حصني فمن دخل حصني أمن من عذابي»،[٣] هذه كيف نفسرها؟

العلامة الشهيد مطهري 1 له كتاب جيد هو (العدل الإلهي) وهو يبحث هذا الموضوع في عشرات الصفحات ويقدم استدلالات من الآيات والروايات، وأنا اليوم لا أستطيع طبعاً إلاّ أن أحيلكم على الكتب التي تبحث هذا الموضوع، وأعطيكم إشارات بسيطة في هذا الأمر، مثلاً في هذا الزمان عندنا (محمّد عليّ كلاي) وهو إنسان في ذلك العالم الغربي لكن دخل الإسلام، وفرح المسلمون باسم محمّد عليّ كلاي كثيراً، الآن نسأل محمّد عليّ كلاي هل هو شيعي؟ لا، ليس شيعياً، وهو لا يعرف الفرق بين الشيعة و السنّة، الإسلام لديه هو أشهد أن لا إله إلاّ الله وأن محمّداً رسول الله، هذا المقدار الذي وصله من الإسلام (٢٠%) أو (٣٠%) فهل نقول إن محمّد عليّ كلاي كل أعماله غير مقبولة؟ ويأتي إنسان آخر ليس لديه التزام بمبادئ أهل البيت ونقول هذا شيعي تشفع له الزهراء عليها السلام، وأمّا محمّد عليّ كلاي فإنه يدخل جهنم رغم أنه دخل السجون وحورب حرباً عنصرية ضده لأنه أعلن إسلامه، لقد كان بالإمكان أن يصير يهودياً أو نصرانياً، لكنه تعرض إلى حرب حقيقية من أجل الإسلام، كيف نقيّم المسألة؟

هذه مجموعة أسئلة.

---

(1) المدثر: ٣٨.

(2) المناقب لابن شهر آشوب ٣: ٢.

(3) الجواهر السنية: ٢٦٧.

خلاصة النظرية الإسلاميّة في الجزاء:

قلت لكم يمكن أن نلخص النظرية الإسلاميّة بما يلي: النظرية الإسلاميّة تقول إن أساس النجاة وأساس قبول الأعمال وجزاء الأعمال يوم القيامة هو شيء واحد هو القلب السليم ﴿يَوْمَ لا يَنْفَعُ مالٌ وَلا بَنُونَ * إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾،[1] **ليست القضية قضية أسماء وعناوين، كم وفّر لك الإيمان قلباً سليماً تدخل به الجنّة، والإيمان إذا لم يوفر لك قلباً سليماً لا يمكن أن تدخل به الجنّة، دليلنا على ذلك قوله تعالى:** ﴿يَوْمَ لا يَنْفَعُ مالٌ وَلا بَنُونَ * إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ **وقوله في إبراهيم الخليل** عليه السلام: ﴿إِذْ جاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾،[2] **إن إبراهيم** عليه السلام **وفد على الله تعالى يوم القيامة بشيء واحد ليس هو ظاهر الإسلام ولا الإيمان ولا الصلاة ولا العمل الصالح، بل هو ما يترشح عن هذه الأمور وتستبطنه وهو القلب السليم، كل هذه هي فروع الشجرة وأصل الشجرة هو القلب السليم** ﴿إِذْ جاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾، **الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والصلاة والصوم والزكاة وبر الوالدين والخدمات للبشرية كلها جيدة إذا كانت تعبر عن قلب سليم تدخل به الجنّة.**

جادتان للقلب السليم:

نذهب للقرآن ونسأله نقول أيها القرآن أيها الوحي ما هو الطريق حتّى يصير قلبنا قلباً سليماً؟ هنا القرآن يقول: إن القلب السليم له جادتان، الأولى: جادة الإيمان، الثانية: جادة العمل الصالح، هذه الجادة توصل

---

(1) الشعراء: ٨٩ .

(2) الصافات: ٨٤ .

إلى القلب السليم وتلك الجادة أيضاً توصل إلى القلب السليم، هاتان جادتان لتحقيق القلب السليم، الإيمان والعمل الصالح.

لدينا رواية عن الإمام الباقر عليه السلام أنقل نص الرواية: أن مؤمناً هاجر إلى دار الكفرة هرباً من حكام ظلمة عتاة _ مثل صدام وأمثاله _ وهناك في بلاد الكفر آواه شخص كافر ورفق به فمات ذلك الكافر، الله تعالى قال له: يا عبدي لو كان لك في الجنّة مسكن لأسكنتك فيها لكن أنا متخذ قراراً أن الكافر لا يدخل الجنّة لكن أنت في نفس الوقت محسن أحسنت لهذا المؤمن فلك جزاء عندي يوم القيامة، الله يخاطب النار: يا نار اتركيه ولا تؤذيه وكان يأمر له برزقه في طرفي النهار يعطوه أكله في الصبح والليل بما أرفق بذلك المؤمن، الله عادل ﴿لا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً﴾.[1]

إذن صار عندنا الإيمان والعمل الصالح والواجب أن نتقدم في كلا الخطين خط الإيمان وخط العمل الصالح.

وحينئذٍ سوف تنحل المشكلة لديكم إذا قيل لكم أكثر الناس يدخلون جهنم، نحن نقول: لا، لأن هؤلاء الناس لا يوجد لديهم جحود وإنما لديهم جهل، والرؤية الدينية تؤكد أن الجهل لا حساب عليه، إنما الحساب على الجحود وهو الرفض والإنكار بعد المعرفة وقيام الدليل والحجة.

تفسير حبّ عليّ حسنة:

وأما حديث: «حب عليّ حسنة لا يضر معها سيئة»،[2] فهذا حديث

(1) الكهف: ٣٠.

(2) البحار ٣٩: ٢٤٨/ ١٠.

صحيح وكذلك: «ولاية عليّ حصني فمن دخل حصني أمِن من عذابي»،[1] هذا حديث صحيح والفكرة مقبولة لكن علماءنا يقفون عند هذا الحديث فكيف نفسره؟

كيف نقول: «حب عليّ حسنة لا تضر معها سيئة» وهو يرتكب المعاصي والجرائم؟

كيف نفهم: «حب عليّ حسنة لا يضر معها سيئة»؟

هنا يوجد جوابان: الأوّل يذكره الشيخ الوحيد البهبهاني وهو إن «حب عليّ حسنة» بشروطها مثل الصلاة التي ﴿تَنْهى عَنِ الْفَحْشاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾[2] حب عليّ أيضاً ذلك الحب الذي يجرك إلى المحبوب.

المقصود هو الحب الصادق، الحب الحقيقي، وليس الحب القشري.

أختم حديثي برواية للإمام السجاد عليه السلام ونحن نعيش ذكرى ولادته عليه السلام هكذا يقول عليه السلام: «ما من خطوة أحب إلى الله عز وجل من خطوتين: خطوة يسد بها المؤمن صفاً في سبيل الله، وخطوة إلى ذي رحم قاطع، وما من جرعة أحب إلى الله من جرعتين: جرعة غيظ ردّها مؤمن بحلم، وجرعة مصيبة ردّها مؤمن بصبر، وما من قطرة أحب إلى الله عز وجل من قطرتين: قطرة دم في سبيل الله، وقطرة دمعة في سواد الليل لا يريد بها عبد إلاّ الله عز وجل».[3]

والحمد لله رب العالمين

* * *

---

(1) الجواهر السنية: ٢٦٧.

(2) العنكبوت: ٤٥.

(3) الخصال: ٥٠/ ٦٠.

المحاضرة التاسعة والأربعون:

الوسطيّة والاعتدال الإسلامي

في نظرية أهل البيت عليهم السلام

«وَمَنْ جَحَدَكُمْ كَافِرٌ وَمَنْ حَارَبَكُمْ مُشْرِكٌ وَمَنْ رَدَّ عَلَيْكُمْ فِي أَسْفَلِ دَرْكٍ مِنَ الْجَحِيمِ».

بسم الله الرحمن الرحيم

الاعتدال الإسلامي:

حديثنا اليوم عن (الأمّة الوسط) وعن (الاعتدال الإسلامي) وبالمقابل المذاهب التكفيرية، وذلك انطلاقاً من هذا المقطع من الزيارة: «ومن جحدكم كافر، ومن حاربكم مشرك، ومن ردَّ عليكم فهو في أسفل دركٍ من الجحيم».

نحن الآن نقرأ هذا النص ونقول: «من جحدكم كافر» هذا الأمر يربطنا بالحديث عن التكفير.

حدود التكفير في الإسلام:

ما هي حدود التكفير في الإسلام؟

ما هي نظرية أهل البيت في هذا الموضوع بالخصوص؟

كيف نتعامل مع الآخرين من أبناء الأفكار والمذاهب الأخرى؟

نحن الآن نقول: «من جحدكم كافر، ومن حاربكم مشرك، ومن ردَّ عليكم فهو في أسفل دركٍ من الجحيم»، فهل نعتقد أن الذين لا يؤمنون بأهل البيت هم كفار؟ وهل نقبل ظاهرة تكفير الآخرين؟ نحن الآن نعترض ونسجل على المذاهب التكفيرية أنهم يكفّرون المسلمين، الوهابية تكفّر المسلمين، إذا ذهبت إلى المدينة المنورة ووقفت عند قبر رسول الله ﷺ وأردت أن تقبّل الضريح يُقال لك: لا تُشرك يا مشرك لا تفعل، اتهام بالكفر والشرك، نحن

نعترض على هذه المذاهب التكفيرية، إذن ما هي رؤية أهل البيت عليهم السلام؟ وما هو تفسير قوله: «ومن جحدكم كافر»؟ هذا هو موضوع بحثنا اليوم.

الكفر والجحود والحرب:

لاحظوا هنا في هذا المقطع من الزيارة يوجد مصطلح (الجحود) وهو يعني الإنكار مع العلم، ومصطلح (الحرب) في قوله: «ومن حاربكم مشرك»، ومصطلح (الرد) في قوله: «من ردَّ عليكم» هذه هي العناوين التي ذُكرت في الزيارة.

لقد قال النص: «من جحدكم كافر»، وليس من لم يعرفكم ومن لم يؤمن بكم، فلعلّ هناك ناساً مستضعفين فكرياً لم يثبت لديهم ولاية أهل البيت، وهذا نسميه عدم المعرفة، وهو غير الجحود، فالجحود يعني لغوياً الإنكار مع العلم، يعني يعلم ويُنكر.

أما قوله: «من حاربكم» فهو من يدخل في حرب معهم، رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: «يا عليّ سلمك سلمي، وحربك حربي».[1]

وأمّا قوله: «ومن ردَّ عليكم فهو في أسفل دَرَكٍ من الجحيم» فالمقصود هو من يرد عليهم، أي يخالفهم الرأي والاعتقاد.

يجب أن نعرف أن كل مسلم من أهل السنّة هو يحب أهل البيت ولا يقبل بالرد عليهم عمداً، لا نتصور إن أهل السنّة يردون على أهل البيت، بل هم لم تثبت لديهم ولاية أهل البيت، خاصة الكثير من الطبقات الشعبية منهم ربما هناك مجموعة ممن يقفون على رأس الهرم أولئك لديهم جحود وإنكار المعرفة.

كذلك لدينا مفهوم البُغض كما جاء في حديث الرسول صلى الله عليه وآله: «يا

---

(1) بحار الأنوار ٤٠: ١٩٠، عن الطرائف لابن طاووس: ١٨.

عليّ من أحبَّك فقد أحبني، ومن أبغضك فقد أبغضني»،[1] اليوم المسلمون لا يبغضون أهل البيت، فلا نتصور أن أحداً من المسلمين في العالم العربي وغير العربي يبغض الإمام الحسين عليه السلام، نعم هم لا يرون ما نراه نحن في إمامة الإمام الحسين عليه السلام لكن هذا شيء آخر غير البغض، أنت إذا ذهبت الآن إلى الشعب المصري مثلاً أو الجزائر وتونس والمغرب تجد حب أهل البيت مكتوباً في جدران مساجدهم ولديهم درجة كبيرة من الولاء، لكن ليس بالمستوى الذي أمر به رسول الله صلى الله عليه وآله، فولاؤهم على مستوى المحبة أما ولاؤنا فهو ولاء قلبي وسياسي وتشريعي، ولاؤنا هو الولاء العملي والفكري والعاطفي الذي أراده رسول الله صلى الله عليه وآله.

معاني الكفر:

على كل حال الكفر في استعمال القرآن الكريم جاء بعدة معاني:

المعنى الأوّل: الكفر العقائدي، يعني أن الإنسان لا يؤمن بالله ولا برسوله ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ﴾،[2] الكفر في مقابل الإيمان.

المعنى الثاني: الكفر الأخلاقي، والذي يعني أن هذا الإنسان حتّى لو كان مؤمناً بالله تعالى، لكن أخلاقياً لا يستحي من الله تبارك وتعالى ولا يشكره ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْراً﴾،[3] ربما هو مؤمن بالله لكن ليس شكوراً لنعم الله تعالى.

(1) أمالي الصدوق: ٦٥٦؛ أمالي الطوسي: ٣٠٩.
(2) البقرة: ٢٥٣.
(3) إبراهيم: ٢٨.

المعنى الثالث: الكفر الباطني، حيث أن أكثر الناس يوسوس لهم الشيطان، ولديهم حب لغير الله، هذا مستوى من مستويات الشرك، القرآن الكريم هنا يقول: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّـهِ إِلاَّ وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾،[1] هذه ظاهرة تمتد إلى كثير من المسلمين، فالإنسان في هذا المعنى في ظاهره مسلم، لكن في باطنه يوجد لديه درجة من درجات الكفر.

الإسلام كيف يتعامل مع هذه المستويات؟

الكفر بالله بالمعنى الأوّل والثاني والثالث، كيف يتعامل معها أهل البيت؟

أمّا الكفر العقائدي فهو بدون شك المصداق الأوضح للخروج عن دائرة الإسلام وحدوده.

أما المستوى الثالث ففي رؤية أهل البيت عليهم السلام فهو لا يستوجب الخروج عن الإسلام بل هو خروج عن العمق الجوهري للإسلام مع المحافظة على أصوله الكبرى.

أمّا المستوى الثاني فهو أخلاقياً كافر بنعمة الله ولا يشكر الله تبارك وتعالى لكن هو مسلم صائم مصلي، هذا أيضاً نتعامل معه على أساس الإسلام.

الكفر بالمستوى الأوّل فقط وهو الذي لا يؤمن بالله ولا يؤمن برسوله فذلك هو الكافر فقهياً، وأحكام الكافر تطبق عليه.

الإسلام الصحيح يتعامل برحابة صدر مع كل من يعلن الشهادتين ودائرة الأخوة تتسع في مذهب أهل البيت، أي الإسلام الصحيح لجميع المسلمين.

---

(1) يوسف: ١٠٦.

حكم الكافر:

ما هو حكم الكافر الذي لا يؤمن بالله وبرسوله ولكنه لا يحارب أهل الإسلام؟

الجواب إن الإسلام يقول دمهم ومالهم وعرضهم حرام.

مثلاً أنت في بغداد وهناك محل صاحبه نصراني فهل يُجيز لك الفقهاء أن تسطو على المحل وتقول إن صاحبه نصراني كافر وأمواله حلال لي، هذا لا يجوز إسلاميّاً فالناس مسلطون على أموالهم سواء كانوا مسلمين أو نصارى أو يهود أو بوذيين.

ودمه حرام أيضاً، والقرآن يقول: ﴿مَنْ قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّما قَتَلَ النّاسَ جَمِيعاً﴾،[1] **إذن دمه حرام بمعنى لا يجوز هدر دم ذلك الإنسان الذي يختلف معي عقائدياً حتّى لو كان على مستوى الشرك بالله تبارك وتعالى.**

وكذلك عرضهم حرام، يعني النساء الكافرات سواء الموجودة في العالم الإسلامي أو موجودة في العالم غير الإسلامي، هل هذه مستباحة لنا نحن المسلمون؟ هل الإسلام يقبل هذا؟ بالعكس هذه أعراض مصونة ولا يجوز الاعتداء عليها وعلى أي مستوى من المستويات، فالإسلام لا يسمح بهذا الاعتداء ولهذا يقول القرآن: ﴿الَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حافِظُونَ * إِلاَّ عَلى أَزْواجِهِمْ أَوْ ما مَلَكَتْ أَيمانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ * فَمَنِ ابْتَغى وَراءَ ذلِكَ فَأُولئِكَ هُمُ العادُونَ﴾،[2] **يعني أن أعراض جميع الناس لا يجوز التعدي عليها.**

---

(1) المائدة: ٣٢.

(2) المؤمنون: ٥ - ٧.

إذن إسلامياً يكون الكافر الذي لا يؤمن بالله ولا برسوله ﷺ دمه وماله وعرضه محفوظ، رغم أنه يختلف معنا دينياً وعقائدياً، نعم الكفر له أحكام خاصة في الزواج والميراث والدية، لكن ذلك محفوظ في دائرة التعايش السلمي والاحترام والأمان لهؤلاء جميعاً، ولهذا فإنك في العالم الإسلامي لا تشعر بكثير من الفرق في الناحية الأمنية والأخلاقية بين أبناء الوطن الإسلامي من المسلمين وغيرهم فلا تجد الكثير من الفرق بينهما، ذلك في أمان وهذا في أمان، ذاك محمي من قبل الدولة وهذا كذلك.

أخلاق الإمام عليّ عليه السلام مع الرجل النصراني:

أمير المؤمنين عليه السلام مرة جاءه نصراني من أهل الكتاب ولما أراد عليه السلام توديعه من البيت مشى معه خطوات وشيّعه إلى خارج البيت وكلما التمسه وترجاه النصراني أن يرجع قال له الإمام عليه السلام: هذه هي أخلاق الإسلام، فإن من أخلاق الإسلام إذا جاء ضيف يستحب أن نشيّعه احتراماً وأدباً إلى خارج المنزل، فقال النصراني: أهذه أخلاق الإسلام، قال عليه السلام: نعم هذا هو الإسلام.

الرواية تقول إن النصراني قال: أشهد أن لا إله إلاّ الله وأشهد أن محمّداً رسول الله، هذا الشخص كان من أهل الكتاب وأصبح مسلماً.

المذهب التكفيري:

على هذا الأساس سوف نعرف الفرق بين مذهب أهل البيت وبين المذاهب التكفيرية، ونحن نتحدّث عن المذاهب التكفيرية في داخل العالم الإسلامي، إن أوّل من شَرَّع التكفير للمسلمين في داخل العالم

الإسلامي هم الأمويون وعلى رأسهم معاوية بن أبي سفيان، حيث أصبح يحاسب الناس ويتعامل مع دمائهم على أساس البراءة من عليّ بن أبي طالب عليه السلام، وقال: برئت الذمة ممن روى رواية في فضل عليّ، أي أصبح دمه هدراً، وأصبح الناس في أيام معاوية يُعرضون على سبّ أمير المؤمنين عليه السلام فمن سبّه أمن ومن لم يسبّه قُتل.

التاريخ يروي ذلك وابن أبي الحديد المعتزلي في شرح نهج البلاغة(1) وهو ليس من الشيعة يؤرخ هذه القضايا وكيف أن الحكم الأموي جعل المقياس في حرمة الدماء وهدرها هو السرائر والنوايا وحب أهل البيت أو بغضهم.

إذن نحن نقصد برجال المذهب التكفيري هم الذين يشرّعون هدر الدماء على أساس النوايا.

ولهذا فإن الإمام عليّ عليه السلام حينما دخل عليه حجر بن عدي وكان من أبطال الشيعة، قال له الإمام عليه السلام: «كيف بك يا حجر إذا دُعيت إلى البراءة مني فما عساك أن تقول؟».

فقال: والله يا أمير المؤمنين لو قطعت بالسيف إرباً إرباً وأضرم لي النار وأُلقيت فيها لأثرت ذلك على البراءة منك.

فقال عليه السلام: «وفقت لكل خير يا حجر...»(2) الحديث.

حيث يعلم الإمام عليه السلام أن حجراً يوماً ما سيؤخذ مقيّداً ومكبّلاً ويُساق إلى الصحراء قرب دمشق وهناك يُعرض على البراءة من الإمام عليّ ويُقتل.

---

(1) راجع: شرح نهج البلاغة ١١: ٤٤.
(2) البحار ٤٢: ٢٩٠.

وفي حديث آخر قال الإمام عليّ عليه السلام: «أما السبّ فسبّوني، وأما البراءة فلا تتبرأوا مني»؛[1] لأن السبّ هو ظاهر العمل والبراءة هي حالة قلبية والسبّ هو عمل لساني، أي إن الإنسان قد يكفر بالله في ظاهر الحال تحت السياط ولا إشكال في ذلك حيث يقول القرآن: ﴿إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً﴾[2] كما صنع عمار بن ياسر.

ومرّت الأيام وإذا بحجر بن عدي يُلقى القبض عليه في مرج عذراء قرب دمشق وهناك _ كما تقول الرواية _ كان هو وابنه، قيل له: إما أن تتقدم أنت للقتل أو ابنك يتقدم، لا لذنبٍ أبداً بل لمجرد حب عليّ، فقال لابنه: تقدم أنت وقتل ابنه بالفعل.

قيل له: لماذا قدّمت ابنك للموت؟ قال: خشيت على ابني من أن يتراجع ويهتز لمشهد قتلي.

هذا نموذج لبدايات المذهب التكفيري وسنّه معاوية، وقد جرى عليها الأمويون وبعدهم العبّاسيون واستمرت عملية الاستئصال لشيعة أهل البيت، العجيب أن القتل لم يكن لأبناء الأديان الأخرى بل كانوا يجوبون الشوارع في بغداد عاصمة المنصور من اليهود والنصارى والزنادقة الملحدين لكن محبي أهل البيت كان يلاحقهم السيف ويطالهم القتل، حتّى كان أحبّ للرجل أن يُقال له: زنديق ولا يُقال له علوي، لأن الزنديق محفوظ الدم لكن العلوي دمه مهدور.

الممارسة التكفيرية استمرت إلى أن جاء المذهب الوهابي وأعلن على رأس المفتي الأعظم لدى الوهابيين إن الشيعة دماؤهم وأموالهم حلال.

---

(1) بحار الأنوار ٤١: ٣١٧.

(2) آل عمران: ٢٨.

كنا نقول أيها الناس، أيها العالم نحن أتباع أهل البيت ما ذنبنا نُقتل؟ ويقال أنتم مشركون ويهود؟ إن (٢٥٠) مليون مسلم شيعي ليس فقط يُكفّر بل وتُهدر دماؤنا ونحن أتباع باب مدينة علم النبي صلى الله عليه وآله هذا هو ذنبنا، ذنبنا الالتزام بقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾.[1]

قضية الحسين عليه السلام:

ماذا كانت جريمة الحسين عليه السلام؟

نحن نتحدّث عن الحسين والعالم الإسلامي معرض عنا وعن الحسين، القضية هي بين الاعتدال وبين الإرهاب، بين الحريات الدينية والسياسية وبين منهج قطع الرؤوس وسبي المسلمين والمسلمات.

الحسين عليه السلام يُقتل وهو ابن رسول الله ثمّ يُطاف برأسه في البلدان، ويُطاف بالسبايا من أهله وعياله في البلدان نعم، هذا هو المنهج التكفيري الإرهابي.

الحسين عليه السلام بالأصل لم يكن مقاتلاً، وثورة الإمام الحسين عليه السلام بالأصل لم تكن ثورة مسلحة، لقد فُرض على الحسين أن يدافع عن نفسه يوم عاشوراء، ولو كان الحسين يريد أن يجيش الجيوش لكان قد استخدم شكلاً آخر، بل كان يماطل ويماطل لكي لا يحدث قتال وسفك للدماء بأمل إن القضية تنحل سلمياً، لكن منطق الإرهاب والتكفير يومئذٍ وإلى اليوم لا يقبل سلماً ولا حواراً ولا حرية رأي.

يزيد أراد من المسلمين أن يبايعوه على الرق والعبودية.

---

(1) المائدة: ٥٥.

أيام الصدر الإسلامي الأوّل يعني أيام رسول الله ﷺ كان اليهود والنصارى يتمتعون بحرياتهم الشخصيّة والفكرية، يومئذٍ كان هناك قطبان القطب اليهودي والقطب النصراني ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُوداً أَوْ نَصارى تَهْتَدُوا﴾[1] **اليهود يقولون كونوا هوداً، والنصارى يقولون كونوا نصارى، جاء الإسلام وقال نحن نريد الإنسان الحر التقي ولندع الناس على حرياتهم** ﴿قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْراهِيمَ حَنِيفاً وَما كانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾،[2] **إلى أن يقول:** ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللهِ وَما أُنْزِلَ إِلَيْنا وَما أُنْزِلَ إِلى إِبْراهِيمَ وَإِسْماعِيلَ وَإِسْحاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْباطِ وَما أُوتِيَ مُوسى وَعِيسى وَما أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾،[3] **هذه هي التعددية الفكرية، نحن نقبل بما أُنزل على موسى وعيسى وإبراهيم وإسحاق ويعقوب وإسماعيل، القرآن يسمي إبراهيم حنيفاً، أي طاهراً وباصطلاحنا اليوم هو حرٌّ في التفكير** ﴿حَنِيفاً وَما كانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾،[4] **يعني غير ملوث بشرك.**

الإسلام يؤكد أن بينكم وبين إبراهيم يوجد ارتباط ﴿مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْراهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ﴾[5] **وأنتم الآن على دين الإبراهيمية الحنيفية الكبرى.**

الحنيفيّة الإبراهيميّة:

لا بأس أن أنتقل بكم إلى مقطع بسيط وهو ماذا يعني ﴿إِبْراهِيمَ حَنِيفاً﴾**؟**

الحنيفية لغوياً عبارة عن النقاء والطهر وحرية الموقف من أي

(1) البقرة: ١٣٥.
(2) المصدر السابق.
(3) البقرة: ١٣٦.
(4) البقرة: ١٣٥.
(5) الحج: ٧٨.

شرك وأدران، والحنفية على مستويين: مستوى الباطن: وهي الطهارة من الشرك، أما مستوى الظاهر: فأنا أقرأ لكم رواية عن الإمام الصادق عليه السلام يقول: الحنيفية التي أنزلت على إبراهيم عبارة عن خمسة في الرأس وخمسة في البدن، أما الخمسة في الرأس فهي عبارة عن: أخذ الشارب _ يعني تقليم الشارب _ وإعفاء اللحى _ يعني يطلق لحيته بشكل معتدل ولا يحلقها _ وطم الشَعر _ يعني نظافة المنزل من الشعر المقطوع _ والسواك _ وهو تطهير الأسنان _ والخلال _ وهو يعني تنظيف ما بين الأسنان_.

وخمسة في البدن: حلق الشَعر والختان وتقليم الأظفار والغسل من الجنابة والطهور بالماء.[1]

لاحظوا هذه قضايا مَدَنية وليست طقوساً عبادية لكن أنظروا إلى جمال الإسلام الذي يؤكد هذه السنن، هذا قبل (٣٠٠٠) عام إبراهيم عليه السلام سنَّ هذه السنن، بينما المدنية الحديثة اليوم تشكو من التلوث بالخمر والمسكرات وأبوال وفضلات الكلاب، كنت أقرأ تقريراً يقول: في سنة (٢٠٠٤م) هناك (١٦/٠٠٠) سائق في الولايات المتحدة الأمريكية قتلوا في حادث اصطدام نتيجة المسكرات، والقرآن الكريم يقول: ﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾،[2] هذه قضايا حضارية مدنيّة يؤكدها الإسلام وهي غير مسألة العلاقة مع الله، النقاء، الطهارة، النظافة، الجمال والابتعاد عن أي تلوث

---

(1) الفقيه ١: ١٢٨/ ٣١٣.

(2) المائدة: ٩٠.

بـدني ومعنـوي، هـذه هـي الحنيفيـة علـى مـستوى البـدن. والحنيفيـة الباطنيـة التـي هـي عبـارة عـن الإخـلاص فـي العبـادة لله تبـارك وتعـالى والابتعـاد عـن لوث الشياطين.

قلب ابن آدم دائماً في معركة يسار ويمين فهناك شيطان يلوث قلب ابن آدم، كما إن الجو ملوث دائماً ببكتريا ضارة ونافعة، الروايات تسميها جنـود الرحمن وجنود الشيطان فكما أن البدن يتعرض لبكتريا ضارة وأخرى نافعة فالقلب أيضاً يتعرض لجنود الرحمن ولجنود الشيطان، دائماً الإنسان المؤمن هو في حرب أما غير المؤمن فليس في حالة حرب وذلك لأنه مستسلم للشيطان وهو يقوده أسيراً، لكن المسلم دائماً في معركة ولذلك فإن بعض الروايات تقول: «الشاب إذا نظر إلى امرأة أعجبته وطأطأ رأسه وغض بصره زوّجه الله من الحور العين قبل أن يرتد إليه طرفه».[١]

أنا أقرأ لكم رواية عن الإمام الصادق عليه السلام في المعركة بين جنود الرحمن وجنود الشيطان في قلب ابن آدم دائماً.

الرواية تقول: قال الإمام الصادق عليه السلام لتلميذه سماعة: «يا سماعة لا ينفك المؤمن من خصالٍ أربع من جارٍ يؤذيه، وشيطانٍ يغويه ومنافقٍ يقفو أثره ومؤمن يحسده».[٢]

والحمد لله رب العالمين

* * *

(1) عن الصادق عليه السلام قال: «من نظر إلى امرأة فرفع بصره إلى السماء، أو غمض بصره لم يرتد إليه بصره حتّى يزوجه الله من الحور العين». وسائل الشيعة ٢٠: ١٩٣.
(2) الخصال: ٢٢٩.

المحاضرة الخمسون:

نقد

نظرية تعدد الحق

«أشْـهَدُ أنَّ هَـذَا سَـابِقٌ لَكُـمْ فِيمَـا مَـضَى وَجَـارٍ لَكُمْ فِيمَا بَقِيَ».

بسم الله الرحمن الرحيم

الليلة حديثنا عن هذا المقطع من الزيارة الجامعة الكبيرة: «أشهد أن هذا سابقٌ لكم فيما مضى، وجارٍ لكم فيما بقي» بمعنى أن هذه المعاني التي تقدمت والصفات التي ذُكرت لأهل البيت عليهم السلام وأتباعهم وشيعتهم، هذه الصفات مستمرة دائمة وغير منقطعة.

قبل هذا المقطع هكذا كنا نقرأ: «عصمكم الله من الزلل، وآمنكم من الفتن، وطهركم من الدنس» وهكذا كنا نقرأ: «سعد من والاكم، وخاب من عاداكم، وأمن من لجأ إليكم».

الإمام الهادي عليه السلام وهو مؤلف هذه الزيارة يقول: إن هذه المعاني غير مختصة بإمام دون إمام، ولا نبيّ دون نبي، ولا زمن دون زمن، حقانية أهل بيت النبوة وعصمتهم ونجاة مواليهم، هذه الحقيقة دائمة منذ بعث الله الأنبياء وإلى يوم يبعثون.

هذه الزيارة هي زيارة آدم ونوح وإبراهيم وعيسى وموسى ورسول الله صلى الله عليه وآله وكما هي زيارة للإمام عليّ والزهراء والحسن والحسين عليهم السلام، كل هؤلاء نحن نقول لهم: «السلام عليكم يا أهل بيت النبوة»، كل هذه الكوكبة من النور نقول لهم: «عصمكم الله من الزلل، وآمنكم من الفتن، وطهركم من الدنس»، ونقول لهم: «سعد من والاكم، وخاب من عاداكم، وأمن من لجأ إليكم، وفاز من تمسك بكم».

استمرار خط النبوة والإمامة:

هذه الحقيقة هي حقيقة استمرار خط النبوة والإمامة، يعني أننا نريد أن نقول في هذه الزيارة إن خط النبوة والإمامة هو خط واحدٌ ممتد من أوّل البشرية إلى آخر البشرية وليست المسألة مقطعية، أي في زمن معين هناك نبوة وهناك حق ونجاة وما عداه هناك هلاك، لا بل هي كذلك في كل زمن، البشرية منذ بعث الله آدم إلى يوم يبعثون هناك خط هو خط الحق والنور في مقابله خط الباطل والظلام «أشهد أن هذا سابقٌ لكم فيما مضى» يعني نوح، إبراهيم، موسى، عيسى، هود، صالح كل هؤلاء الأنبياء أن هذه الحقيقة سابقة لهم فيما مضى من التاريخ «وجارٍ لكم فيما بقي» هذه الزيارة نحن نقرؤها في زمن الإمام الهادي عليه السلام، إذن هل تنتهي مسيرة الحق عند الإمام الهادي عليه السلام؟

الجواب: أن مسيرة الحق تستمر بعد الإمام الهادي وبعد الحسن العسكري إلى الإمام المنتظر عليه السلام، هذه مسيرة الحق دائمة أيام ظهور الأئمّة وفي غيبتهم مستمرة أيضاً.

نحن الآن في زمن غَيبة المعصوم، هذه الحقائق التي قرأناها «عصمكم الله من الزلل..، سعد من والاكم وهلك من عاداكم»، هل هذه المعاني مستمرة في زمن الغيبة؟ أم فقط ربحها سلمان وأبو ذر والمقداد وزرارة ومحمّد بن مسلم وميثم التمار؟ وهل نحن أيضاً من الرابحين؟

الجواب أن الخط متصل والمسيرة متصلة «أشهد أن هذا سابقٌ لكم فيما مضى» في زمن أبي ذر، عمّار، مقداد، الحر الرياحي، حبيب بن مظاهر، ميثم التمار، رشيد الهجري وفي زمن الإمام الصادق وأصحابه محمّد بن مسلم وزرارة بن أعين حتّى نصل إلى زمن الإمام الهادي عليه السلام

وحتّى نصل إلى زمن وكلاء الأئمّة في زمن الغَيبة الشيخ المفيد، الشيخ الطوسي وإلى زماننا هذا، أشهد أن هذه الحقيقة وهي حقيقة خط الحق واستحقاقات الحق، «أشهد أن هذا سابقٌ لكم فيما مضى وجارٍ لكم فيما بقي» يريد أن يؤكد الإمام الهادي عليه السلام إنكم يا شيعتنا في آخر الزمان أنتم على نفس الخط، لا تتصوروا أن الخط قد تعرَّج وقد تغيّر.. لا هو نفس الخط كما لو كنتم في زمن الإمام الهادي وزمن الإمام عليّ عليه السلام «وجارٍ لكم فيما بقي» من العصور والدهور والأزمنة.

نحن في زيارة الجامعة الكبيرة نقرأ مضامين تربوية رائعة تعالج مخالجات فكرية ستحدث في آخر الزمن وفي كل عصر بعدهم، وسأشير إلى بعضها، ها هي الزيارة تقول: «توليت آخركم بما توليت به أوّلكم، مؤمنٌ بأوّلكم وآخركم وظاهركم وباطنكم»، لاحظوا أن الزيارة تعلّمنا فكرة الإيمان بأهل البيت في ظهورهم وفي غيبتهم، في أوّلهم وهو الإمام عليّ عليه السلام حينما نتحدّث عن الإمامة، وآدم، نوح، إبراهيم، حينما نتحدّث عن النبوة، نحن مؤمنون بكل هؤلاء، «مؤمنٌ بآخركم»، أي إنني مؤمن برسول الله صلى الله عليه وآله وهو آخر الأنبياء وخاتمهم، أنا مؤمن بالإمام عليّ عليه السلام وهو أوّل الأوصياء ومؤمنٌ بالإمام المنتظر وهو آخر الأوصياء، «مؤمنٌ بأوّلكم وآخركم، وظاهركم وباطنكم ومفوضٌ في ذلك كله إليكم».

قد يقول بعض الناس نحن في زمان الغيبة، الأئمّة يوم كانوا... كانوا رحمةً للعالمين، لكن اليوم لا عندنا عليّ ولا حسن ولا حسين ولا زهراء، إذن هذه المفاهيم أصبحت مفاهيم تاريخية انتهت!! إذن لِمَ تكرار هذه المفاهيم؟ نحن الآن لا نعيش مع إمام معصوم؟

هذا سؤال قد يُطرح ويقال إننا يجب أن نفكر بطريقة أخرى، بطريقة استحداث معانٍ جديدة، واستحداث علاقات جديدة، وولائات جديدة، بطريقة معاصرة وليست طريقة تاريخية، هذا قد يقال، بينما نجد أن هذه الزيارة وسائر النصوص الدينية تؤكد فكرة خاتمية الإسلام، وخاتمية مذهب الحق «الخاتم لما سَبَق والفاتح لما استقبل»، وهو يعني إن رسول الله ﷺ هو الخاتم للأنبياء، وإن أئمّتنا عليهم السلام هم ختام الرسالة، ليس هناك شيء فوق أهل البيت وليس هناك شيء يُستحدث أفضل من أهل البيت، وكما جاء في الحديث الشريف عن رسول الله ﷺ: «لا تعلّموهم فإنهم أعلم منكم».[1]

نظرية الهرمنوطيقيا:

اليوم انفتح علينا فكر جديد وهو ما يسمى بـ (نظرية الهرمنوطيقيا)، وهناك هرمنوطيقيا قديمة وهناك هرمنوطيقيا حديثة، هذه العبارة انكليزية ترجمتها (تعددية الحق) يعني لا يوجد حق واحد وإنما (أ) حق و(ب) حق و(ج) حق و(د) حق، لماذا تفترضون أن هناك حق وباطل... فالكل حق، هذه النظرية تفترض إن المسلم حق، والكافر حق والمؤمن حق، وعابد الوثن حق، وعابد البقر أيضاً كل واحد يعبد على طريقته وكلهم على صراطٍ مستقيم، هذه النظرية في الحقيقة مطروحة اليوم في العالم وتتبناها النظرية العلمانية والليبرالية.

هناك هرمنوطيقيا قديمة وهرمنوطيقيا جديدة، القديمة كما وضعوا على لسان رسول الله ﷺ حديثاً يقول: «أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم»،[2]

---

(1) بصائر الدرجات: ٦٩.

(2) لسان الميزان ٢: ١٣٧.

هكذا رووا موضوعاً على رسول الله ﷺ، لأنهم واجهوا أزمة في تفسير التاريخ بعد رسول الله ﷺ، قالوا نحن نقبل كل الصحابة، كيف تقبلون بجميع الصحابة، عائشة كانت بالأمس تقول: «اقتلوا نعثلاً _ تعني عثمان _ قتل الله نعثلاً»،[1] هذا نص تاريخي ثابت أن عائشة أم المؤمنين كانت تقول ذلك عن عثمان وهو لدى أهل السنة خليفة رسول الله ﷺ، نحن الآن نريد أن نعرف أين الحق وأين الباطل؟ هل يمكن أن يكون عثمان على حق وفي نفس الوقت تكون عائشة على حق، فإذا كان كلاهما على حق فكيف يسمح أحدهما بقتل الآخر، وهكذا عليّ ومعركته مع معاوية والحسين مع يزيد، إذا كنت مع عليّ تدخل الجنّة، وإذا كنت مع معاوية تدخل الجنّة، وإذا كنت مع الحسين تدخل الجنّة، واذا كنت في معسكر يزيد فأنت تدخل الجنّة أيضاً؟ ذلك أمر عجيب، هم في زمانهم أحدهم يلعن الآخر، سبعين سنة معاوية شرّع سبّ الإمام عليّ على المنبر وهو طوال مدة الحكم الأموي من معاوية وإلى أيام عمر بن عبد العزيز، فإذا كان عليّ على حق ففيم شرّع معاوية سبّه؟ وهكذا إذا كان الحسين على حق إذن فلِمَ أمر يزيد بقتل الحسين عليه السلام؟

الهرمنوطيقيا القديمة:

على كل حال أنا الآن لست بصدد مناقشة هذا المعنى.

لقد طرحوا نظرية هي التي نسميها اليوم الهرمنوطيقيا القديمة.

نظريتنا نحن تقول: أهل البيت على حق وما عداهم باطل، نظريتنا واضحة جداً في تفسير التاريخ أي إننا ليست لدينا مشكلة فلسفية، نقول: «عليّ مع الحق والحق مع عليّ»، هذا معناه إن من قابل الإمام عليّاً ليس

---

(1) الإيضاح: ٢٥٧.

على حق، في مقابل هذه النظرية، طرحوا نظرية عصمة الصحابة وهي الهرمنوطيقيا القديمة التي تقول: «أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم»، استمرت القضية إلى الجانب الفقهي والتشريعي، نحن نقول: قال رسول الله ﷺ: «أنا مدينة العلم وعليٌّ بابها، فمن أراد المدينة والحكمة فليأتها من بابها»،[1] وهم يقولون: رسول الله مدينة العلم ولها أبواب كثيرة من أين أردتم أن تدخلوا أدخلوا، أبوابها أبو بكر وعمر وأبو هريرة وعائشة وطلحة والزبير، وكذلك أبو حنيفة والشافعي والمالكي والحنبلي وليس فقط جعفر بن محمّد الصادق وسلالة النبوة، ومن هنا برزت نظرية المذاهب الإسلاميّة المتعددة واعتبارها كلها على حق. وهذه هي الهرمنوطيقيا القديمة، أي إن كنت تريد أن تعبد الله تعالى على طريقة أبي حنيفة أو أن تعبد الله تعالى على طريقة جعفر بن محمّد الصادق فالأمر إليك وكله صحيح، وفي الآخر والحمد لله جاء شيخ الأزهر وقال: ليس من الإنصاف أن نقبل بأبي حنيفة ومالك بن أنس والأوزاعي والمالكي ولا نقبل بجعفر بن محمّد الصادق، لا بدّ أن نقبل به أيضاً، فقالوا المذهب الخامس هو مذهب أهل البيت فمن عمل بمذهبهم فهو أيضاً من أهل النجاة.

هذا في ما مضى من الزمان.

الهرمنوطيقيا الحديثة:

الآن هذه النظرية _ الهرمنوطيقيا _ مطروحة في العالم الغربي، وفي العالم الإسلامي كذلك، من قبل بعض الكُتّاب المتأثرين بالفكر

---

(1) مواقف الشيعة ٣: ١١٦.

الغربي تقول هذه النظرية: نحن في هذا الزمان لماذا نقول هذا الخط حق وما عداه باطل، لا... الشيعة حق، السُنّة حق، المسلمون حق، المسيحيون حق، المصلون حق وغير المصلين حق أيضاً، محبوا الإمام عليّ عليه السلام حق والمعادون له حق، والإسلام واسع والطرق إلى الله على عدد أنفاس الخلائق وربك الغفور الرحيم ويقبل هؤلاء جميعاً، هذه هي الهرمنوطيقيا الحديثة في الوسط الإسلامي. هذا مطروح اليوم ويكتب له بعض الكُتّاب المتأثرين بالفكر الغربي، ذكرت هذا لأؤكد أن نظرية أهل البيت ونظرية الإسلام ونظرية القرآن هي أُحادية الحق ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾، فإذا كان هناك حق فما عداه إلاّ الضلال المبين، فلا يجوز أن نقول إن هذا حق وما هو ضدّه حق أيضاً، كلاّ، ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخاسِرِينَ﴾،[1] فلا يجوز أن نقول ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فقد يُقبل منه وهو في الآخرة من المفلحين، هذا سوف أبحثه بشكل مبسط، هذا مجرد إشارة في نقد الهرمنوطيقيا الحديثة التي تعتمدها النظرية العلمانية والليبرالية.

الزيارة تقول: «أشهد أن هذا سابقٌ لكم فيما مضى»، أي وحدانية الحق فيما سبق «وجارٍ لكم فيما بقي» من الأيام، فلا يأتي شخص بعد ألف أو ألف وأربعمائة سنة يقول جيد الآن لا يوجد أهل بيت النبوة لا الإمام الصادق ولا الباقر إذن كل المذاهب على حق، حيث لا يوجد معصوم بيننا إذن الكل يمشي باتجاه صحيح، أصبحت الطرق متقاربة، أي لا توجد فواصل كثيرة، وبالتالي فإن المذاهب متداخلة.

(1) آل عمران: ٨٥ .

لكن أهل البيت كما هو القرآن الكريم يقول: لا يجوز أن يأتي شخص ولو في آخر الزمان يقول طالما لا يوجد عندنا إمام معصوم إذن فقد انتهت العصمة والكل يسلكون إلى الله تبارك وتعالى باجتهاداتهم ولا يوجد واحد حق والثاني باطل، كلهم على حق، الكل يريدون الوصول للعصمة واحد بهذا الطريق وآخر بذلك الطريق، الزيارة تقول: «وجار لكم فيما بقي» من الزمان، إن انحصارية الحق بخطٍ واحد هو خط النبوة وخط الإمامة، هذه الانحصارية سابقة وباقية «وجارٍ لكم فيما بقي»، حتّى في زمن الغيبة.

اللقاء بصاحب الزمان عليه السلام:

اليوم كنت أقرأ رواية جميلة جداً في مجلة لطيفة صدرت أخيراً هي مجلة (الانتظار) التي يصدرها مركز الدراسات التخصصية في الإمام المهدي عليه السلام هنا في النجف الأشرف وذلك في عددها الثالث، هذه الرواية عبارة عن ملاقاة السيد المرعشي النجفي 1 _ وهو من مراجع الدين هنا في النجف الأشرف ثمّ ارتحل وهاجر إلى قُم المقدسة وهو من السادة المرعشية المعروفين _ مع الإمام المنتظر عليه السلام، السيد المرعشي 1 يقول: أنا صممت أيام شبابي أن أزور مسجد السهلة أربعين أسبوعاً وفي كل ليلة الأربعاء كما هو معروف ومشهود، وحيث تكون نتيجة هذه الزيارة لقاء الإمام المعصوم، وأنا قد اشتد شوقي للقاء الإمام المنتظر عليه السلام فصممت أن أزور مسجد السهلة أربعين أسبوعاً مشياً على الأقدام، يقول واصلت ذلك إلى ست وثلاثين أسبوعاً، وفي الأسبوع الأخير كان الجو بارداً مُشتياً فمشيت على طريقتي إلى مسجد السهلة واقترب وقت المغرب واظلم الجو وقاربت مسجد السهلة ولكن أخذني الخوف فالجو مظلم وبارد والصحراء خالية ويومئذٍ هناك سُرّاق وقطاع طرق، فيقول امتلكني الخوف وأنا بعد لم أصل إلى

المسجد، وبينما أنا أمشي وحيداً في تلك الليلة المظلمة وإذا بشخص يناديني: سلام عليك أيها السيد، يقول ارتعدت في البداية لكن اطمأننت بعدئذٍ أن هذا الذي يناديني هو إنسان مؤمن مؤدب ويناديني بالسيد وبالتالي هو ليس من السُّراق، ثمّ كيف عرفني بأنني سيد وهذا ليل مظلم ولكن اطمأن له قلبي وأصبح يماشيني إلى أن دخلنا مسجد زيد بن صوحان وهو أخو صعصعة بن صوحان وهو قريب من السهلة، يقول صليت ركعتين ودخل معي الأعرابي وصلى ركعتين ثمّ نهضنا نمشي سوياً إلى مسجد السهلة، فدخل الأعرابي معي إلى مسجد السهلة وكان يصلي ركعتين عند هذا المقام وعند ذاك المقام من المقامات المعروفة في مسجد السهلة. وأنا أشعر وبدون أن أتعرف عليه جيداً كأن المسجد كله وجدران المسجد كلها كأنما تتحدّث معه وتتلو معه دعاءه وصلاته ومناجاته، لقد ملك قلبي حتّى أصبحت أتبعه من حيث لا أدري بينما ليس لي سابقة معرفة به لكن هيمن عليَّ وأصبحت أتبعه، حتّى إذا صلى صلاة المغرب صليت معه مأموماً، وصليت خلفه وأنا لا أعرفه، وبعد أن أنهينا الصلاة التفت إليّ وقال: يا سيد لعلك جائع فلنتناول طعام العشاء سوياً ثمّ فتح منديلاً فيه خيارتان وبعض الخبز ويبدو أنه طازج قد اقتطف تواً والوقت كان وقت شتاء وليس وقت خيار، ثمّ تناولنا الطعام سوياً ثمّ سألني: سيد بعد مسجد السهلة هل تذهب إلى مسجد الكوفة أم تبقى للمبيت هنا؟

قلت له: يا هذا أنا أبقى في مسجد السهلة. فبقي معي في مسجد السهلة ثمّ بدأ يحدّثني ويسألني وأنا أجيب.

قال: كيف تستخير؟ قلت له: أستخير بالسبحة بهذا الشكل فأضاف لي إضافة ثمّ أوصاني بزيارة الإمام الحسين عليه السلام ثمّ أوصاني بقراءة سورة يس والواقعة والملك وهكذا بدا مهيمناً

عليٌّ وهو يوجهني توجيهاً دينياً وتربوياً دون أن أنتبه إلى من يكون هذا الأعرابي.

يقول وبعد مدة خرجت من المسجد لقضاء حاجة وفي الطريق فكَّرت أنه من يكون هذا الأعرابي؟ علماً، فقهاً، توجيهاً وقد التقينا في الطريق دون معرفة سابقة وكيف سيطر عليٌّ بحيث إني صليت صلاة المغرب خلفه، وجدران المسجد كأنها تتحدّث معه.

يقول السيد المرعشي: قلت في نفسي لقد سألني هذا الأعرابي لماذا جئت إلى مسجد السهلة؟ فقلت: أنا أطلب اللقاء بالإمام المنتظر.

يقول السيد المرعشي: حضر في ذهني لعلَّ هذا يكون هو الإمام المنتظر، فعدت مسرعاً إليه فلم أجده، بحثت المسجد غرفة غرفة وباباً باباً فأجهشت بالبكاء وتيقنت بأني التقيت الإمام المنتظر عليه السلام.

هذه روايات معاصرة وأنا في الحقيقة أذكرها لكم لأننا نعتقد بمقولة: «أشهد أن هذا سابق لكم فيما مضى وجارٍ لكم فيما بقي».

اللقاء بأهل البيت عليهم السلام:

العلامة الشيخ الاحسائي ـ وهو من العلماء الكبار الإخباريين الذين يعتمدون الأخبار الشريفة والقبول بها ـ وقد كنت أقرأ في ترجمة حياته، يقول أنا رأيت في المنام الإمام الحسن عليه السلام قلت: سيدي ـ في رؤية مفصلة جداً ولطيفة جداً ـ علّمني كلاماً إذا أنا قرأته التقي بكم.

الإمام عليه السلام قال له: أقرأ هذه الأبيات ـ وستجدون أن ليس المقصود هو قراءة الأبيات وإنما التمثل واستشعار ومعايشة هذه المعاني ـ:

كـــنْ فـــي أُمـــورِكَ مُعرِضـــاً	وَكِـــلِ الأمـــورَ إلـــى القَـــضا
فَلَرُبَّمـــا اتَّـــسَعَ المَـــضيق	ورُبَّهـــا ضـــاق الفَـــضا
ولـــرُبّ أمـــرٍ مُتعـــبٍ	لَـــك فـــي عواقبـــهِ رِضـــا
الله يفعـــلُ مـــا يـــشاء	فـــلا تكـــن متعرضـــا
الله عـــوّدك الجميـــل	فَقِـــس علـــى مـــا قـــد مـــضى

هـذا المعنـى إنـا نـستفيد منـه فـي كـل ممارسـاتنا، لـيست ممارسـاتنا فـي الـسلوك الشخـصي والحيـاتي والأسـري، بـل حتّـى فـي المجـال الـسياسي، ففـي المجـال الـسياسي أيـضاً الله عودنـا الجميـل فَقِـس علـى مـا قـد مـضى، إن الـذي نـصرنا بـالأمس ينـصرنا اليـوم والـذي كـان معنـا بـالأمس يكـون معنـا اليوم وصاحبنا بالأمس هو صاحبنا اليوم.

إن الـذي يريـد أن يلتقـي بأهـل البيـت ولـو لقـاءاً غيـر مباشـر، لقـاء مـع خـط أهـل البيـت عليهم السلام يجـب أن يكـون عنـده معنـى هـذه الأبيـات، فكـن متوكلاً على الله تعالى ولا تعترض على الله فإنه يفعل ما يشاء.

استجابة الدعاء:

هـــذا رجـــل مـــن بنـــي إســـرائيل كـــان يـــدعو الله تبـــارك وتعـــالى ثلاثـــين عامـــاً أن يرزقـــه ولـــداً، وفـــي الروايـــة عـــن الإمـــام الـــصادق عليه السلام أنـه رأى فـي المنـام رجـلاً فقـال لـه: أنـا لـيس لـدي ولـد فمـاذا أفعـل مـع أنـــي أدعـــو كثيـــراً، قـــال: «إنـــك تـــدعو الله عزّ وجلّ منـــذ ثـــلاث ســـنين بلـــسان بـذيٍّ وقلـب عـاتٍ غيـر تقـي ونيـة غيـر صـادقة فـاقلع عـن بـذائك وليتـق

الله قلبُك ولتحسن نيتك». قال: ففعل الرجل ذلك ثمّ دعا الله فولد له غلام.[1]

شبهات التعددية:

الحديث «أشهد أن هذا سابقٌ لكم فيما مضى، وجارٍ لكم فيما بقي، وأن أرواحكم ونوركم وطينتكم واحدةٌ طابت وطهرت بعضها من بعض خلقكم الله أنواراً فجعلكم بعرشه محدقين» حقانية أهل البيت ومذهب أهل البيت مستمر في زمن الظهور كما هو في زمن الغيبة الذي نحن فيه، فهناك استمرارية للحق، ووحدانية للحق على خلاف نظرية الهرمنوطيقيا الحديثة التي تقول بتعددية الحق.

طبعاً هؤلاء يطرحون مجموعة أسئلة ومجموعة شبهات وإثارات.

الشبهة الأولى: عذاب الأكثرية:

يقولون إذا كنتم وحدكم على حق والباقون على ضلال فذاك يعني أن الأكثرية هم من أهل النار، إذن أين رحمة الله التي وسعت كل شيء.

الشبهة الثانية: خسارة الأنبياء:

لأن معنى ضلال الأكثرية أن الأنبياء لم ينجحوا إلاّ في مجموعة قليلة وباقي الناس كلهم على باطل، إذن الشيطان ناجح والأنبياء خاسرون، بل إن الشيطان ناجح والله تعالى مغلوب.

هذه إثارات وشبهات تطرحها نظرية تعددية الحق الحديثة ومن أجل ذلك يقول أصحاب هذه النظرية لنقل أن الشيعة في الجنّة والسُنة في الجنّة، أصحاب الإمام عليّ في الجنّة وأصحاب معاوية في الجنّة، والحسين في الجنّة وشمر بن

---

(1) الكافي ٢: ٣٢٥.

ذي الجوشن الذي جلس على صدر الحسين واحتز أوردته وريداً وريداً يدخل الجنّة أيضاً أمام رسول الله ﷺ، يعني أن الرسول يلتفت إلى الحسين فيقول له أهلاً بك ويلتفت إلى الشمر ويقول له أهلاً بك أيضاً، لماذا؟ لأنه لا يجوز أن يكون أكثر الناس مصيرهم إلى النار، فأين رحمة الله تعالى؟ وأين غلبة الأنبياء؟ وأين حكمة الأنبياء وسياستهم؟

هذه مجموعة شبهات.

جواب الشبهة:

لكن القرآن الكريم يقول: ﴿وَما أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾،[١] يعني وفقاً لمنطق العدالة الإلهية لا توجد مشكلة في أن يكون أكثر الناس على ضلال، هذا لا يتنافى مع قدرة الله تبارك وتعالى وحكمته وغلبته، ولا يتنافى مع نجاح حركة الأنبياء ولا مع حكمتهم، أمير المؤمنين يقول: «أما والله ما معاوية بأدهى مني ولكن معاوية يغدر ويفجر»،[٢] إن غلبة معاوية على الإمام عليّ عليه السلام عسكرياً لا تعني أن الإمام عليّاً عليه السلام فاشل سياسياً، الدنيا كلها لا تعدل عند الله بمثل جناح بعوضة، ليكن أهل الحق قلة في الدنيا أو كثرة فهذا لا يعني فشل المشروع الديني ولا يعني فشل الأنبياء ولا يعني أن الله تعالى غير قادر على أن ينصر أنبياءه ورسله، صحيح أن هناك نصرة، ﴿وَاللَّهُ غالِبٌ عَلى أَمْرِهِ﴾.[٣]

النصرة بمعنى أن الله تبارك وتعالى نصرك على الشيطان والأهواء والانحراف، وعلى السقوط في معركة الامتحان الإلهي، الحسين انتصر في معركة الامتحان الإلهي، الشيعة انتصروا في معركة الامتحان الإلهي، انتصروا

(1) يوسف: ١٠٣.
(2) ميزان الحكمة ٣: ٢٣١.
(3) يوسف: ٢١.

بمقدار تمسكهم بالصراط المستقيم، وهذا هو أعظم انتصار، إنهم ثبتوا على صراطٍ مستقيم، على قلة العدد وخذلان الناصر، هذا هو الانتصار وهذا هو معنى ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ﴾ ومعنى ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾.[1]

المودة لأهل البيت عليهم السلام:

وهناك بحث آخر حول معنى مودة أهل البيت عليهم السلام التي هي شرط النجاة حين نقول: فمن جحدكم كافر ومن حاربكم مشرك» فهناك ناس لا يعرفون حقانية أهل البيت لكن لا يوجد بينهم وبين أهل البيت عداء، إن ملايين المسلمين يحبون أهل البيت وهم لم يعرفوا كامل الحقيقة، عرفوا (٨٠ %) منها، نحن نعتقد أن هؤلاء طالما رزقهم الله مودة أهل البيت إذن هم قد تمسكوا نسبياً بالحق وهؤلاء لا نقول إنهم من أهل جهنم.

نظرية القاصر والمقصّر:

في نظرية أهل البيت ونظرية الإسلام نميز بين القاصر والمقّصر، أي أن هناك شخص يدري ويخالف وهناك شخص لا يدري، هناك فرق بين من لا يدري ويخالف وبين من يدري ويخالف.

الاتحاد السوفيتي حينما سقط بعد سبعين عاماً من حكم الشيوعيين، حيث يوجد في الاتحاد السوفيتي بلاد آذربيجان وأرمنستان وأزبكستان وغيرها، هذه بلاد إسلاميّة وكان فيهم الشيعة وفيهم السُنة، وأوّل ما سقط الاتحاد السوفيتي أظهرت شاشات التلفزيون الشيعة في آذربيجان والذين لم يحفظوا شيئاً من الإسلام إلاّ اسمه واسم رسول الله

(1) غافر: ٥١.

واسم عليّ والحسن والحسين وفاطمة وما شاكل ذلك، كانوا يقرأون أبيات عن الزهراء عليها السلام وعن الأئمّة الأطهار، كان يحدثنا سيد _ قادم من آذربيجان _ يقول: إن هؤلاء الناس في يوم عاشوراء يبذلون الزاد والطعام وما شاكل ذلك، لكنهم بدل أن يذبحوا خروفاً أتوا بخنزير وذبحوه وطبخوه للطعام، هم لا يعرفون أن هذا حرام، هم يأكلون الخنزير مثلما نحن نأكل الغنم، لاحظوا هناك فرق بين من يدري ويعصي وبين من لا يدري.

أنت قد يعصيك ابنك، لكن هناك فرق بين أن يكون ابنك يدري ويعصي، وبين أن يكون لا يدري. هذه نظرية الفرق بين القاصر والمقصر، بين المتعمد وغير المتعمد، بين المغضوب عليهم وبين الضالين ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ﴾،[1] فالمغضوب عليهم هم الذين يعلمون ويخالفون، والضالون هم الذين لا يعلمون الحقيقة ويريدون أن يصلوا إلى الله تعالى، لكن ليس لديهم معرفة.

نحن نعتقد أن مسيرة أهل البيت مستمرة إلى يومنا هذا «سعد من والاكم وهلك من عاداكم وأمن من لجأ إليكم، من اتبعكم فالجنّة مأواه، ومن خالفكم فالنار مثواه، أشهد أن هذا سابق لكم فيما مضى وجارٍ لكم فيما بقي وأن أرواحكم ونوركم وطينتكم واحدة طابت وطهرت بعضها من بعض».

يوم عاشوراء:

جون هذا رجلٌ يوم عاشوراء وهو عبدٌ أسود قال له الحسين: إنك تبعتنا طلباً للعافية أنت في حلّ منا، فوقع على قدمي الإمام الحسين

(1) الفاتحة: ٦ و٧.

يقبلهما وهو يقول: سيدي أنا في الرخاء ألحس قصاعكم وفي البلاء أتركـكم، لا والله لا كان ذلك.

سيدي يا أبا عبد الله إن لوني لأسود وإن ريحي لنتن وإن حسبي للئيم، فتنفّس عليَّ بالجنّة عسى أن يبيض لوني ويطيب ريحي.

أذن له الحسين بالقتال ولما قُتل أقبل إليه الحسين وَضع خدَّه على خده فكان يقول هذا الإنسان الأسود: مَن مثلي وابن رسول الله واضعٌ خدَّه على خدي.

ولما قُتل كان مَن يمر بالمعركة يشم رائحةً من جسد هذا الغلام أزكى من رائحة المسك والعنبر.

إنا لله وإنا إليه راجعون

* * *

المحاضرة الحادية والخمسون:

بحث حول

أصل الإنسان وعالَم النور والطينة

«وَأَنَّ أَرْوَاحَكُمْ وَنُورَكُمْ وَطِينَتَكُمْ وَاحِدَةٌ طَابَتْ وَطَهُرَتْ بَعْضُهَا مِنْ بَعْض».

بسم الله الرحمن الرحيم

حديثنا الليلة عن هذا المقطع: «وإن أرواحكم ونوركم وطينتكم واحدة».

علماء الحديث يضعون باباً خاصاً في كتب الحديث تحت عنوان (الطينة والميثاق) وهذا الموضوع نطرحه اليوم في ثلاثة بحوث:

البحث الأوّل: أصل الإنسان.

البحث الثاني: المكونات الأولى للإنسان.

البحث الثالث: كيفية تكاثر الإنسان.

والآن نريد أن ننتقل إلى ما قبل خلقنا لننظر هناك، ماذا كان في ذلك العالم؟ في عالم الأرواح وعالم الأنوار وعالم الطينة، ونحن يومئذٍ أين كنا؟ وكيف أصبحنا في ذلك العالم؟

أصل الإنسان:

هذا الموضوع لا تستطيع الأدوات الطبيعية للعلم أن تصل إليه، إن أدوات البحث الطبيعي لا تستطيع أن تصل باستقرائها إلى أصل الخلقة البشريّة وما قبل ذلك، لأن هذه الأدوات تبحث ما هو موجود أمامها، أما ما كان موجوداً قبل آلاف السنين وقبل النشأة الدنيوية فلا تقدر هذه الأدوات أن تبحث عن ذلك، ولهذا نحن نحتاج إلى أداةٍ جديدة نسميها (الوحي)، نحتاج إلى أدوات تعبر عالم المادة وتكشف لنا عالم الغيب

وعالم اللامادة وماذا يوجد فيه، وهذه الأدوات يعرفها أهل بيت الوحي فنحن غير قادرين على أن نكتشفها، ولهذا فإن حديثنا اليوم سيكون أكثره عن الروايات التي تكشف لنا أصل الإنسان ثمّ المكونات الأولى للإنسان ثمّ كيفية التكاثر.

البحث الأوّل: أصل الإنسان:

هنا نظريتان في أصل الإنسان، نظرية اسمها: (نظرية الخلق المباشر)، ونظرية أخرى اسمها: (نظرية تطور الأنواع).

النظرية الأولى تقول إن الإنسان خُلق خلقاً مباشراً دون أن يمر بمراحل حيوانية سابقة، وهناك نظرية حديثة ما تزال على مستوى الفرضية والاحتمال اسمها: (تطور الأنواع) وهي تقول إن الإنسان نشأ من نوع آخر، وهكذا نوعاً بعد نوع إلى أن وصلنا إلى هذا الإنسان.

يظهر من النصوص القرآنية أنها تتجه باتجاه نظرية الخلق المباشر وليس نظرية تطور الأنواع.

القرآن يقول: ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنسانِ مِنْ طِينٍ﴾،[1] **ويقول:** ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرابٍ﴾،[2] **هذه السياقات ظاهرة في أن الله تبارك وتعالى، خلق الإنسان خلقاً مباشراً ونفخ فيه من روحه** ﴿وَإِذْ قالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خالِقٌ بَشَراً مِنْ صَلْصالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ * فَإِذا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ ساجِدِينَ﴾،[3] **لاحظوا التركيب هو من طين**

---

(1) السجدة: ٧.
(2) آل عمران: ٥٩.
(3) الحجر: ٢٨ و٢٩.

ثمّ نفخة من روح الله تبارك وتعالى ولهذا فإن الشيطان قال: ﴿أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِيناً﴾.(١)

أمّا نظرية (تطور الأنواع) فإن العلم الحديث ولحد الآن لم يستطع إثبات هذه النظرية بالأرقام اليقينية.

الرؤية الدينية تقول: إن الإنسان _ آدم _ خُلق خلقاً مباشراً واعياً بتصميم مقصود من قبل الله وليس مجرد تراكمات طبيعية ولهذا فإن القرآن الكريم يقول: ﴿الرَّحْمنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ * خَلَقَ الإِنْسانَ * عَلَّمَهُ الْبَيانَ﴾،(٢) هناك قصد وتدبير وإرادة خاصة في خلق هذا الإنسان، ولهذا وردت الرواية عن الإمام الصادق عليه السلام: «خلق الله آدم فبقي أربعين سنة مصوراً وكان يمر به إبليس اللعين فيقول: لأمر ما خُلقتَ!

ثمّ قال إبليس: لئن أمرني الله بالسجود لهذا لعصيته _ أي بدأت يومئذٍ عملية التنافس بين هذا المخلوق البشري وذاك المخلوق الجني وهو إبليس _ ثمّ نُفخ فيه فلما بلغت فيه الروح إلى دماغه عطس، فقال: الحمد لله، فقال له الله تبارك وتعالى: يرحمك الله».

قال الإمام الصادق عليه السلام: «فسبقت له من الله الرحمة، فأوّل كلمة تكلم بها هذا الجسد هي الحمد لله، فقال له الله: يرحمك الله.

ثمّ قال الله تعالى لملائكته: اسجدوا لآدم فسجدوا له، فأخرج إبليس ما كان في قلبه من الحسد فأبى أن يسجد.

---

(1) الإسراء: ٦١.

(2) الرحمن: ١ - ٤.

فقال له الله ﷻ: ﴿ما مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾؟
قال: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نا رٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾[1]».[2]

البحث الثاني: مكوّنات الإنسان:

الله سبحانه وتعالى خلق آدم من طين، لكن أنا وأنت وباقي البشر هل خلقهم الله من طين؟

القرآن يقول: ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنْسانِ مِنْ طِينٍ﴾،[3] هذا ينطبق على آدم فقط، لكن نحن غير مخلوقين من طين بل خُلقنا من نطفةٍ انتقلت من أصلاب الرجال إلى أرحام الأمهات، القرآن يقول: ﴿الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ واحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْها زَوْجَها وَبَثَّ مِنْهُما رِجالاً كَثِيراً وَنِساءً﴾،[4] هذا التناسل المليوني الذي وصل من خلاله تعداد السكان في العالم إلى ستة مليارات وكلهم عبارة عن تكاثر من أبوين وليس من طين، إذا كان الأمر كذلك وهو حقيقة معلومة إذن كيف نفسر الروايات التي تقول إن كل البشر خلقوا من طينة وأن بعض البشر طينتهم طيبة وبعضهم خبيثة، إذن هل هناك طينة ننتمي إليها؟ وما هو المقصود بهذه الطينة التي ننتمي إليها؟

روايات في مسألة الطينة:

أنا أقرأ لكم روايات في مسألة الطينة وهو عالم ما وراء المادة وهو غير قابل للإخضاع الفيزيقي المادي.

---

(1) الأعراف: ١٢.
(2) بحار الأنوار ١١: ١٤١.
(3) السجدة: ٧.
(4) النساء: ١.

عن أبي بصير عن الإمام الباقر عليه السلام قال: «إنّا وشيعتنا خُلقنا من طينةٍ من علّيين، وخُلق عدونا من طينةٍ خبالٍ _ خبيثةٍ _ من حمأ مسنون _ صخرية سبخة _».(1)

ما معنى قول الإمام: «أنا خلقنا نحن وشيعتنا من طينة، وعدونا خلق من طينةٍ أخرى»؟

لاحظوا أيها المؤمنون الطينة أو الطين في اللغة ليس بالمعنى الذي نفهمه اليوم الذي يعني خلط التراب والماء، لا.. فالطين في اللغة هو عبارة عن الجبلّة والمكوّن الأوّلي للشيء، وهو قد يكون عبارة عن تراب وماء أو حديد أو فسفور أو خشب أو حجر، هذه المكونات الأوّلية للشيء تسمى طينة الشيء، أي معدنه الأصلي، ولهذا يوجد في كتب اللغة عبارة (طانهُ الله)، أي خلقه الله من جبلّةٍ أو معدنٍ معين، إذن وحسب الفهم الديني البشر جميعاً ينتمون إلى نوعين من المكوّنات: مكونات طيّبة و مكونات خبيثة، حينئذٍ يأتي السؤال التالي: إذا كان الشيعة من طينةٍ من علّيين، إذن من أين تأتي المعاصي والفسق والفجور عند أهل الإيمان كالكذب والغيبة والسرقة؟

الروايات تحدّثنا في تفسير ذلك بأنه نتيجة الاختلاط بين الطينتين، أي أن الطينة الطيبة يمكن أن تتلوث كالماء الذي ينزل من السماء فهو طيب لكن من خلال مروره على الوديان سوف يأخذ معه الأوساخ والرمال والتراب والأشواك وما شاكل ذلك، الفهم الديني يقول المؤمنون خلقوا من طينةٍ طيبة لكن هذه الطينة الطيبة قد تختلط بطينةٍ

(1) أمالي الطوسي: ١٤٩.

خبيثة وبالتالي ترى هذا المؤمن يرتكب ما لا يليق بشأنه والذي اكتسبه من الطينة الخبيثة.

وفي هذا الصدد أيضاً أقرأ لكم رواية شريفة عن الإمام الصادق عليه السلام تقول: «لأنا وإياكم من نور الله عز وجل وطينتنا وطينتكم واحدة، ولو تُركت طينتكم كما أخذت لكنا وأنتم سواء، ولكن مُزجت طينكم بطينة أعدائكم، فلولا ذاك ما أذنبتم ذنباً أبداً».

يقول الراوي: قلت: جُعلت فداك فتعود طينتنا ونورنا كما بدأ.

ونحن يوم القيامة كيف سنُحشر؟ هل نُحشر على هذه الطينة الملوثة؟

الرواية تقول: قال عليه السلام: «إي والله يا عبد الله» يعني تعود طينتكم ونوركم كما بدأ فكل هذه الأوساخ تزول يوم القيامة. إلى أن يقول عليه السلام: «كذلك والله شيعتنا من نور الله خُلقوا وإليه يعودون والله أنكم لملحقون بنا يوم القيامة وإنا لَنشفَع فنُشفع ووالله أنكم لتُشفَّعون فتَشفعون وما من رجل منكم إلاّ وسترفع له نارٌ عن شماله وجنّةٌ عن يمينه فيُدخل أحباءه الجنّة وأعداءه النار».[1]

المشكلة الفلسفيّة في الثواب والعقاب:

المكوّنات الأولى يحدث بينها اختلاط، وهنا معضلة فلسفية يواجهها الفلاسفة وهي كيف نفسّر الثواب والعقاب؟ إذا كان المؤمن مخلوقاً من طينة طيّبة والكافر من طينة خبيثة فمن الطبيعي أن صاحب الطينة الخبيثة يتجه نحو الخبائث وصاحب الطينة الطيبة يتجه نحو الطيبات إذن فيمَ يُعذبهم الله تعالى، يعذب أولئك ويُثيب هؤلاء؟

---

(1) علل الشرايع: ٩٣.

إن صاحب الطينة الخبيثة قد يقول: إلهي ما هو ذنبي فأنت خلقتني من طينة سبخة؟ المؤمن أيضاً خلقه الله من طينةٍ طيبة فليس له فخر في ذلك يستحق به الجنّة.

هذا من أعقد المعضلات الفلسفية في تفسير الثواب والعقاب.

وهناك نظريتان للجواب على هذه المعضلة الفلسفية:

النظرية الأولى: حرّية الإرادة.

النظرية الثانية: نظرية الاستحقاق الطبيعي.

أنا لا أستطيع أن أشرح لكم هذا البحث المعقد والصعب لكن أكتفي بعرض موجز.

النظرية الأولى: وجود الإرادة:

تقول هذه النظرية إن الإنسان المؤمن رغم أنه خُلِق من طينة طيبة والإنسان الفاجر الكافر خُلق من طينةٍ خبيثة لكن كلاهما يتمتع بإرادة واختيار، فيستطيع صاحب الطينة الطيبة أن يلوّث طينته، ويستطيع صاحب الطينة الخبيثة أن يطهّر طينته، إذن الإرادة موجودة وطالما كانت الإرادة والقدرة على التصرف موجودة إذن يصحّ الثواب ويصح العقاب.

النظرية الثانية: الاستحقاق الطبيعي:

الاستحقاق الطبيعي، يعني أن الوردة تولّد وردة والشوكة تولّد شوكة، واستحقاق الشوكة أن تكون في الصحراء وتحت الشمس وفي العراء وبلا ماء، واستحقاق الوردة أن تكون في خضرةٍ وماءٍ ونسيم، فالشوكة إذا أردتها أن تعيش في أجواء الماء والخضرة فهي سوف تموت وتفقد شوكيتها، فاستحقاق الشوكة الطبيعي والتكويني هو أن

تعيش في صحراء وجفاف، واستحقاق الوردة أن تعيش في الماء والخضرة وما شاكل ذلك، حينئذٍ فإن وضع الشوكة في الصحراء ليس عقوبة لها وعدوان عليها ولا وضع الوردة في البستان هو عدوان عليها أو خارج استحقاقها الطبيعي.

الله تبارك وتعالى خَلَق الناس: قسماً على شكل ورد والقسم الآخر على شكل شوك، فالشوك لا بدّ أن يذهب إلى صحاري جهنم والوردة لابدّ أن تذهب إلى بساتين الجنّة فهذا استحقاق طبيعي ينسجم مع العدالة الإلهية.

ولا يستطيع أحد أن يعترض على الله تبارك وتعالى ويقول: إلهي لماذا أنت تخلق العقرب مثلاً في الصحاري الحارة تحت الأرض، أو تخلق بعض المخلوقات في الظلمات؟ ما هو ذنبها؟

استحقاق العقرب أن تعيش في أرض جافةٍ أو تحت الأرض أو في ظلمات، لأنها لا تستطيع أن تعيش في أماكن رطبة لطيفة جيدة فهي تكوينياً تنسجم مع ذلك العالم فهذا ليس عدواناً من الله تبارك وتعالى، كما أن السمك المخلوق في الماء استحقاقه الطبيعي أن يعيش في الماء، أخرج السمك من الماء ودعه في الصحراء فسوف يموت، هكذا الإنسان استحقاقه الطبيعي أن يعيش في البر وليس في الماء، انقله من استحقاقه الطبيعي إلى الماء فسوف يموت، الاستحقاق الطبيعي لأهل المعاصي هو العذاب لأنهم خُلقوا كالشوكة التي خُلقت للصحراء واستحقاق المؤمنين الطبيعي هو الجنّة لأنهم خلقوا كالوردة.

هذا في الحقيقة هو التفسير الفلسفي الثاني للعقاب والثواب.

هذه رؤية الإسلام عن المكونات «وإن أرواحكم ونوركم وطينتكم واحدة طابت وطهرت» ليسوا فقط هم عليهم السلام وإنما هم وشيعتهم

خُلقوا من طينةٍ واحدةٍ طابت وطهرت من علّيين وهذا التلوث الذي نراه بالمعاصي الصادرة من المؤمنين جاء من الطينة الأخرى.

وبشكل موجز الإسلام يعتقد أن البعد المعنوي يؤثر على البعد المادي، مثلما الأم التي تتغذى جيداً فالمولود يولد معافى وقوي البنية ذلك هو نتيجة المؤثرات المادية، الإسلام يقول: هناك مؤثرات معنوية أيضاً، يعني هذه الطينة الطيبة منها والخبيثة هي قابلة للتأثرات المعنوية، اليوم العلم الحديث لا يستطيع أن يكتشف هذا الأمر فهو من الغيب، ولهذا في الآداب الإسلاميّة نجد أن عملية الأكل التي هي ممارسة حيوانية يحاول الإسلام أن يحولها إلى ممارسة إنسانية، العمل الجنسي هو عمل حيواني لكن الإسلام يحاول أن يلبسه ثوباً إنسانياً ويحوله من عمل حيواني إلى عمل إنساني.

مستحبات الممارسة الجنسيّة:

أذكر لكم اليوم بعض المستحبات في الممارسة الجنسية.

يستحب أن تبدأ ببسم الله الرحمن الرحيم، وبهذا يتحول العمل من عمل حيواني إلى عمل ذي قيمة معنوية وارتباط بالله سبحانه وتعالى والذي يؤثر على طينة المولود.

ثانياً: الاستعاذة من الشيطان الرجيم.

ثالثاً: الطهارة، أي أن تكون على وضوء، وبهذا يتحول العمل إلى عبادة مثل الصلاة التي تحتاج إلى وضوء.

رابعاً: يُكره استقبال القبلة أو استدبارها؛ لأن هذا عمل ما يزال فيه بُعد حيواني فلتحفظ للقبلة حرمتها.

وهكـذا الرضـاعة فـالمرأة عنـدما ترضـع ابنهـا يقـول الإسـلام: إن هـذه التغذيـة ليـست فقـط ذات لـون مـادي بـل يُـستحب لـلأم أن تكـون علـى وضوء حين الرضاعة، لأن ذلك يؤثر في طبيعة المولود من ناحية معنوية.

وهكذا قراءة القرآن بالنسبة للأم الحامل فإن له بُعد معنوي ويصب شعاعه على هذه المكونات المادية، هذا الشيء طبعاً غير مفهوم لدى العلم الحديث، فما معنى أن يكون لقراءة القرآن علاقة بكون الطفل مباركاً ونورانياً وصالحاً وزكياً، فالإسلام يقول إن هناك ترابط بين البعد المعنوي وبين البعد المادي.

البحث الثالث: كيفية التناسل البشري:

آدم وحـواءُ ولـد لهـم أولاد وبعـض الروايـات تقـول: إن حـواء ولـدت لآدم خمـسمائة بطـن ولا بـدّ أن يكـون ذلـك خـلال خمـسمائة عـام أو ألـف عـام، وعلـى كـل حـال فـإن هنـاك سـؤال تـاريخي علمـي وهـو إن هـؤلاء المواليد كيف تكاثروا؟ أي إن الجيل الثاني كيف تكوّن؟

هناك ثلاث نظريات:

النظريـة الأولـى: تقـول: إن الأخـوة والأخـوات تـزوج بعـضهم مـن الـبعض الآخـر، ويومئـذٍ لـم يكـن هنـاك حرمـة للـزواج بـين الأخ والأخـت، هذه فرضية طبيعية.

النظريـة الثانيـة: تقـول: إن الله سـبحانه وتعـالى أهـبط لـلأولاد الـذكور حـور العين مـن الجنّـة فتزوجـوا منهـا وولـد الجيـل الثـاني وبعـد ذلـك أصبحت القضية سهلة حيث وجد أولاد العم وبنات العم.

النظريـــة الثالثـــة: تقـــول: إن الله تبـــارك وتعـــالى زوّجهـــم مـــن الجـــن وتكاثروا.

بعض المحققين من علمائنا يقولون: إن النظرية الأولى هي المقبولة والصحيحة، يعني في بداية المجتمع كان التشريع الديني لا يحرم الزواج بين الأخ وأخته، فمثلاً العلامة الطباطبائي في كتابه (الميزان) لا يرى ثمة مشكلة في ذلك فالحرمة الشرعية جاءت متأخرة.

* * *

ذكرى ميلاد السيد المسيح عليه السلام:

القرآن يقول: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرابٍ﴾،[١] **يعني كما أن خلق آدم هو خلق مباشر من التراب وبدون مقدمات سابقة من أنواع بشرية أخرى كذلك عيسى ليس له أب، ولكنه صنع مباشر من قبل الله تبارك وتعالى.**

نحن هذه الأيام نعيش ذكرى ميلاد السيد المسيح عليه السلام.

القرآن الكريم يعطي لعيسى بن مريم عليه السلام صفات رائعة: ﴿زَكِيًّا﴾، ﴿نَبِيًّا﴾، ﴿بَرًّا بِوالِدَتِي﴾، ﴿قالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتانِيَ الْكِتابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا * وَجَعَلَنِي مُبارَكاً أَيْنَ ما كُنْتُ وَأَوْصانِي بِالصَّلاةِ وَالزَّكاةِ ما دُمْتُ حَيًّا * وَبَرًّا بِوالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّاراً شَقِيًّا﴾،[٢] **لاحظوا رؤية الإسلام الرائعة البيضاء عن هذا الإنسان الصالح وهو عيسى بن مريم عليه السلام كان إنساناً زكياً وطاهراً نقياً، هكذا يتحدّث في قصة مريم:** ﴿فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجاباً فَأَرْسَلْنا إِلَيْها رُوحَنا فَتَمَثَّلَ لَها بَشَراً سَوِيًّا * قالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمنِ مِنْكَ إِنْ

---

(1) آل عمران: ٥٩.

(2) مريم: ٣٠ - ٣٢.

كُنْتَ تَقِيًّا * قالَ إِنَّما أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلاماً زَكِيًّا﴾،[1] **ويستمر القرآن الكريم بالحديث فيقول:** ﴿وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُساقِطْ عَلَيْكِ رُطَباً جَنِيًّا * فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْناً﴾،[2] **وبعد أن استوحشت** ﴿قالَتْ يا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هذا وَكُنْتُ نَسْياً مَنْسِيًّا * فَناداها مِنْ تَحْتِها أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾،[3] **إلى أن يقول:** ﴿فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَها تَحْمِلُهُ قالُوا يا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئاً فَرِيًّا * يا أُخْتَ هارُونَ ما كانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَما كانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا * فَأَشارَتْ إِلَيْهِ قالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا * قالَ إِنِّي عَبْدُ اللهِ آتانِيَ الْكِتابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا * وَجَعَلَنِي مُبارَكاً أَيْنَ ما كُنْتُ وَأَوْصانِي بِالصَّلاةِ وَالزَّكاةِ ما دُمْتُ حَيًّا * وَبَرًّا بِوالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّاراً شَقِيًّا * وَالسَّلامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا * ذلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾،[4] **هذه رؤية الإسلام النقية عن عيسى بن مريم** عليه السلام.

اليوم من دواعي الأسف أن نجد هذا الإنسان الصالح الزكي الطاهر النقي قد أساءت أمّته إليه وتعاملت مع تشريعه ومع كتابه بألوان التحريف والتسقيط والإهمال. الله تبارك وتعالى أعطاه كتاباً لإصلاح البشر، لكن هذه الأمّة تحولت مع الأسف خاصة العلماء منهم فقد تحولوا إلى وعاظ سلاطين.

الفرق كبير بين فقهاء الإسلام وبين فقهاء النصارى، فقهاء النصارى في الحقيقة حمالة حطب فكلما تقوله الحضارة الحديثة فهم

---

(1) مريم: ١٧ - ١٩.

(2) مريم: ٢٥ و٢٦.

(3) مريم: ٢٣ و٢٤.

(4) مريم: ٢٧ - ٣٤.

يقولون لبيك، بينما فقهاء الإسلام هم أصحاب الأصالة والثبات، والمدنية الحديثة يجب أن تأخذ التوجيه الصحيح منهم وليس العكس، فمثلاً المدرسة النصرانية في مئات السنين اعتبرت العزوبية والابتعاد عن الزواج عنصر تكامل، ولهذا يوجد هناك رهبان بدون زواج وراهبات أيضاً لأنهم يعتبرون المقاربة الجنسية هي تلوث في الطبيعة بينما الإسلام يقول إن الزواج نقطة تكامل، والأعجب من ذلك أنهم لما أغلقوا على البشرية باب التكامل عبر هذه العلاقات الإنسانية الاجتماعية وإذا نراهم اليوم تحولوا تماماً إلى عكس ذلك، فاليوم في الكنيسة يعقدون عقداً شرعياً للزواج المثلي، ونجد أن هذا القس الذي ينسب نفسه إلى عيسى بن مريم عليه السلام ذلك الإنسان الزكي الصالح وبفعل ضغط المدنية الحديثة يقول ليست هناك مشكلة، فالكنيسة تحولت إلى مركز لتشريع الشذوذ الجنسي وإجراء عقد رسمي بين مثليين في ايرلندا الشمالية، والآن ونحن على أبواب عام (٢٠٠٦م) هناك (٧٠٠) مثليّ يعني رجل ورجل، وامرأة وامرأة سوف يشتركون في إجراء عقد رسمي يسمونه عقد الشراكة ويعتبرون هذا قمة التحرر، وأن الإنسان من اليوم فصاعداً يعيش المساواة المطلقة، المشكلة ليست في المدنية الحديثة، لكن المشكلة في الكنيسة التي تزعم أنها تتبع ذلك الإنسان الطاهر عيسى بن مريم عليه السلام والتي تحولت إلى دائرة وظيفية عند الحكومة، ولأنهم ما زالوا يشعرون بالحرج لاعتبار أن هذا العمل غير طبيعي وغير صحيح جعلوا يجملون هذا العمل، فقد نشر الفاتيكان وثيقة تؤكد (حظر عمل المثليّين بصفة قساوسة في الكنيسة الكاثوليكية على رغم احترام الكنيسة العميق

للأفراد المعنيين بهذه المسألة)، (وأوضحت الوثيقة أن الكنيسة يمكن أن تقبل ذوي نزعات الشذوذ الجنسي العابر بعد ثلاث سنوات من إقلاعهم عن هذا العمل). باعتبار أن الكنيسة تحترم هؤلاء الأفراد في حال أثبتوا تغلبهم على المشكلة قبل ثلاث سنوات)، جاء ذلك رداً على سلسلة فضائح جنسية تورط بها قساوسة كاثوليك في أمريكا ودول أخرى.

تفسير عالم الأنوار:

نختم حديثنا بالعودة إلى النص: «وإن أرواحكم وأنواركم وطينتكم واحدة طابت وطهرت» أنا أنقلكم إلى بحث آخر حول النور في كلمة «أنواركم» فهناك تفسيران:

التفسير الأوّل: التفسير المعنوي:

ليس المقصود بالنور هو ضوء المصباح بل هو النور المعنوي فالإسلام نور والقرآن نور ﴿لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾،[1] ﴿وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ﴾،[2] القرآن يقول إن الدين الإسلامي عبارة عن نور تمشون به، فالمقصود بالنور ليس الضياء المادي وإنما هو نور معنوي.

التفسير الثاني: نحن إلى جانب إيماننا بالنور المعنوي لكن الإيمان يعطي مسحة من النور المادي أيضاً على الإنسان المؤمن، ولهذا رسول الله ﷺ يقول: «أوّل ما خلق الله نوري ثمّ نور عليّ وفاطمة ثمّ اشتق منهما نور الحسن والحسين»،[3] فهذا النور ذو طبيعة معنوية لكنها

---

(1) الأحزاب: ٤٣.

(2) الحديد: ٢٨.

(3) بحار الأنوار ١: ٩٧.

تنعكس على البعد المادي.

في الرواية لما دخل رسول الله ﷺ على الزهراء عليها السلام وهي حامل بالحسين عليه السلام قال: «إني أرى في جبينك نوراً» ثمّ بشرها بأنها تحمل حجة الله.

الزهراء عليها السلام تقول: «كنت أيام حملي بالحسين أستغني عن المصباح في الليلة الظلماء»، هذا طبعاً يحتاج إلى وقفة طويلة.

لكن حينما ننتقل إلى كربلاء نجد أن نظرية نور الحسين عليه السلام ونور أهل البيت عليهم السلام تتجلى، فحينما كان الحسين عليه السلام صريعاً على رمضاء كربلاء يقول الراوي: إنه حينما وقف ينظر إلى الحسين مضمخاً بالدماء: ولقد شغلني نور وجهه عن الفكرة في قتله، وهو في ذلك ينادي: «يا قوم أسقوني جرعةً من الماء، لقد تفتت كبدي من الظمأ».

إنا لله وإنا إليه راجعون

* * *

المحاضرة الثانية والخمسون:

بحث في

عالم الروح والنور

«خَلَقَكُـــمُ اللَّـــهُ أَنْـــوَارا فَجَعَلَكُـــمْ بِعَرْشِـــهِ مُحْدِقِينَ».

بسم الله الرحمن الرحيم

اليوم حديثنا عن محورين:

المحور الأوّل: روح الإنسان.

المحور الثاني: العرش الإلهي.

حول هذا المقطع من الزيارة «خلقكم الله أنواراً فجعلكم بعرشه محدقين»، هناك عرش الله وهناك أنوار الأنبياء والأئمّة الأطهار عليهم السلام وأرواحهم التي تكون محيطة بالعرش.

نحتاج حول هذا الموضوع إلى بحث ما هي الأرواح؟

وكيف تكون أرواح وأنوار أهل البيت محيطة بالعرش؟

وما هو العرش؟ هذه من المباحث العقائدية المهمة والفلسفية، نحن نتناولها باختصار وإيجاز.

المحور الأوّل: روح الإنسان:

أهل البيت عليهم السلام هم باعتبارهم بشراً يتمتعون بروح إنسانية، هذه الروح الإنسانية ما هي حتّى تكون قادرة على الإحاطة بعرش الله تبارك وتعالى؟

كما تعلمون أن الروح هي حقيقة معلومة الآثار مجهولة المكوّنات، إن كل الناس يدركون بالوجدان وبالممارسة أن لديهم روحاً، الروح هي التي يقوم ويقعد بها الإنسان وبها يمشي ويتقدم

ويستيقظ، أي أن حركة الحياة اليومية إنما هي عبر روح تؤثر وتحرك هذا البدن، وهذا الأمر كما يصح لدى الإنسان يصح لدى الحيوان ويصح بمستوى من المستويات لدى النباتات ولهذا هناك فرق بين كائنات لها روح وكائنات ليس لها روح، الروح حقيقة معلومة الآثار لكن من يستطيع منكم أن يقول ما هي الروح؟

ولهذا القرآن الكريم يقول: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾،[1] فهي سر من أسرار الله تبارك وتعالى ومهما يكن الأمر فإن هناك نظريتين في الروح:

نظريات في حقيقة الروح:

النظرية الأولى: هي النظرية المادية.

والنظرية الثانية: هي النظرية الدينية.

النظرية المادية: تقول هذه النظرية إن الروح هي عبارة عن تطور في المادة وهذا التطور يكون له آثار دون أن يكون هناك وجود جديد اسمه الروح.

إذن هذه النظرية تقول إن الروح هي عبارة عن امتداد للمادة وليس وجوداً آخر، فإذا انتهت المادة انتهت الروح، هذا حسب هذه النظرية التي تتنكر لكل شيء عدا المادة.

النظرية الدينية: تقول إن الروح هي عبارة عن حقيقة أخرى ونوع آخر من الوجود غير الوجود المادي حتّى وإن كان هذا النوع الآخر ناتجاً بفعل المادة، ومن خلال عمليات تطوريّة فيها، لكن هناك تحول في نمط الوجود وليس تطوراً في المادة.

---

(1) الإسراء: ٨٥.

أي: أن الروح عبارة عن وجود مجرّد لا مادي. وحسب ما يسميه الفلاسفة (تجرد الروح)، أي: أن الروح وجود غير مادي وغير ملموس باليد.

الدليل على لا مادية الروح:

ما هو الدليل على تجرد الروح؟ لأن الدين يقول بأن هذه الروح ستبقى بعد موت البدن.

البدن هو بمثابة محرك للروح لكن في مرحلة من المراحل وحينما تتكامل الروح، تكون قادرة على أن تتحرك بنفسها بعيداً عن هذا البدن.

الروح هي عبارة عن مركبة قادرة على أن تتحرك ذاتياً في مرحلة من مراحل تكاملها وبدون محركات مادية، ولكنها طالما هي ملتصقة بهذه المحركات المادية فهي تتحرك من خلال هذه المحركات لكن في مرحلة من المراحل تنفصل عن هذه المحركات وتكون قادرة على أن تتحرك بدونها.

الفلاسفة يسمون الروح حسب هذه النظرية بأنها مادية النشأة ولكنها مجردة البقاء، تنشأ مع البدن ولكن بعدئذٍ تكون هذه الروح قادرة على الاستقلال.

لو سألوكم ما هو الدليل على هذه النظرية (نظرية تجرد الأرواح)؟ وهذا نذكره بشكل مبسط جداً، يمكن أن يستدل على ذلك بعدة شواهد هي في الحقيقة شواهد وليست أدلة:

الشاهد الأوّل: هو الإحساس الوجداني، إن الوجدان الإنساني أو الإحساس الذاتي يعرّف الإنسان أن لديه روحاً هي غير القلب والرئة والعين والأذن واليد والرجل، وهي التي تتألم وتفرح وتحزن وربما يكون البدن في أفضل النعيم ولكن القلب مهموم مغموم، لاحظوا إن

البدن لا يتألم لكن الروح حينما تكون متألمة لا تسعد بسعادة هذا البدن، هناك إحساس وجداني بوجود روح تغمر هذا البدن إن هذا الدليل نسميه دليل الإحساس الوجداني.

الشاهد الثاني: على مستوى الشاهد هو المنامات، الله تبارك وتعالى فتح نافذة للإنسان تؤكد له أن هناك عالماً آخر وراء هذه المادة، فبدنه نائم ولكن روحه تتحرك في كثير من الرؤى والمنامات، مما يدلل للإنسان أن الروح مجردة وأنه يمكن لها أن تطير وتعيش في فضاءات واسعة والبدن لا يتحرك.

الشاهد الثالث: وهو المهم، هو التأكيد الديني، نحن نجد أن الدين الذي آمنا به، وكل الأديان السماوية التي تؤكد على أن الروح لها بقاء بعد الموت، لو لم تكن الأديان تؤكد أن الروح لها بقاء بعد الموت فقد يناقش الإنسان في كل الأدلة الفلسفية، لكن نحن أمامنا تأكيدات دينية تقول إن الروح باقية بعد الموت: ﴿يا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلى رَبِّكِ راضِيَةً مَرْضِيَّةً﴾،(1) ﴿ثُمَّ إِلَيْنا تُرْجَعُونَ﴾.(2)

نحن حينما نؤمن بالدين ورسالة الوحي الإلهي فسوف نقبل من هذا الدين رؤيته عن الروح، القائلة إن الإنسان مركب من مادة ومن روح ﴿فَإِذا سَوَّيْتُهُ﴾ _ مرحلة المادة _ ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾(3) _ مرحلة الروح _ وهذا الالتصاق والازدواج بين المادة والنفخة يولد لنا حركة الروح. الأديان والنص الديني ترسخ فينا عقيدة تجرد الروح وبقاء الروح بعد البدن.

---

(1) الفجر: ٢٧ و٢٨.
(2) العنكبوت: ٥٧.
(3) الحجر: ٢٩.

الشاهد الرابع: الشواهد التاريخية: القرآن الكريم يذكر شواهد تاريخية تولّد عندنا اليقين ببقاء الإنسان بعد الموت، وعلى أن الإنسان يمتلك روحاً وهذه الروح قادرة على أن تبقى بعد الموت.

في سورة البقرة فقط وفي خلال عشر آيات جاءت ثلاثة شواهد قرآنية من التاريخ يستعرضها القرآن الكريم هي: قصة حزقيل وقصة دانيال وقصة إبراهيم الخليل من آية (٢٤٣) إلى آية (٢٦٠)، كل هذا باتجاه إثبات عالم الروح. بنو إسرائيل أصابتهم هزّة مادية ويبدو أن موجة مادية عصفت ببني إسرائيل جعلتهم شكاكين فجعلوا يشكون بكل شيء فهم مؤمنون بالله لكن يقولون: ﴿أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً﴾،[١] ﴿أَنزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ﴾،[٢] **يبدو أن هناك موجة مادية أصابتهم جعلتهم شكاكين ويريدون أن يروا كل شيء بأعينهم، وصلوا إلى عالم الروح وبدأوا يشككون به** ﴿مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾[٣] **وهذه لغة الشك وقد حاول الأنبياء أن يعالجوها من خلال إعجاز إلهي يبرهن لهم وجود الروح، لكي يتولد لديهم يقين من خلال ممارسة تجريبية بالخارج. وهنا تأتي قصة دانيال وقصة حزقيل وقصة إبراهيم** عليه السلام.

تجارب الأنبياء عليهم السلام:

أوحى الله تبارك وتعالى إلى إبراهيم عليه السلام **حينما تساءل:** ﴿أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى﴾، **فقال له:** ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾،[٤] **ولكي يكون قادراً على**

(1) النساء: ١٥٣.
(2) المائدة: ١١٤.
(3) يس: ٧٨.
(4) البقرة: ٢٦٠.

مواجهة الموجة المادية وضغوط الناس. كذلك موسى عليه السلام لما أراد بنو إسرائيل منه مائدة قال: رب أنزل مائدة لهم وذلك لكي يتخلص من ضغوطهم، ولا بدّ من إقامة الحجة عليهم والتعامل معهم بمستوى تفكيرهم، فاستجاب الله تعالى لموسى عليه السلام وأنزل مائدةً من السماء. وإبراهيم عليه السلام كذلك قال له الله تبارك وتعالى: ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾.

قال الله تعالى: ﴿فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءاً ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْياً﴾.(1)

الرواية تقول: إن إبراهيم عليه السلام جمع أربعة طيور وهي الديك والحمام والغراب والبط وفي رواية النسر، يريد أن يثبت بالتجربة للناس أن الله تبارك وتعالى، كيف يعيد الحياة؟ وكيف أن هناك بدن وهناك روح؟ فقطّع هذه الطيور الأربعة جزءاً جزءاً ثمّ وضع على كل قمة جبل خليطاً من هذه الأجزاء ووضع منقار كل طير بيده ثمّ وضع أمامه ماءاً وحنطة وشعيراً فدعاهن أيها الطيور الأربعة أيها الديك أيها الحمام أيها الغراب أيها البط تعالوا، فأصبح إبراهيم عليه السلام يشاهد كيف أن العظام واللحوم والأوردة يطير بعضها إلى بعض من هذا الجبل إلى ذاك الجبل وتراكمت بعملية سريعة ووقفت أمامه أربعة طيور وكل طير جاء إلى منقاره بيد إبراهيم عليه السلام وأخذه ولم يشتبهوا، أي لم يأخذ أحد الطيور منقار طير آخر، ثمّ أطلقهن إبراهيم عليه السلام وإذا بهن يأكلن الحنطة والشعير، ويشربن الماء الذي أمامه فقال: أعلم أن الله على كل شيء قدير.

يسأل الإنسان أنه لماذا القرآن الكريم في آيات متلاحقة يقدم لنا تجارب على الأرض لكي نواجه الموجة المادية التي أصابت الإنسان؟

---

(1) المصدر السابق.

وهكذا في الآية (٢٤٣) من سورة البقرة: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْياهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ﴾، هذه في قصة تقول إن أمّة من الأمم كان يصيبهم الطاعون بين سنة أو اثنتين أو ثلاث فكان الأغنياء إذا بدت معالم الطاعون يهربون إلى مدينة أخرى وهناك يؤثثون بيوتاً لهم، ويبقى في هذه المدينة الفقراء الذين لا مأوى لهم فينزل بهم الطاعون، وحينما ينتهي الطاعون يعود الأغنياء ويقولون لو كنا بقينا لكنا نموت مثل هؤلاء، وفي سنة أخرى بدت معالم الطاعون وهذه المرة خرجوا عن بكرة أبيهم فقراء وأغنياء فراراً من الموت وهم يتصورون أن الموت لا يلاحقهم. فقال لهم الله تبارك وتعالى بكلمة واحدة: ﴿مُوتُوا﴾، فماتوا كلهم فمرَّ عليهم حزقيل كما تقول الرواية[1] وهو نبي من الأنبياء فرأى أمّة متراكمة ميتة فقال: إلهي لو أعدت الحياة لهؤلاء فعبدوك وصلّوا لك وصاموا! قال الله تعالى: تريدني أن أعيد لهم الحياة قال: نعم قال: أنا قد أجبتك فعلّمه كلمات فتكلّم بهن، وحسب ما تقول الرواية: أنه تكلم بالاسم الأعظم، فإذا هم كلهم أحياء ﴿فَقالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْياهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾[2] هذه تجربة ثانية، تجربة أن الروح منفصلة عن المادة فالمادة انتهت وتلاشت لكن بقيت الروح ثمّ عادت.

أيضاً قصة نبي الله دانيال أو إريميا وهي قصة شبيهة بهذه القصص ومثل ذلك أيضاً قصة رابعة هي قصة عُزير. القرآن يريد أن يقول أيها

---

(1) الكافي ٨: ١٩٩.

(2) البقرة: ٢٤٣.

الإنسان أُقدّم لك تجارب بشرية تؤكد أن الروح قادرة على أن تبقى بعد الموت وقادرة على أن تعود بعد الموت لهذا البدن أو لبدنٍ آخر، هذه مجموعة قصص يستعرضها القرآن الكريم لمواجهة الشكوك المادية.

الروح قبل المادة أو بعدها:

وهنا يأتي بحث أن هذه الروح المجردة عن المادة خلقت بعد المادة أو هي مخلوقة قبل المادة؟

هناك نظريتان:

الأولى تقول: إن الروح تولد بعد المادة، فيُخلق الإنسان أوّلاً من نطفة ميتة ثمّ علقة ثمّ مضغة إلى أن تصير الروح، كما هو ثابت بالتجربة المادية.

وهناك نظرية أخرى تقول: إن الأرواح كانت مخلوقة قبل الأبدان لكن التصاق الأرواح ونزولها من عالم الأرواح إلى عالم الأبدان، فهو مرحلة متأخرة ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾،[1] أي: أن الروح موجودة قبل البدن وهذا ما يسمونه الروح الكلي، الروح موجودة حينما يكون البدن مُركباً تركيباً جيداً تهبط إليه الروح، الأرواح مخلوقة قبل الأبدان بآلاف السنين كما في رواية.

في الحقيقة هذه النظرية، نظرية خلق الأرواح قبل الأبدان، ثمّ هبوط الأرواح على الأبدان، وبالتالي تبدأ هذه الروح تنمو بنمو البدن وتتلون بلون البدن وتخضع لترتيبات البدن وتربية البدن مثله مثال الطاقة الكهربائية التي تتلون بلون، فالروح التي تنفذ في بدن الإنسان مثل زيد وعمر فهذه الروح سوف تتشكل بتشكل هذا البدن وتتأثر به وهكذا

(1) الحجر: ٢٩.

سوف يكون هناك إنسان خير، وإنسان شرير وهذا حسب التركيبة التي يخضع لها هذا البدن.

على هذا الأساس ووفقاً لهذه النظرية تقول الروايات إن أرواح الأئمّة الأطهار هي كائنات وحقائق مخلوقة قبل الأبدان.

قال رسول الله ﷺ: «خلقني الله نوراً تحت العرش قبل أن يخلق آدم باثني عشر ألف سنة، فلما أن خلق الله آدم ألقى النور في صلب آدم فأقبل ينتقل ذلك النور من صلبٍ إلى صلب حتّى افترقنا في صلب عبد الله بن عبد المطلب وأبي طالب، فخلقني ربي من ذلك النور لكنه لا نبي بعدي».[١]

وفي رواية ثانية: «إن الله خلقني وخلق عليّاً وفاطمة والحسن والحسين قبل أن يخلق آدم عليه السلام».[٢]

أرواح النبي والأئمّة الأطهار عليهم السلام كانت حين لا سماء مبنية ولا أرض مدحيّة، ولا ظلمة ولا نور، ولا شمس ولا قمر، ولا جنّة ولا نار، وهكذا إن محمّداً وعليّاً عليهما السلام كانا نوراً بين يدي الله جلاله قبل خلق الخلق بألفي عام، وأن الملائكة[٣] لما رأت ذلك النور رأت له أصلاً وقد انشعب منه شعاع لامع فقالت: إلهنا وسيدنا ما هذا النور فأوحى الله عزّ وجلّ إليهم هذا نور من نوري أصله نبوة وفرعه إمامة، فأما النبوة فلمحمّدٍ عبدي ورسولي وأما الإمامة فلعليّ حجتي ووليي ولولاهما ما خلقت خلقي.

هذه هي نظرية أن أرواح الكاملين وهم الأنبياء والأئمّة الأطهار عليهم السلام، مخلوقة قبل عالم الدنيا.

---

(1) بحار الأنوار ١٥: ٧.
(2) بحار الأنوار ٣٦: ٣٠٢.
(3) ينابيع المعاجز: ٩٣.

عرش الله:

الفقـرة الثانيـة: «خلقكـم الله أنـواراً فجعلكـم بعرشـه محـدقين»،[١] أي: تطوفون حول العرش، ما هو عرش الله؟

القرآن الكريم يتحدث عن العرش قائلاً: ﴿الرَّحْمنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوى﴾،[٢] **وآيات كثيرة في القرآن تتحدّث عن العرش، في الحقيقة هناك مجموعة عناوين يذكرها القرآن الكريم مثل عرش وكرسي ولوح وقلم وسماوات، هذه مفاهيم مذكورة في القرآن الكريم لكن ما هو معناها؟**

مثلاً: ﴿ن وَالْقَلَمِ وَما يَسْطُرُونَ﴾،[٣] **ما هو قلم الله تبارك وتعالى؟**

العرش في الآية: ﴿الرَّحْمنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوى﴾، ﴿وَكانَ عَرْشُهُ عَلَى الْماءِ﴾،[٤] **ولفظ الكرسي** ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّماواتِ وَالأَرْضَ﴾،[٥] **واللوح** ﴿فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ﴾،[٦] **هذه مجموعة مفاهيم وهكذا مفهوم الكلمة في قوله عن عيسى:** ﴿وَكَلِمَتُهُ أَلْقاها إِلى مَرْيَمَ﴾، **كلمة الله ما هي؟ في القرآن الكريم** ﴿وَلَوْ أَنَّ ما فِي الأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ ما نَفِدَتْ كَلِماتُ اللَّهِ﴾،[٧] **من جملة هذه العناوين التي نبحث عن معناها هي كلمة العرش.**

وما هو المقصود بالعرش؟

---

(1) بحار الأنوار ٩٩: ١٣٠.
(2) طه: ٥.
(3) القلم: ١.
(4) هود: ٧.
(5) البقرة: ٢٥٥.
(6) البروج: ٢٢.
(7) لقمان: ٢٧.

هناك عدة تفاسير:

التفسير الأوّل: إن هذه الكلمات عرش وكرسي ولوح وما شاكل ذلك هي عبارة عن كنايات لا واقع لها وهي عبارة عن رموز، مثلاً: حينما يكون الشخص ملكاً يقال جلس على عرش الملك، وهو قد لا يكون لديه عرش مادي لكن هذا كناية حينما يتم انتخابه ويصبح ملكاً، يقال له: أنت جلست على عرش الملك. ونقول مثلاً: كرسي الأستاذ فالأستاذ قد لا يكون لديه كرسي في الجامعة، الآن مثلاً نقول توزيع الحقائب الوزارية، فهل هذا يعني إن كل وزارة هي عبارة عن حقيبة؟ هذه في الحقيقة كنايات دون أن يكون لها واقع خارجي.

العرش كذلك لا وجود له، والكرسي أيضاً لا وجود له واللوح كذلك لا وجود له، إنما هي رموز تتحدّث عن القدرة الإلهية. فالقرآن الكريم حينما يقول: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾،[1] هذا في الحقيقة تمثيل أو يقول: ﴿وَالسَّماوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾،[2] ليس بالضرورة أن يكون لله تعالى يد والسماوات ملتفة وموضوعة في هذه اليد، هذه رموز للدلالة على معنى القدرة والعظمة والملك دون أن يكون لها معنى آخر.

التفسير الثاني: هو التفسير الحرفي السطحي، القرآن يقول: (عرش) إذن لا بدّ أن يكون العرش موجوداً والقرآن يقول: (كرسي) و(لوح) إذن لابدّ أن يكون لله كرسي ولوح، وحسب هذا التفسير هناك عرش لكن هو أكبر من عرش الملوك، وهناك كرسي لكنه أكبر من كرسي

(1) الأنبياء: ١٠٤.

(2) الزمر: ٦٧.

الملوك، وهناك قلم لكنه قلم عظيم، هذا الفهم سطحي لا يقبله القرآن الكريم ولا النظرية الإسلاميّة، الله تبارك وتعالى فوق هذه الأمور المادية والسطحية.

التفسير الثالث: إن هذه الأمور لها حقائق وليست مجرد كنايات، لكن نحن لا ندرك تلك الحقائق، هذه حقائق غير مكشوفة لنا كما أن حقيقة الروح غير مكشوفة لنا.

المفكرون الإسلاميّون حاولوا أن يكتشفوا من روايات أهل البيت عليهم السلام ما هو المقصود بالعرش؟

هناك تفسير يقول: العرش عبارة عن العلم الإلهي، وتفسير يقول: إن العرش عبارة عن القدرة الإلهية، وتفسير يقول _ وهذا ما يميل له العلامة الطباطبائي في الميزان _: إن العرش عبارة عن الوجود المنبسط في هياكل الكائنات، هذا الوجود الموجود عندنا، لولا هذا الوجود فأنت غير موجود.

صفات العرش:

النقطة المهمة أن القرآن الكريم أعطانا مجموعة صفات لهذا العرش.

حيث يقول: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ﴾.[١]

وفي آية أخرى يقول: ﴿وَتَرَى الْمَلائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ﴾،[٢] إذن هناك وجود حقيقي للعرش وهناك ملائكة يحملونه وآخرون يحيطون به إذن هو حقيقة وليست المسألة كنائية.

---

(1) الحاقة: ١٧.

(2) الزمر: ٧٥.

نرجع إلى قوله: «خلقكم الله أنواراً فجعلكم بعرشه محدقين»، كما أن الملائكة حافين من حول العرش ويستغفرون للمؤمنين كذلك الأنبياء عليهم السلام خلقهم الله تعالى قبل وجودهم في الدنيا، خلقهم الله أنواراً فجعلهم بعرشه محدقين.

وهنا تأتي مجموعة روايات تشرح الأسماء التي علَّمها الله آدم في الآية القرآنية: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ﴾،[١] أي أسماء؟

هي عبارة عن أسماء وهياكل رسول الله صلى الله عليه وآله والأئمّة الأطهار عليهم السلام، هؤلاء الذين علَّمهم الله تعالى آدم، ولكن الملائكة حينما أدركوا أن هؤلاء من ذرية آدم خضعوا للإرادة الإلهية فقالوا إذا كان هؤلاء الأنوار العظيمة المحيطة بالعرش هم من ذرية هذا الإنسان إذن يستحق السجود له.

في روايات عديدة إن قوائم العرش مكتوب عليها محمّد رسول الله عليّ ولي الله.

في روايات عديدة إن قوائم العرش مكتوب عليها أسماء الأئمّة الأطهار عليهم السلام، طبعاً هذه معاني قابلة للتعمق وتحصيل القناعة بها حينما تفهمها بالشكل الذي شرحته لكم في معنى أن الأرواح قبل الأبدان ومعنى العرش ما هو.

الرواية تقول: إن رسول الله صلى الله عليه وآله لما عُرج به إلى السماء وجد مكتوباً على قوائم العرش «الحسين مصباح الهدى وسفينة النجاة».[٢]

---

(1) البقرة: ٣١.

(2) مدينة المعاجز ٤: ٥٢.

مسلم بن عقيل عليه السلام:

نحن في هذه الأيام نعيش مجموعة ذكريات منها ذكرى شهادة مسلم بن عقيل عليه السلام في السابع من ذي الحجة، اليوم أريد أن أصرف الحديث إلى مسلم بن عقيل عليه السلام الذي كان يتمتع بثلاث خصال وهي: البطولة، والحكمة، والتعبد الوظيفي. حيث شهدت له القوات المعادية له وهي قوات ابن زياد بالبطولة الرائعة بحيث أن الروايات تقول: إنه كان يأخذ الفارس وهو على الفرس من جلابيبه ويلقيه على الأرض، القائد العسكري لجيش بن زياد طلب المزيد من الجنود، فقال له ابن زياد: ما الخبر أنا أرسلتك إلى رجل واحد فكيف إذا أرسلتك إلى بطل من الأبطال أو جحفل من الجحافل من بني هاشم، فهذا شخص واحد وأنت تعجز عن مقاومته، هنا القائد العسكري قال: أنت تتصور بأنك أرسلتني إلى جرمقان من جرامقة الكوفة أو دهقان من دهاقنة الحيرة أنت أرسلتني إلى ليثٍ من ليوث آل محمّد، هؤلاء بنو هاشم أبطال.

الصفة الثانية لمسلم بن عقيل عليه السلام هي التدبير و الحكمة يعني أنه عمل عملاً سياسياً وحاول أن يواصل حضوره وتحشيد الناس إلى أن يصل الإمام الحسين عليه السلام ولم يستطع ذلك، لكن كان عمله على مستوى الحكمة والتدبير الجيد، أخذ البيعة ثمّ نزل عند دار المختار ثمّ انتقل إلى دار هاني بن عروة، وهم شيوخ عشائر يعني امتد عشائرياً، وتكون العشيرة هي الحماية له، وهكذا حينما جاء ابن زياد عبأ مسلم بن عقيل عليه السلام القوات لكي يطوقوا القصر دون أن يقوموا بهجوم وهو ما سأشرحه لكم في النقطة الثالثة، إن خطوات مسلم بن عقيل عليه السلام هي خطوات ناجحة ولا يوجد اعتراض عليها.

الصفة الثالثة من صفاته: هي التعبد الوظيفي، أنه مكلَّف بشيء يجب أن يتعبد بما كُلّف به، الإمام الحسين عليه السلام حينما أرسله لم يقل له: أعلن الثورة بل قال له: خذ البيعة من أهل الكوفة، واكتب لي بخبرهم. أما أنت فلا تتحرك ولا تعلن ثورة أنت مكلف أن تذهب قبلي كرسول لتمهد لي السبيل، ثمّ كتب الإمام الحسين عليه السلام مرة أخرى لأهل الكوفة يقول لهم: انكمشوا على أمركم ولا تعلنوا الثورة، إذن مسلم بن عقيل عليه السلام في الحقيقة مكلف بأداء وظيفي، لو كان يتجاوز هذا الأداء الوظيفي لكان يفشل ولم ينجح هذا أوّلاً. وثانياً سوف يكون هو مسؤولاً عن الفشل الذي يصيب الثورة الحسينية، لو كان يتحرك تحركاً زائداً عن التكليف الذي كلفه الإمام الحسين عليه السلام به، هذه قضية التعبد الوظيفي مهمة.

خبر مقتل مسلم بن عقيل وشهادته عليه السلام، وصل إلى الحسين عليه السلام في منطقة بين مكّة والعراق يقال لها (زرود)، هناك بدأ العد التنازلي حيث أن مسلم بن عقيل عليه السلام كتب إلى الحسين عليه السلام أن هناك عدداً تصاعدياً وبايعني من أهل الكوفة ثمانية عشر ألف أو أكثر ومعناه: أقدم إلينا، لكن في زرود يعني بعد عدة أيام من حركة الحسين عليه السلام فالحسين خرج في اليوم الثامن من ذي الحجة، ومسلم قتل في اليوم السابع من ذي الحجة، لكن لكي يصل الخبر من الكوفة إلى الحسين عليه السلام يحتاج إلى أسبوع أو أكثر في الطريق، الحسين عليه السلام وصل إلى زرود فجاءه خبر مقتل مسلم بن عقيل عليه السلام يعني بدأ العد التنازلي، التقى مرة بالفرزدق وغيره وبدأ يسألهم ما الخبر؟ بدأوا يقولون: قلوب القوم معك وسيوفهم عليك، أي أن القضية تغيرت، والساحة السياسية تغيرت، ووصل الخبر إلى الحسين عليه السلام في زرود بقتل مسلم بن عقيل عليه السلام، بعض أنصار الحسين عليه السلام

قالوا: يا بن رسول الله ليس لك في الكوفة ناصر فارجع بنا، قاموا فتيان من بني هاشم وأولاد مسلم بن عقيل عليه السلام وآل عقيل قالوا: لا نرجع حتّى نأخذ ثأرنا من هؤلاء القوم، الإمام الحسين عليه السلام استرجع وقال: إنا لله وإنا إليه راجعون، وصمم على المضي في طريقه إلى الكوفة.

مجيء الإمام الحسين عليه السلام للكوفة:

هنا يثار سؤال سياسي وعلمي وهو: لماذا لم يتراجع الإمام الحسين عليه السلام؟

ولماذا هذا التصميم على أن يأتي الكوفة؟ مع أن المؤشرات كلها تقول إن أبواب النصر قد أُغلقت على الحسين. وبعد مقتل مسلم بن عقيل عليه السلام قال له هذا القائل: والله ما خرجت من الكوفة حتّى رأيت مسلم بن عقيل وهاني بن عروة يجرونهما بالحبال، مع ذلك الحسين عليه السلام صمم على الذهاب ومواصلة الطريق، هناك مجموعة تصورات لتصميم الإمام على ذلك:

التصور الأوّل: أن الحسين عليه السلام كان يتوقع النصر، ولكن هذا التصور تصور ساذج، الرؤية السياسية واضحة لكل الناس فلا يوجد نصر في مثل هذا الوضع في الكوفة، والحسين عليه السلام لا تخفى عليه الحقيقة السياسية، وهل الحسين عليه السلام لا يتمتع بمعرفة وذكاء سياسي؟

التصور الثاني: أن الحسين عليه السلام ينطلق من منطلق أخلاقي وهو الوفاء بالوعد فإنه طالما وعد أهل الكوفة بالمجيء لهم، إذن لا يستطيع أن يخلف الوعد ولكن هذا التصور أيضاً غير صحيح؛ لأن الحسين عليه السلام هو ملزم أخلاقياً بالوفاء بالوعد وذلك حينما يلتزمون بالوعد ولكن حينما نكثوا البيعة فالإمام غير ملزم بالوفاء بالوعد لهم بعد أن قتلوا رسوله.

التصور الثالث: وهو التصور الصحيح، إن الحسين عليه السلام يقرأ الساحة

السياسية أنه مقتول في العراق لا محالة والأمل بالنصر أصبح بمستوى الصفر، لكن الحسين عليه السلام هكذا يرى، أنه لا يمكن مواجهة الإرهاب إلاّ عبر الصمود والاستقامة، الانسحاب يعني أن الحسين عليه السلام سيقتل مرة أخرى لكن بدلاً من أن يقتل وهو رمز للبطولة والإباء وإسقاط الشرعية من الحكم الأموي وإذا يقتل الحسين في سفوح جبلية مهزوماً هارباً ثمّ يقال قتله الجن وينتهي كل شيء، لأن يزيد كان سيلاحق الحسين عليه السلام ويظفر به هارباً ويومئذٍ لا قيمة لذلك الدم في حركة التاريخ، الإرهاب لا يمكن أن يواجه عبر الهزيمة.

حميدة بنت مسلم:

تقول الرواية: إن الحسين عليه السلام دعا حميدة بنت مسلم وأجلسها في حجره وجعل يمسح على رأسها كما يفعل باليتامى، لكن هذه الطفلة استشعرت اليتم وقالت: يا عم يا أبا عبد الله هل قُتل أبي؟ فقال لها الحسين عليه السلام: أنا أبوكِ وهؤلاء أعمامكِ، وتقول الرواية فَجرت الدموع لمقتل مسلم بن عقيل عليه السلام وسالت كل مسيل، لكن في هذا المشهد المؤلم والحزين الحسين عليه السلام موجود والأبطال موجودون والخيام غير منهوبة والوضع آمن لكن هناك مشهد يماثله من بعض الجهات وهو مشهد الحسين عليه السلام حين أجلَسَ سكينة في حجره يوم عاشوراء هناك لم يبق أحد إلاّ الحسين عليه السلام، وهو يقول لها:

لا تحرقي قلبي بدمعك حسرةً ... ما زال مني الروح في جثماني
فإذا قتلت فأنت أولى بالذي ... تأتينه يا خيرة النسوان

إنا لله وإنا إليه راجعون

* * *

المحاضرة الثالثة والخمسون:

الأنبياء والأئمّة

مصادر هداية البشرية

«حَتَّى مَنَّ عَلَيْنَا بِكُمْ فَجَعَلَكُمْ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ».

بسم الله الرحمن الرحيم

فضل الأنبياء عليهم السلام:

الحديث عن فضل الله تبارك وتعالى ببعثة الأنبياء واختيار الأئمّة الأطهار عليهم السلام حيث تقول الزيارة: «حتّى مَنّ علينا بكم فجعلكم في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه»، هذا فضل من الله، هذه نعمة من الله، المَنْ بمعنى الفضل والنعمة، الله تفضل على العباد بأن بعث لهم أنبياء واختار لهم أئمّة «حتّى مَنّ علينا بكم» لولا الأنبياء ولولا الأوصياء لكانت حياة البشر ليست أفضل من حياة الحيوان.

إن جميع ما يوجد في البشرية من عدل وقسط، من محبة وخصال حميدة هي بفعل توصيات الأنبياء.

الأنبياء كانوا يوجهون حركة البشرية من اليوم الأوّل، اليوم العالم مثلاً يتحدّث عن حقوق الإنسان ولكن الذي علَّم البشرية حقوق الإنسان هم الأنبياء، اليوم العالم يتحدّث عن السلم والسلام، وهذا صحيح لكن الذي علَّم البشرية السلم والسلام هو الأديان والأنبياء كانوا هم الذين يرشدون البشرية، حتّى تلك الشعوب التي لم تؤمن برسالات الأنبياء لكنها تأثرت بدرجة كبيرة بحركة الأنبياء.

البيوت المقدَّسة:

«حتّى مَنّ علينا بكم وجعلكم في بيوت أذن الله أن ترفع» إشارة

إلى قوله تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ * رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ﴾،[1] **هذه الزيارة تقول: إن الله تعالى خلقكم أنوارا فجعلكم بعرشه محدقين لكن نزلتم من ذلك العالم إلى عالم الدنيا لهداية البشر «حتّى مَنّ علينا بكم وجعلكم في بيوت أذن الله أن ترفع».**

هذه الآية حين نزلت: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ﴾ **سُئل رسول الله ﷺ أي بيوت هذه؟**

فقال ﷺ: «هي بيوت الأنبياء».

فسأله رجلٌ وفي رواية أخرى: فسأله أبو بكر قال: وهذا البيت _ مشيراً إلى بيت عليّ؛ لأن بيت عليّ ملاصق لبيت النبي _ وهذا البيت منها؟

قال ﷺ: «هو من أفاضلها».[2]

هذه الرواية لا ينفرد رواتنا بها، بل هذه يرويها علماء العامة، يرويها السيوطي في تفسيره[3] **بسنده عن أنس بن مالك، والسيوطي من مفسري أهل السُنّة، والراوي وهو أنس بن مالك من أئمّة الحديث لدى أهل السُنّة.**

هذه الآية نزلت يوم جمعة وقد كان رسول الله ﷺ مقيماً لصلاة الجمعة فأقبلت تجارة لقريش فانصرف المصلّون وتركوا النبي قائماً أثناء الخطبة وليس معه إلاّ ثمانية رجال وامرأة. الروايات تقول تلك المرأة هي فاطمة، هؤلاء هم

---

(1) النور: ٣٦ و٣٧.

(2) بحار الأنوار ٢٣: ٣٢٦؛ الدر المنور ٥: ٥٠.

(3) أنظر: الدر المنثور في التفسير بالمأثور ٥: ٥٠.

فقط الذين بقوا يصلون خلف رسول الله ﷺ حيث يشير القرآن الكريم إلى ذلك بقوله: ﴿وَإِذا رَأَوْا تِجارَةً أَوْ لَهْواً انْفَضُّوا إِلَيْها وَتَرَكُوكَ قائِماً﴾[(١)](٢).

هنا نزل قوله تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيها بِالْغُدُوِّ وَالْآصالِ * رِجالٌ لا تُلْهِيهِمْ تِجارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾،[(٣)] **هذه التجارة وهذا البيع الذي ألهى مجموعة من المصلين وجعلهم يتركون الصلاة، لكن هناك مجموعات لا يؤثرون الدنيا على الآخرة** ﴿لا تُلْهِيهِمْ تِجارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقامِ الصَّلاةِ﴾.

معنى البيت:

ما معنى البيت؟

البيت له أكثر من معنى في اللغة العربية، البيت مرةً يُطلق على الأسرة والعشيرة، تقول: هذا من بيت شريف، هذا من بيت طيب، هذا من بيت عظيم، هنا المقصود بالبيت ليس البناء والحجر والطابوق وما شاكل بل المقصود هو الأسرة والعشيرة.

والبيت يأتي بمعنى آخر بمعنى المقر كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْراهِيمُ الْقَواعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْماعِيلُ﴾،[(٤)] **ما هو المقصود بالبيت هنا؟ المقصود هو المقر وليس البيت بمعنى الأسرة** ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾،[(٥)] **إذن البيت يأتي بمعنى الأسرة ويأتي بمعنى المقر والمحل.**

---

(1) الجمعة: ١١.
(2) راجع: تفسير مجمع البيان ٢٢: ٥٩.
(3) النور: ٣٦ و٣٧.
(4) البقرة: ١٢٧.
(5) الحج: ٢٦.

معنى الرفع:

الرفع ماذا يعني في قوله: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ﴾[1]**؟**

الرفع له معنيان إمّا رفع معنوي وإمّا رفع مادي، الرفع المعنوي كما في قوله: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾**،**[2] **المقصود هنا ارتفاع معنوي، يعني شأن العلماء وشأن المؤمنين أعلى من شأن غير المؤمنين وغير العلماء، هذا رفع معنوي، القرآن يتحدّث عن إدريس يقول:** ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَاناً عَلِيًّا﴾[3] **الرفع المعنوي يعني أن شأن إدريس شأن مرتفع، لكن بعض الروايات تقول: إن الله رفع إدريس إلى السماء الرابعة، وهو الآن موجود في السماء الرابعة، ولكن هذا فهم مادي لقوله:** ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَاناً عَلِيًّا﴾**، حينئذٍ حينما يقول القرآن:** ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾**، الرفع هو رفع معنوي بمعنى الاحترام والتقدير وربما يكون إلى جانب الرفع المعنوي أيضاً رفع مادي.**

نرجع إلى قوله: «حتّى مَنّ علينا بكم» تصوروا لو أن الحياة البشرية كانت بدون أنبياء، لا إبراهيم ولا موسى ولا عيسى ولا نوح ولا نبينا ﷺ ولا مائة وأربعة وعشرين ألف نبي، لولا حركة هؤلاء الأنبياء كيف كان واقع البشرية؟

أنظروا إلى الحروب العالمية، إلى الإبادة إلى القتل الجمعي، إلى الخرافات التي ما تزال موجودة.

---

(1) النور: ٣٦.

(2) المجادلة: ١١.

(3) مريم: ٥٧.

كنت أقرأ في إحدى الصحف أنه في الهند وهي دولة من الدول الصناعية العظمى عقد أهل قرية حفلاً بهيجاً بمناسبة زواج ضفدعين؛ لكي يتقربوا بذلك إلى الله حتّى ينزل المطر بزواج هذين الضفدعين لكنهما ضفدعان كبيران، أتوا بأحدهما من برْكة والآخر من برْكة أخرى، واجتمع أهل القرية رجالاً ونساءاً ومعهم قساوسة الكنيسة أيضاً، هؤلاء يقرأون وأولئك يطبلون وأولئك يرقصون ووضعوا على الأنثى أكليلاً أحمر بمناسبة زفافها إلى هذا الضفدع المبارك الموفق حتّى ينزل المطر من السماء!!

قد تقول هذه بلاد الهند، والهند هي من دول العالم الثالث لكن حدّثنا عن العالم الأوّل، وليس العالم الثالث، عن الغرب وما لديهم من جاهلية أيضاً، نعم، ليس شيئاً قليلاً ما لديهم من جاهلية.

الانتحار في أمريكا:

كنت أقرأ تقريراً خبرياً أن هناك جسراً في أمريكا طوله ثلاثة كيلو مترات وهو من أطول جسور العالم يصل بين مدينتين، هذا الجسر أصبح أفضل موقع للانتحار واسم هذا الجسر (كوردنكيت) هذا الجسر أسس عام (١٩٣٧م) ومضى على تأسيسه لحد الآن سبعون عاماً فأصبح هذا الجسر موضعاً استراتيجياً للانتحار، لأن ارتفاعه عن الماء أكثر من خمسمائة متر وذلك يساعد على عملية الانتحار حيث لا رقيب ولا شرطة ولا منقذ ولا منجي ولا سيارة إسعاف ولا مستشفى ولا هم يحزنون، هذا الجسر منذ تأسيسه لحد الآن حسب التقرير الخبري برواية رويترز انتحر عليه (١/٣٠٠) شاباً ويا ليت المنتحرين كانوا من عمر (٦٠) سنة أو (٧٠) سنة حتّى يقول القائل هؤلاء لم يبق لهم من العمر شيء، لا، الانتحار فقط للشباب من عمر (١٨) سنة وعمر (٢٥) سنة، والآن توجد

دراسات لبحث ما هو الموقف لمنع ظاهرة الانتحار من على هذا الجسر؟ هذا الجسر (كوردنكيت) الذي يربط بين سان فرانسسكوا وبين منطقة مادين هيدز، هذا نموذج فقدان الأمل في هذا العالم، هذا هو التخلف الروحي في العالم، هذا الجفاف الروحي في العالم، هذا هو العالم المتمدن!!

تقرير عن الزواج الأمريكي:

أنا أقرأ لكم تقريراً آخر برواية نيويورك وكالات (أن الأمريكيات يفضلن أزواجاً بصفات الكلاب). التقرير يقول: (ذكرت دراسة أن الأمريكيات يتمنين لو أن شركاء حياتهن كانت لديهم صفات كتلك التي لدى الكلاب، لكانت حياتهن أسعد حالاً، وقالت (٩٠%) من النساء أنه كن يتمنين لو أن الشريك الآخر يتمتع ببعض صفات الكلاب الجيدة الكثيرة مثل الاحتفاظ بالمزاج الرائق والدائم والرغبة في قضاء أكبر وقت معهن وغمرهن بالعطف عن الاسترخاء على المقعد)، يعني هم يحتاجون إلى عطف أسري وحنان زوجي وهو مفقود في الغرب، والبيت أشبه بقفص جامد، ما فيه شيء اسمه محبة، ما فيه شيء اسمه ابتسامة، أنتم تتصورون أن الحياة هناك سعيدة من خلال ما يعرض عبر شاشات التلفزيون، لكن هو هذا البيت (٩٠%) ينتظرون أزواجاً بصفة الكلاب حتّى يعطفون عليهن عند الاستراحة والرغبة في قضاء أكبر وقت معهن، هناك الرجل له شأنه والمرأة لها شأنها، علاقات مودة وعلاقات محبة غير موجودة، هذه صورة من صور الحياة غير السعيدة في العالم الغربي.

المجاعة العالمية:

وأما إذا تحدّثنا عن العالم الفقير كما في وكالة فاو (منظمة

الأغذيـة والزراعـة) تقـول: (سـنوياً يمـوت سـتة ملايـين إنـسان مـن الجـوع وسـوء التغذيـة) حـسب منظمـة الأغذيـة والزراعـة لعـام (٢٠٠٥م) أن الجـوع وسـوء التغذيـة يؤديـان سـنوياً إلـى وفـاة سـتة ملايـين طفـلاً فـي العـالم وذلـك أمـام مـرأى العـالم، وأمـام المنظمـات الإنـسانية وملايـين أطنـان الحنطـة تلقـى فـي المحيطـات ومليـارات الـدولارات تُـصرف علـى الكـلاب فـي نيويـورك وبكـين ورومـا ومـا شـاكل ذلـك، أمـام كـل هـؤلاء فـإن سـت ملايـين طفـلاً يمـوت جوعـاً، هـذه هـي حقـوق الإنـسان، وإلـى جانـب ذلـك فـإن ثمانمائـة واثنـين وخمـسين مليـون إنـسان يعـيش فـي حالـة الفقـر وعلـى وشـك المـوت هـذا هـو العـالم المتحـضر، تـصوروا لـو أن حركـة الأنبيـاء مـا كانـت موجـودة مـاذا كـان سـيحدث، هـذا هـو معنـى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾[1] **الله متفضل علينا وعلى البشرية أن أرسل لنا أنبياء وبعث لنا كتاباً نقرؤه، الله تعالى يقول:** ﴿يَا أَيُّهَا الإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ * الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ * فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾[2] **يخاطب الإنسان ويتحدّث معه.**

الإمـام الحسن العسكري عليه السلام:

نحـن نعـيش ذكـرى شـهادة الإمـام الحـسن العـسكري عليه السلام، الإمـام الحـسن العـسكري عليه السلام كـان عمـره ثلاثـين سـنة، عاصـر أربعـة مـن خلفـاء

---

(1) آل عمران: ١٦٥.

(2) انفطار: ٦ - ٨.

بنـي العبّـاس وفـي كـل مـدة حكمهـم كـان الإمـام مـسجوناً، المعتمـد، المعتصم، المعتز.

يلقى إلى السباع:

مـرةً أحـد الـسجانين وهـو نحريـر (مـدرّب الـسباع) قـال: أفـضل طريقـة لقتـل الإمـام أن نلقيـه فـي بركـة الـسباع ونتفـرج كيـف أن هـذه الـسباع سـوف تلـتهم الإمـام العـسكري، وبالفعـل أُلقـي إلـى الـسباع، وإذا بالإمـام قـائم يـصلي فـي وسـطها وهـي تحـوم حولـه وتلـوذ بـه،[١] هـذه الحيوانـات تعـرف شـأن الأئمّة الأطهار عليهم السلام.

الشاب الغفاري:

وهنـاك روايـة أخـرى تقـول: جـاء شـاب غفـاري مـن بنـي غفـار مـن المدينـة المنـورة فـي يـوم النـدوة والندبـة وهـو يـوم التجمـع العـام لبيعـة الخليفـة والإمـام الحـسن العـسكري عليه السلام لا بـدّ أن يخـرج معهـم، ويخـرج حافيـاً والـشيعة يـشهدون المـشهد ولا يـستطيعون أن يفعلـوا شـيئاً، والإمـام ينهـاهم عـن الـسلام عليـه، الـراوي يقـول: رأيـت شـاباً غريبـاً لـيس مـن أهـل سامراء، قلت له: من أين تكون؟ قال: أنا من المدينة.

من أي المدينة؟

قال: إني من بني غفار.

قلت له: ما الذي جاء بك؟

قـال: أنظـر إلـى مـن هـو حجـة الله، حيـث قـالوا أن الحـسن العـسكري

---

(1) شرح أصول الكافي ٧: ٣٣٣.

هو حجة الله. يقول الراوي: بينما كنّا سماطين وقوفاً وإذا بالحسن العسكري يمر ويقترب من هذا الشاب والتفت إليه وقال: «أغفاري أنت؟».

قال: نعم؟

قال: «ما صنعت حمدوية أُمّك، كيف حالها؟».

قلت: بخير سيدي، ثمّ ابتسم وانصرف.

يقول الراوي: قال لي هذا الشاب: من أين عرف أنني غفاري؟ ومن أين عرف اسم أُمّي التي لا يعرف أسمها أحد؟

قلت له: «أو يكفيك هذا؟» هذا أمامنا، هذا دليل لك، قال: وأدنى من هذا يكفيني، أنا غريب من المدينة مسافر إلى سامراء وهو يلتفت إليَّ ويقول: أغفاري أنت؟ ثمّ يقول: ما صنعت أُمّك حمدوية؟[١]

رسالة فقير إلى الإمام العسكري عليه السلام:

تعالوا ونحن قد رزقنا الله تعالى المحبة والعلاقة مع أهل بيت النبوة نسمع رواية للإمام الحسن العسكري عليه السلام جميلة جداً ومؤثرة على سلوكياتنا، لأن العالم اليوم يحاول أن يحاصرنا، ويحاول أن يلاحقنا ويحاول أن يسلبنا هويتنا، لكن هم الأخسرون وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين، هذا راوي اسمه محمّد بن الحسن بن ميمون كان فقيراً، يقول: كتبت رسالة للإمام أطلب منه عطية وبعدما أرسلتها للإمام قلت في نفسي: يا ليتني كنت لم أبعث رسالة؛ لأنني سمعته يقول: «الفقر معنا أحبّ من الغنى مع غيرنا والقتل معنا أفضل من الحياة مع عدونا».

---

(1) بحار الأنوار ٥٠: ٢٧٠.

جاءني الجواب بعد مدة يقول: «إن الله يخص أولياءنا _ يعني شيعتنا _ إذا تكاثفت ذنوبهم بالفقر وقد يعفو عن كثير كما حدّثتك نفسك، الفقر معنا خير من الغنى مع عدونا ونحن كهف لمن لجأ إلينا، ونور لمن استبصر بنا وعصمة لمن اعتصم بنا. مَن أحبنا كان في السنام الأعلى ومن انحرف عنا فإلى النار».[1]

الله تبارك وتعالى منَّ علينا بالأئمّة الأطهار عليهم السلام وبخط الأنبياء عليهم السلام فكنا أتباع الأنبياء وكنا محبي الأئمّة الأطهار عليهم السلام هذا فضل من الله تبارك وتعالى.

﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ﴾،[2] لكن اليوم كنت أقرأ رواية تاريخية غريبة تقول: إن الإمام عليّ عليه السلام لما قُتل سجدت عائشة شكراً لله تعالى على قتله، هذا بروايات أهل السنّة وليس برواياتنا. سجدت لله شكراً وقالت وأنشدت:

فألقت عصاها واستقر بها النوى ... كما قرّ عيناً بالإياب المسافر[3]

في زماننا هدمت قبة الإمامين العسكريين عليهما السلام والقرآن يقول: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ﴾ ولكن أعداء أهل البيت هدموا قبة الإمامين عليهما السلام جُرأةً وعدواناً.

أمّا آل أمية ماذا صنعوا؟ رفعوا رأس الحسين على رأس رمح طويل، وإذا رأس الحسين سيد شباب الجنّة الذي شهده المسلمون ورسول الله صلى الله عليه وآله يقبّله ويقول: «حسين مني وأنا من حسين، أحب الله من أحب حسيناً»[4] وإذا برأس الحسين يرفع على رأس رمح طويل.

إنا لله وإنا إليه راجعون

* * *

---

(1) بحار الأنوار ٥٠: ٢٩٩.

(2) النور: ٣٦.

(3) مقاتل الطالبيين: ٥٥.

(4) كامل الزيارات: ١١٦.

المحاضرة الرابعة والخمسون:

الآثار الدنيوية والأخروية

لولاية أهل البيت عليهم السلام

«وَجَعَلَ صَلاتَنَا عَلَيْكُمْ وَمَا خَصَّنَا بِهِ مِنْ وِلايَتِكُمْ طِيبا لِخَلْقِنَا وَطَهَارَةً لِأَنْفُسِنَا وَتَزْكِيَةً لَنَا وَكَفَّارَةً لِذُنُوبنَا».

بسم الله الرحمن الرحيم

الحديث اليوم عن المقطع التالي: «وجعل صلاتنا عليكم وما خصنا به من ولايتكم طيباً لخلقنا وطهارةً لأنفسنا وتزكية لنا وكفارةً لذنوبنا».

المعنى اللغوي الأوّلي الواضح والبسيط لهذه الجملة هو أن الصلاة على النبي ﷺ وآله عليهم السلام والولاية لهم لها أربعة آثار هي من فضل الله تبارك وتعالى على الإنسان:

الأثر الأوّل: «طيباً لخلقنا».

الأثر الثاني: «طهارةً لأنفسنا».

الأثر الثالث: «تزكية لنا».

الأثر الرابع: «كفارة لذنوبنا».

هذه أربعة فضائل، اليوم سأحدّثكم شيئاً عن الموضوع، ولكن لدينا اليوم مجموعة أبحاث:

البحث الأوّل: طيب الخلقة:

الزيارة تقول: «وجعل صلاتنا عليكم وما خصّنا به من ولايتكم»، ما هو هذا الاختصاص وهل الولاية أمرٌ اختصاصي؟

الولاية بمعنى خيط العلاقة مع الله عزّ وجلّ وأنبيائه ورسله وأوصياء الأنبياء عليهم السلام. خيط العلاقة هذا ليس لكل شخص، وإنما هو اختصاص يمنّ به الله تعالى على بعض العباد، فيرزقهم الولاية ويسلبه من بعض العباد فلا يعطيهم الولاية بل

قلوبهم منكرة، وهذا موضوع مهم، الولاية أمرٌ اختصاصي أم هي أمر كسبي؟ أي كيف نحصّل الولاية للنبي وآل بيت النبي ﷺ؟ هل عبر كسب؟ هل عبر دراسة؟ أم هي قدر إلهي؟ هذا الأمر يشير إليه القرآن الكريم وهو بحث فلسفي مهم في أصل خلقة الإنسان، القرآن الكريم يقول: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ﴾[١] **إذن هناك مجموعة من الناس الله يريد أن يهديهم ويشرح صدورهم، وهناك مجموعة من الناس لا يريد الله أن يهديهم** ﴿وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً﴾[٢] **إذن هناك في أصل الخلقة ناس منشرحة صدورهم وناس منغلقة صدورهم. ولهذا نجد في آية قرآنية أخرى يقول:** ﴿اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيانَ﴾[٣] **الله تعالى أعطاكم هذا المذاق الخاص بحيث تحبون الإيمان وتكرهون الفسق، وإلاّ فإن القضية ليست قضية كسبية، مثلاً الإنسان أعطاه الله تبارك وتعالى حاسة الذوق ليتذوق بها الطعم الحلو والمر والمالح، لكن لماذا يحب الإنسان ذاتياً وبدون إرادته الشيء الحلو ويكره الشيء المر والخبيث الرديء، هذا ليس قضية كسبية، بل الله جعل مذاق الإنسان يختلف عن مذاق الحيوان، الحيوان نجده يتذوق أطعمة أخرى ربما ينفر منها الإنسان، هذا إذن قضية ذاتية، في مسألة الإيمان والولاء أيضاً كذلك، حيث يقول الله القلوب على نوعين: قلوب أعطيتها مذاقاً معيناً فتتذوق به الإيمان وتحبه، وقلوب سلبت منها تذوق الإيمان** ﴿اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيانَ﴾[٤] **هذا هو مفهوم أن**

(1) أنعام: ١٢٥.
(2) المصدر السابق.
(3) الحجرات: ٧.
(4) المصدر السابق.

الولاية أمر اختصاصي وموهبة إلهية وليست أمراً كسبياً، وهذا مفهوم ديني وهو صحيح طبعاً بشرط ألاّ يصطدم مع حرية الإرادة والاختيار لدى الإنسان حتّى لا يقول قائل ما هو ذنب الكافر إذا كانت المسألة اختصاصية؟ إذن أين موقع الإرادة الإنسانية؟

الجواب: هناك موقع نسبي لإرادة الإنسان وما عدا ذلك فإن المسألة هي مسألة اختصاص ولهذا فإن الزيارة تقول: «وجعل صلاتنا عليكم وما خصّنا به من ولايتكم».

البحث الثاني: تقسيم الناس:

الناس ينقسمون على المستوى المادي إلى أبيض وأسود مثلاً وعربي وأعجمي، لكن على مستوى النفوس والقلوب فإن الفلسفة الدينية تقول: إن الله تبارك وتعالى خلق الناس من طينتين أو شجرتين فهناك ناس أصلهم شجرة طيبة وناس أصلهم شجرة خبيثة، أصل الخلقة قبل أن يصل الأمر إلى إرادتنا واختيارنا، لكن هناك في أصل الخلقة كما تقول الروايات: إن الله تعالى خلق الناس قسماً منهم من طينةٍ طيبةٍ وقسماً منهم من طينةٍ خبال أي وسخة ولهذا فإن القرآن الكريم يقول: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلاَّ فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ﴾،[1] أي أن هناك شجرة ملعونة في القرآن وهي شجرة بني أمية كما تقول الروايات بالإجماع، وسبب نزول هذه الآية أن رسول الله صلى الله عليه وآله رأى في المنام كأن قردةً ينزون على منبره فاستوحش رسول الله صلى الله عليه وآله ولما استيقظ نزل قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلاَّ فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي

(1) الإسراء: ٦٠.

الْقُرْآنِ﴾ سُئل رسول الله ﷺ عن هؤلاء القردة الذين ينزون على منبره وهذه الشجرة الملعونة؟

قال: «هي شجرة بني أمية وهي شجرة ملعونة وطينة خبيثة».[1]

ومن هنا القرآن الكريم يقول: ﴿الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ﴾،[2] أي هناك طيب وطيبة، وهناك خبيث وخبيثة، ويوجد تجانس بينهم فالطيب للطيبة والخبيث للخبيثة.

آثار الولاية:

نعود إلى النص: «وجعل صلاتنا عليكم وما خصّنا به من ولايتكم» هذا الاختصاص بالولاية والصلاة عليهم والارتباط بهم والثناء عليهم له أربعة آثار:

الأثر الأوّل: طيب الخلقة:

«طيباً لخلقنا» نحن من خلقةٍ طيبة وأصل طيّب ولسنا من شجرةٍ خبيثةٍ.

الروايات تقول: إن الناس كانوا في زمن النبي ﷺ يُعرف إيمانهم ونفاقهم بالعرض على عليّ عليه السلام، أي يعرضون على عليّ عليه السلام فمن أحبه عُرف فيه طيب الولادة. ومن أبغضه عُرف أنه منافق، والعجيب أن هذه الروايات متواترة بشكل غريب وكثيرة في صحاح أهل السُنّة ــ أي في أمهات الكتب السُنية ــ، التي تؤكد أن الإمام عليّ عليه السلام كان مقياس الإيمان والنفاق، أقرأ لكم روايات للتبرك في هذا الشأن:

في صحيح مسلم ــ وهو من صحاح أبناء العامة وكتبهم الكبيرة ــ

---

(1) التفسير الصافي ٣: ٢٠١.

(2) النور: ٢٦.

حيث تقول الرواية: قال عليّ عليه السلام: «والذي فلق الحبة وبرأ النسمة، أنه لعهد النبي الأمي إليّ أن لا يحبّني إلاّ مؤمن ولا يبغضني إلاّ منافق».[(١)]

العجيب أن هذه الرواية يرويها الترمذي، النسائي، ابن ماجة، أحمد بن حنبل، الخطيب البغدادي وأبو نعيم، والذي يقول: هذا حديث صحيح متفق عليه.

ويقول الترمذي بسنده عن أبي سعيد الخدري: إنا كنا لنعرف المنافقين ببغضهم عليّ بن أبي طالب،[(٢)] ابن عبّاس أيضاً يروي هذه الرواية وهي متكررة في عشرات المصادر لأبناء العامة.

وفي رواية الموفق الخوارزمي عن أبي بكر _ من مصادر أبناء العامة _ قال: رأيت رسول الله صلى الله عليه وآله خيّم خيمةً وهو متكئ على قوس عربية وفي الخيمة عليّ وفاطمة والحسن والحسين فقال: «معشر المسلمين أنا سلمٌ لمن سالم أهل الخيمة، وحربٌ لمن حاربهم، وولي لمن والاهم، لا يحبهم إلاّ سعيد الجد _ أي سعيد الحظ _ طيّب المولد، ولا يبغضهم إلاّ شقي الجد رديء الولادة».[(٣)]

من خلال هذا العرض أصبح لدينا مفهوم جديد وهو مفهوم طيب الولادة وخبث الولادة. وهذا المفهوم نحن نستعمله لكنه ليس مفهوماً سطحياً بل هو عميق، الناس بعضهم طيّب الولادة، أي أن أصل تكوّن نطفته وخلقته كان على أسس سليمة وصحيحة، وهناك ناس شارك الشيطان في خلقتهم. والروايات عندنا كثيرة في هذا الشأن، كما هي الآية (٦٤) من سورة الإسراء تقول:

---

(1) صحيح مسلم ١: ٦١.

(2) سنن الترمذي ٥: ٢٩٨.

(3) المناقب للخوارزمي: ٢٩٦/ ح ٢٩١.

﴿وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الأَمْوالِ وَالأَوْلادِ﴾، وهذا الخطاب موجَّه للشيطان، تأتي الروايات تشرح كيف أن الشيطان يشارك في صنع الأولاد؟

الروايات تقول: إن الإنسان حينما يقارب أهله إذا قال بسم الله تنحّى عنه الشيطان، وإذا لم يقل بسم الله شاركه الشيطان فكان المولود من اثنين: منه ومن الشيطان، ولهذا أنه يستحب عند الممارسة الجنسية أن يقول بسم الله، ويستحب أن يكون على وضوء، المسألة ليست عفوية، أي كما في الصلاة فالإنسان يبدأ الصلاة ببسم الله ويبدأ الطعام ببسم الله هكذا المشي والخروج من المنزل والركوب والنوم فكل هذه تكون عملية تكاملية في خط إنسانية الإنسان، إذا لم تتوفر هذه الأطر الإيمانية فالشيطان يكون شريكاً للإنسان ﴿وَشَارِكْهُمْ فِي الأَمْوالِ وَالأَوْلادِ﴾، والذين يكون الشيطان شريكاً في أصل خلقتهم فمن الطبيعي أن تكون شجرتهم شجرة خبيثة، ولهذا نجد الزيارة تقول: «وما خصّنا به من ولايتكم طيباً لخلقنا»، إن هذه الولاية التي خصّنا بها الله تعالى هي دلالة على طيب تكوننا وطيب شجرتنا وطينتنا.

فضل الصلاة على النبي وآله:

لدينا في فضل الصلاة على النبي وآله مجموعة روايات جميلة جداً وأنا سأقرأ لكم بعض تلك الروايات والتي يرويها الشيخ الكليني في كتابه (الكافي): الإمام الصادق عليه السلام قال: «لا يزال الدعاء محجوباً حتّى صلي على محمّدٍ وآل محمّد».

ورواية ثانية عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «من دعا ولم يذكر النبي صلى الله عليه وآله رفرف الدعاء على رأسه، فإذا ذكر النبي رُفع الدعاء».

الرواية الثالثة تقول: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «الصلاة عليَّ وعلى أهل بيتي تُذهب بالنفاق».

الرواية الرابعة عن أحدهما _ أي الإمام الباقر والإمام الصادق عليهما السلام _: «ما في الميزان شيءٌ أثقل من الصلاة على محمّدٍ وآل محمّد».

أليس عندنا يوم القيامة ﴿فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوازِينُهُ * فَهُوَ فِي عِيشَةٍ راضِيَةٍ * وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوازِينُهُ * فَأُمُّهُ هاوِيَةٌ * وَما أَدْراكَ ما هِيَهْ * نارٌ حامِيَةٌ﴾[1] **ففي يوم القيامة يتلفت الإنسان إلى حسنة واحدة لتثقل ميزانه، وهنا الرواية الخامسة تقول: «إن أعظم عمل لتثقيل الميزان يوم القيامة هو الصلاة على محمّدٍ وآل محمّد، وإن الرجل توضع أعماله في الميزان فتميل به فيخرج _ أي النبي صلى الله عليه وآله _ الصلاة عليه فيضعها في ميزانه فيرجح».**

الرواية السادسة عن عبد السلام بن نعيم قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: إني دخلت البيت ولم يحضرني شيء من الدعاء إلاّ الصلاة على محمّد وآل محمّد فما هو حكمي؟

قال عليه السلام: «أما إنه لم يخرج أحدٌ بأفضل مما خرجت به».

الرواية السابعة تقول: «إذا صلى أحدكم ولم يذكر النبي في صلاته يُسلك بصلاته غير سبيل الجنّة»، وهذه قضية لا تختلف فيها المذاهب الإسلاميّة فكلهم يعتقدون بأن صلاته باطلة.

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «من ذكرت عنده فنسي الصلاة عليَّ خُطِّيء به طريق الجنّة».

وفي رواية أخرى: «خَطَّأَ الله به طريق الجنّة».[2]

---

(1) القارعة: ٥ - ١١.

(2) الكافي ٢: ٤٩١ - ٤٩٥/ باب الصلاة على النبي وآله.

هـذه مجموعـة روايـات ذكرناهـا للتبـرك فـي سـياق قولـه: «وجعـل صلاتنا عليكم طيباً لخلقنا وطهارةً لأنفسنا».

الأثر الثاني: طهارة النفس:

أرجـع إلـى البحـث «طيبـاً لخلقنـا وطهـارةً لأنفـسنا» نفـس الإنـسان مخلوق عجيب، ومهما تقدم العلم فإن نفس الإنسان تبقى مجهولة.

كيف تبقى هذه النفس طيبة وطاهرة؟

كيف يسيطر عليها الإنسان؟

وكيف يوجهها وجهة صحيحة؟

نفس الإنسان كالطير ليس من السهولة السيطرة عليها، أما بدن الإنسان فأصبح من السهل معرفة ما فيه حسب علم التشريح وغيره حيث عرف أنه يحتوي على (٢٠٦) قطعة عظم وأن مجموع طول الأوردة والشرايين التي تضخ الدم والمواد الغذائية على سائر أنحاء الجسم يبلغ (٦٠٠) ألف متر في بدن الإنسان الواحد، لكن نفس الإنسان أغرب، والعلم يقف عاجزاً أمام ذلك وغير قادر على أن يكتشف شيئاً عنها، نفس الإنسان مجهولة في قدرتها وحركتها والآن نحن نحتاج إلى كثير من الإرشادات الدينية، لأن هنا يأتي دور الوحي ودور الله تبارك وتعالى في ترشيدنا، كيف نربي النفس الإنسانية ونروضها ونعلمها؟ هنا دور الدين.

الجمعية الألمانية لمنع الانتحار تذكر تقريراً تقول فيه: سنوياً في ألمانيا يوجد (١٥٠) ألف محاولة انتحار، ينجح منها (١١) ألف محاولة، وأطباء النفس هناك أكثر من أطباء الجراحة البدنية. أي أن هناك أزمة نفسية في العالم. وهو يبحث عن حل لهذه الأزمة النفسية، هذا هو الواقع الغربي وهو واقع نفس الإنسان

المجهولة التي تحتاج إلى تطهير ديني وتحتاج إلى لغة القرآن والدعاء: ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾،[1] فبدون ذكر الله تتأزم نفس الإنسان «وطهارة لأنفسنا وتزكيةً لنا وكفارةً لذنوبنا». الحمد لله الذي خلقنا ورزقنا طيب الولادة، فهناك ناس سلب الله تعالى منهم طيب الولادة ومنهم عمر بن سعد، الحظ السيء هو الذي ساقه إلى مقتل الإمام الحسين وإلاّ فإنه كان يجهز جيشاً لفتح بلاد الري، حيث جاءه الأمر أن يتوجه إلى حرب الحسين بدلاً من بلاد الري وهو كقائد حاول أن يناقش قليلاً ويمتنع وطلب مهلة ليلة واحدة لكن هذا هو الشقاء وخبث السريرة جعله يقول:

أأترك ملك الري والري منيتي   أو أرجع مأثوماً بقتل حسين

في الرواية أن الحسين عليه السلام في ليلة عاشوراء طلب اللقاء بابن سعد، جاء الحسين عليه السلام ومعه عشرون فارساً ومعه العبّاس والأكبر وخرج بن سعد ومعه عشرون فارساً ومعه ابنه حفص وغلام له، ولما تقاربوا أمر الحسين عليه السلام أصحابه أن ينسحبوا عنه وبقي معه العبّاس والأكبر، وهكذا فعل ابن سعد وبقي معه ابنه حفص وغلامه، واجتمعوا اجتماعاً مؤلفاً من ستة أشخاص ثلاثة لكل جانب.

الحسين وحسب المعرفة السابقة مع بن سعد قال له: «أتقاتلني يا بن سعد؟ أما تخاف الله فينا؟».

قال بن سعد: أخاف أن تُهدم داري.

قال عليه السلام: «أنا أعطيك داراً».

قال: أخاف أن تؤخذ ضيعتي.

---

(1) الرعد: ٢٨.

قال عليه السلام: «أنا أخلف عليك بما عندي في المدينة»، وهكذا كلما عرض الحسين عليه شيئاً أبى ابن سعد حتّى قال له الحسين عليه السلام: «أرجوا أن لا تنال من بُرّ العراق».

قال: إن لي في الشعير كفاية.[1]

هذه هي خسارة الدنيا والآخرة، ومع ذلك يهزأ بها بن سعد وذلك من سوء حظه وشقائه، بينما _ لاحظوا _ في الطرف الآخر طيب الولادة وحسن الحظ لدى أصحاب الحسين عليه السلام، وكيف إن الله تبارك وتعالى قد ساقهم إلى هذا الشكل حتّى أصبحوا سادات الشهداء، فلا يوجد أحد أعظم يوم القيامة من أصحاب الحسين عليه السلام، أي حظٍ سعيد هذا؟ وأي ولادةٍ طيبة؟ وأي أم مباركة ولدت هؤلاء؟

ولهذا ليلة عاشوراء لما قالت الحوراء زينب للحسين عليه السلام وهي تسأله عن أصحابه وتقول: هل خبرتهم؟ هل بلوتهم؟ إني أخشى أن يخذلوك عند الوثبة.

قال لها الحسين عليه السلام: «لقد بلوتهم وخبرتهم فلم أجد فيهم إلاّ الأشوس الأقعس يستأنسون بالمنية دوني».

ولما وصل الخبر إلى الأنصار أقبلوا إلى خيمة العقيلة زينب ليطمئنوا قلبها.

فقالت لهم: أيها الطيبون حاموا عن بنات رسول الله صلى الله عليه وآله.

إنا لله وإنا إليه راجعون

* * *

(1) لواعج الأشجان: ١١٣.

المحاضرة الخامسة والخمسون:

منزلة الشيعة ومنزلة الأئمّة عند الله

«فَكُنَّـا عِنْـدَهُ مُـسَلِّمِينَ بِفَـضْلِكُمْ وَمَعْـرُوفِينَ بِتَصْدِيقِنَا إِيَّاكُمْ».

بسم الله الرحمن الرحيم

اليوم لدينا مجموعة بحوث:

البحث الأوّل: منزلة شيعة أهل البيت عند الله تعالى.

البحث الثاني: منزلة الأئمّة الأطهار عليهم السلام عند الله تعالى.

هذان البحثان انطلاقاً مما وصلنا إليه في الزيارة الجامعة الكبيرة حينما تقول: «فكنا عنده مسلّمين بفضلكم معروفين بتصديقنا إياكم»، هذا يدعونا للحديث عن موقع الشيعة ومنزلتهم عند الله تعالى، ثمّ ننتقل للبحث الثاني حينما يقول: «حتّى بلغ بكم أشرف محلّ المكرَّمين وأعلى درجات المرسلين حتّى لا يبقى مَلَك مقرَّب ولا نبيٌّ مرسَل إلا عرَّفهم جلالة قدركم وعِظَمَ خَطَركم»، هذا هو حديث عن منزلة أهل البيت عليهم السلام.

منزلة الشيعة:

أمّا منزلة شيعة أهل البيت فنحن متفقون في النظرية الإسلاميّة وفي الثابت القرآني أن الله ليس بينه وبين أحد من العباد قرابة، إنما المقياس هو التقوى حيث لا فضل لعربي على عجمي ولا أبيض على أسود إلا بالتقوى. ونحن نختلف عن اليهود الذين يقولون نحن أبناء الله وأحباؤه وهي نظرية شعب الله المختار، لدى الإسلام والمسلمين مقياس القرب من الله والبعد من الله هو التقوى ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾[1] حينئذٍ على هذا المقياس ما هو موقع الشيعة؟

---

(1) الحجرات: ١٣.

موقع الشيعة باعتبار أنهم هم الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه، هم الذين سمعوا وصية رسول الله ﷺ، هم الذين صدّقوا ما جاء من عند الله، هم الذين ما اعترضوا على الله حينما قال لنبيه ﷺ: ﴿يا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ ما أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَما بَلَّغْتَ رِسالَتَهُ﴾،[١] بما أن الشيعة هم الذين التزموا بالضوابط الدينية يكون في منظورنا ومعتقدنا الديني أن «شيعة عليّ هم الفائزون»،[٢] هذا ليس على أساس المحابات والنسب والقرابة بين أحد وبين الله، لا نعتقد أن الشيعة بينهم وبين الله قرابة، لكن يوجد بينهم وبين الله العمل الصالح الذي هو ﴿فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوازِينُهُ * فَهُوَ فِي عِيشَةٍ راضِيَةٍ * وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوازِينُهُ * فَأُمُّهُ هاوِيَةٌ﴾،[٣] الموازين يوم القيامة بماذا تتكافأ؟ على أساس العمل الصالح، والشيعة شيعة أهل البيت قد ربحوا العمل الصالح بولاية محمّد وآل محمّد، وحينئذٍ حينما نقول إن الإيمان الحقيقي موجود لدى آل البيت وأتباع آل البيت، وكذا الإسلام الحقيقي موجود لديهم، حينما يقول تعالى: ﴿وَإِنِّي لَغَفّارٌ لِمَنْ تابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صالِحاً ثُمَّ اهْتَدى﴾،[٤] ذلك هو طريق أهل البيت لأنَ رسول الله ﷺ قال: «لن يفترقا حتّى يردا عليَّ الحوض».[٥]

وقال ﷺ: «مثل أهل بيتي فيكم مثل سفينة نوح من ركبها نجى ومن تخلف عنها غرق وهوى».[٦]

---

(1) المائدة: ٦٧.

(2) الخصال: ٤٩٦/ ٥.

(3) القارعة: ٦ - ٩.

(4) طه: ٨٢ .

(5) بصائر الدرجات: ٤٣٤.

(6) مناقب أمير المؤمنين عليه السلام ٢: ١٤٧.

هذه ثوابت عند كل المسلمين أن سفينة النجاة هم أهل البيت، فمن الذي ركب سفينة النجاة في الدنيا؟ الشيعة أو أولئك الذين أصطفوا ضد أهل البيت وأعرضوا عنهم وحملوا الناس على أكتاف آل محمّد؟

الشيعة وحدهم هم الذين ركبوا سفينة أهل البيت عليهم السلام ولهذا الزيارة تقول: «فكنا عند الله تعالى مسلّمين بفضلكم، معروفين بتصديقنا أياكم» أسماؤنا، هوياتنا، حبّنا، ولاؤنا، إيماننا كلّه محفوظ ومكتوب عند الله تبارك وتعالى «وأصوات الداعين إليك صاعدة، وأعمال العاملين لديك محفوظة» إذا الأصوات صاعدة إلى الله، والأعمال محفوظة عند الله، إذن هذه القلوب التي اعتمرت بحب آل البيت أيضاً معروفة عند الله «فكنّا عنده مسلّمين بفضلكم»، أي: معروفون في السماء حتّى وإن كنتم غير معروفين عند أهل الدنيا فأنتم معروفون عند أهل السماء.

أنا أقرأ لكم بهذا الصدد بعض الروايات عن الإمام عليه السلام يقول: «إن شيعتنا لمكتوبون بأسمائهم وأسماء أبائهم، أخذ الله عليهم وعلينا الميثاق، يردون موردنا ويدخلون مدخلنا، ليس على ملة الإسلام الذي جاء من عند الله غيرنا وغيرهم».

ذلك الراوي يقول: سيدي أسماؤنا مكتوبة؟

قال: «نعم أسماؤكم مكتوبة»، ثمّ عرض له صفحة قال: «هذه أسماؤكم».

قلت: سيدي اسمي موجود فيهم؟

نظر الإمام وقال: «نعم اسمك موجود فيهم».(١)

---

(1) ينابيع المعاجز: ١٣٧.

طبعاً هذه القضية ليست صعبة في قدرة الله تعالى وعلمه، اليوم العلم والتطور التقني يسجل ملايين الأسماء في قرص ليزري صغير، هل هي قضية محالة على الله تبارك وتعالى أن يسجل أسماء شيعتهم والمؤمنين بهم من أوّل يوم إلى آخر يوم، الأسماء مسجلة في صفحة واحدة عند أهل البيت عليهم السلام، اليوم بحمد الله هذه القضايا أصبحت طبيعية وسهلة حينما يقول الإمام عليه السلام: «أسماؤكم مسجلة عندنا»، طبعاً مسجَّلة عندهم بل نحن وهم شيء واحد، طينة واحدة، شجرة واحدة يعرف بعضها بعضاً.

الإمام الباقر عليه السلام في رواية ثانية يقول: «إن الله تبارك وتعالى أخذ ميثاق شيعتنا بالولاية لنا وهم ذر في عالم الذر ما قبل الدنيا ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾[١]...»، هذا يسمى عالم الذر، يوم أَخذ الميثاق بالإقرار له بالربوبية ولمحمّد بالنبوة ولعليّ بالولاية، وعرض على محمّد صلى الله عليه وآله أمّته في الظل في ذلك العالم عالم الأرواح رسول الله رأى أمّته على شكل أشباح مليونية، كلها رآها رسول الله وقائل يقول له: هذه ذريتك، وهذه أمّتك يا رسول الله، وهم أظلّة وقد خلقهم الله من الطينة التي خلق منها آدم، «... وخلق أرواح شيعتنا قبل أبدانهم بألفي عام وعرضهم عليهم وعرفهم رسول الله صلى الله عليه وآله وعليّ عليه السلام ونحن»،[٢] الإمام الباقر يقول: نحن بمجرد أن نرى واحداً من أتباعنا نعرفه بمجرد أن يتحدّثوا نعرفهم، هذا ليس بعيداً ولا تستغربوا منه، أنت الآن التق بشخص من الأشخاص وخلال دقائق معدودة تستطيع أن تكتشف هويته، هذا قلبه معك أو

(1) الأعراف: ١٧٢.

(2) الكافي ١: ٤٣٦.

ليس معك، مع أهل البيت أو ليس مع أهل البيت، سبحان الله الإنسان قلبه سرعان ما يُكشف على لسانه، وعلى معالم وجه، إذن أهل البيت يعرفون شيعتهم، هذا هو المحور الأوّل من البحث وهو: منزلة الشيعة عند الله تبارك وتعالى الذي يشير إليه قوله: «فكنا عنده مسلّمين بفضلكم».

منزلة أهل البيت عليهم السلام:

البحث الثاني أيضاً بحث علمي حول منزلة أهل البيت، ما هي منزلتهم عند الله تبارك وتعالى؟ وعند الخلائق، خلائق الأرض وخلائق السماء؟ هل فخرهم هو أنهم أوصى لهم رسول الله بالإمامة، أو مجرد أن أهل البيت عليهم السلام هم حملوا ميراث العلم وميراث النبوة، كعالم من العلماء، أو لهم موقع أعظم من ذلك؟

ثقافة أهل البيت تقول: إن منزلة أهل البيت أعظم من مستوى علماء وفقهاء وحملة علم فقط، أو أنهم أوصياء وخلفاء، بل لهم موقع في كل الوجود، لهم موقع معروف بين كل الخلائق، هذا الذي نقرؤه في هذه الزيارة «فبلغ الله بكم أشرف محل المكرمين وأعلى منازل المقربين وأرفع درجات المرسلين»، أنتم في أرفع درجة من درجات الأنبياء، وأرفع درجات المرسلين، حيث لا يلحقه لاحق ولا يصل أحد إلى موقع النبوة، إلى بيت النبي حيث لا يلحقه لاحق ولا يفوقه فائق ولا يسبقه سابق ولا يطمع في إدراكه طامع، حتّى العلماء النوابغ والعباد الزهاد لا يطمعون في الوصول إلى موقع عليّ والحسن والحسين، هذا أمر أُغلق الملف التابع إليه، وختمت به مراتب الرقي إلى مستوى «حتّى لا يبقى مَلَك مقرَّب ولا نبيٌّ مرسَل ولا صدّيق ولا شهيد ولا عالم ولا

جاهل ولا دنيٌّ ولا فاضل ولا مؤمن صالح ولا فاجر طالح، ولا جبار عنيد ولا شيطان مريد ولا خلق فيما بين ذلك شهيد إلاّ عرّفهم الله جلالة قدركم»، الكل من ملائكة السماء إلى أهل الأرض كل هؤلاء صالحهم طالحهم عرفهم الله جلالة قدركم، الكل يعرفون جلالة قدر النبي وآل بيت النبي «جلالة أمركم وعظم خطركم وكبر شأنكم وتمام نوركم» وهذا يحتاج إلى بحث كيف كان أهل البيت عليهم السلام في أعلى درجات المرسلين.

أوّلاً: أنتم تعرفون أنه كما الدنيا درجات ومراتب، الطلاب في المدرسة على درجات، والكسبة والتجار درجات، والشعب خاصة كذلك، الوزراء أيضاً درجات، الدنيا كلها درجات، فكذلك الآخرة درجات: ﴿وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً﴾،[1] يوجد شخص يوم القيامة جالس في صحراء خالية، ويوجد شخص في جنّات تجري من تحتها الأنهار، ويوجد ثالث في أعلى عليين والرابع عند مليك مقتدر، ويوجد خامس يقول للشيء: كن فيكون، ويوجد آخر تحت شجرة طوبى، هذه الشجرة التي أصلها في دار عليّ وأغصانها تتدلى في بيوت الشيعة، هذه شجرة طوبى.

الرواية تقول: «تحت شجرة طوبى خيل بلق _ شقراء _ لها أجنحة يركبها المؤمن فتطير خمسمائة عام في ظل شجرة طوبى»،[2] ﴿وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً﴾ الدنيا درجات والآخرة أيضاً درجات.

(1) الإسراء: ٢١.

(2) دعائم الإسلام ١: ١٣٤.

ثانياً: الأنبياء أيضاً لهم درجات ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلى بَعْضٍ﴾،[1] **يعني هناك مائة وأربعة وعشرون ألف نبي، صحيح كلهم أساتذة جامعة، لكن واحد يسمى تدريبي وآخر يسمى أستاذ معاون وثالث يسمى رئيس الجامعة ورابع يسمى دكتوراه وخامس يسمى بروفيسور وهكذا على سبيل المثال، إذن هذه مراتب عديدة، صحيح أنهم يدرّسون في الجامعة، الأنبياء هم مثل أساتذة الجامعة فهم أساتذة المجتمع لكن** ﴿فَضَّلْنا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلى بَعْضٍ﴾، **كان هناك خمس نجوم لامعة في سماء النبوات هؤلاء هم كبار الأنبياء، هؤلاء الذين يسميهم القرآن أولي العزم (نوح، إبراهيم، موسى، عيسى، وآخرهم النجم اللامع في سماء النبوة هو خاتم الأنبياء والمرسلين محمّد** ﷺ **) وأعلى درجة هي التي بلغها نبينا** ﷺ **نحن هكذا نعتقد أنه** ﷺ **عبر جميع المراتب والخطوات السلوكية في القرب من الله تعالى حتّى** ﴿كانَ قابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنى﴾[2] **دنواً واقتراباً من العليّ الأعلى، لا يوجد نبي وصلَ إلى مرتبة نبينا** ﷺ **ولذا هو ختم النبوات يعني انتهت النبوات إلى حيث وصل رسول الله** ﷺ.

المثال هكذا يقول: (ما وراء عبادان قرية)، يعني ما وراء نبينا ﷺ **مرتبة يمكن أن يكتشفها ويصلها نبي من الأنبياء** ﴿فَكانَ قابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنى﴾، **هذا المعنى أنا لست بصدد الاستدلال عليه لكن القرآن الكريم يذكره كواحد من مسلّماتنا الدينية، أن نبينا** ﷺ **هو أشرف المرسلين، هو الذي صلى خلفه الأنبياء، إبراهيم ونوح وموسى وعيسى** عليهم السلام **كلهم صلّوا خلف نبينا في المسجد الأقصى في ليلة الإسراء، وذلك يعني أنه**

---

(1) الإسراء: ٥٥.

(2) النجم: ٩.

أفضل منهم، يعني حينما يكون إمامهم يعني أنه متقدم عليهم، صلّوا خلفه ليلة أُسري به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، القرآن الكريم هكذا يقول: ﴿وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾،[1] وهكذا آية الميثاق المفسّرة بما هو الثابت أن الله أخذ على جميع النبيين ميثاق التصديق بنبي يأتي في آخر الزمان ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ﴾،[2] هذا ميثاق أخذه الله تعالى على سائر الأنبياء أن يؤمنوا بهذا النبي الخاتم، هذا النبي أفضل الأنبياء ونحن حديثنا بعد ذلك عن آل بيت النبوة عليّ الحسن، الحسين، فقد يقول قائل: إذا كان رسول الله أفضل من إبراهيم ونوح وعيسى فهل عليّ أيضاً هكذا، الحسن أيضاً هكذا، الحسين أيضاً هكذا.

النبي هو الخاتم لخط الكمال:

هذا البحث أنا سأربطه اليوم ببحث معاصر ساخن في المدنيّة الحديثة حيث يطرح بعض الكتاب المعاصرين الذين تأثروا بالفكر الغربي أنه يمكن أن يأتي شخص ويعبر ما وصل إليه النبي بحيث تكون إدراكاته وكشوفاته ومعلوماته أكثر من معلومات النبي ﷺ. نحن نؤمن بالنبي لكن يمكن أن يأتي شخص أعلى منه، يوجد الآن بين بعض المتغربين والمتأثرين بالفكر الغربي مثل هذا الحديث، بينما هنا الإسلام جاء حاسماً ليؤكد أن صفحة النبوة صفحة الكشف عن الغيب الأكبر قد

(1) الصف: ٦.

(2) آل عمران: ٨١.

أُغلِقَت ونبينا ﷺ قد ختمها «حتّى لا يسبقه سابق ولا يلحقه لاحق ولا يطمع في إدراكه طامع»،[1] لا يوجد أحد يأتي ويقول أنا أفضل من النبي، وأنا أكتشف أشياء لم يكتشفها الأئمّة، لأن أولئك كانوا في الجزيرة العربية وأيام البدو وقبل (١٤٠٠) سنة أمّا أنا الآن معلوماتي أكثر من معلوماتهم!! هذه القضية نحن نعتبرها خارجة عن البديهة الإسلاميّة والثابت القرآني أن نبينا ﷺ هو خاتم المرسلين وقد كُشِفَ له من عالم الغيب ما ليس لأحد قبله ولا لأحد بعده، فلا يأتي شخص من المتغربين ويقول أن النبي والأئمّة بالفعل كانوا علماء لكنهم كانوا يمثلون بداية النهضة العلمية ونحن اليوم نمثّل تطوراً في النهضة العلمية.

مع الأسف يوجد بعض الأطفال المتعلمين المتسكعين على موائد الغرب يتحدّثون بمثل هذا الحديث، هذا خطأ ﴿وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾،[2] لا يوجد لأحد كشفٌ أكبر من كشف نبينا ﷺ، وهذا بحث علمي نحن نستطرده استطراداً سريعاً.

أفضلية الإمام عليّ عليه السلام:

حديثنا عن أفضلية النبي على سائر الأنبياء وهذا ثابت عندنا، أمّا أفضلية الإمام عليّ عليه السلام فكيف؟ أيضاً رواياتنا تقول أن الأئمّة الأطهار من عليّ إلى قائمهم عليهم السلام هم أفضل من سائر الأنبياء، الدليل عليه أدلة كثيرة في نصوص الروايات لكن واحدة من تلك الأدلة التي استدلوا بها هي آية المباهلة وهي قوله تعالى: ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ

---

(1) المزار لابن المشهدي: ٥٢٩.

(2) الأحزاب: ٤٠.

الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ﴾،(١) حيث ثبت في التفسير أن الإمام عليّ هو نفس النبي فقد دعا رسول الله يوم المباهلة عليّاً وفاطمة والحسن والحسين فأصبح عليّ هو نفس النبي وإذا كان الإمام عليّ هو نفس النبي إذن هو أفضل من سائر الأنبياء، أنا أستعرض ما يذكره العلماء في هذا الأمر استعراضاً سريعاً وليس بصدد الوقوف عنده طويلاً، من الثابت عندنا أن الإمام عليّ عليه السلام أفضل من سائر الأنبياء دون أن يكون ذلك انتقاصاً من الأنبياء فلهم شأن عظيم، لكن نحن بصدد تفسير قوله: «حتّى وصل بكم أشرف محل المكرمين وأعلى منازل المقربين وأرفع درجات المرسلين»، أهل البيت بلغ الله بهم أرفع درجات الأنبياء.

الرواية عن أبي ذر الغفاري قال: بينما أنا ذات يوم مع رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «يا جندب من أراد أن ينظر إلى آدم في علمه وإلى نوح في عبادته وإلى إبراهيم في خِلّته ـ يعني خليل الرحمن ـ وإلى موسى في هيبته وإلى عيسى في زهده وإلى أيّوب في صبره فلينظر إلى هذا الرجل المقبل» فاشرأبت أعناق الناس لتعرف من هذا الذي يأتي ولديه كمال نوح وإبراهيم وموسى وعيسى، فإذا هو عليّ بن أبي طالب،(٢) من الثابت عندنا أن الأئمّة الأطهار بلغوا من العلم والتقوى والمنزلة عند الله تعالى أفضل مما بلغه الأنبياء، هنا علماؤنا يقولون: نحن نعتقد أن رسول الله أفضل من عليّ وعليّ أفضل من الحسن والحسن أفضل من الحسين

(1) آل عمران: ٦١.

(2) كمال الدين: ٢٥.

والقائم أفضل من سائر الأئمة الأطهار عليهم السلام من بعد الحسين عليه السلام، علماؤنا هكذا ينظرون أن القائم المنتظر أفضل من باقي الأئمّة إذن بين رسول الله وعليّ والحسن والحسين يوجد ترتب، الواحد أفضل من الآخر لكنهم بالمجموع أفضل من سائر الأنبياء، هذا هو تفسير قوله عليه السلام: «وأرفع درجات المرسلين».[١]

معرفة الوجود بمنزلتهم:

حينئذٍ يبقى السؤال المهم عن معنى قوله: «حتّى لا يبقى مَلَك مقرَّب ولا نبيٌّ مرسل ولا جبّار عنيد ولا شيطانٌ مَريد إلاّ عرَّفهم جلالة قدركم»،[٢] أن كل من في الوجود يعرف جلالة قدر أهل البيت عليهم السلام هل هذا صحيح؟ لأن الزيارة هكذا تقول: «ولا جبار عنيد ولا شيطان مريد ولا خلقٌ فيما بين ذلك شهيد إلاّ عرفهم جلالة قدركم وعظم خطركم»، وهذا له خمسة تفاسير نشير إليها في المحاضرة القادمة إن شاء الله تعالى.

لكن دعونا نذكر أحد تلك التفاسير الذي يقول: إن هذا العالم كله سيعرف حقيقة الأنبياء ويعرف حقيقة الأولياء إذا لم يعرفهم بعض الناس أيام حياته فإنه سيعرفهم عند موته، كل الناس عند الموت سيكتشفون الحقيقة سيكتشفون من هو رسول الله؟ من هو عليّ؟ ما هو الإسلام؟ هناك عند الموت لما ينظر الإنسان للعالم الآخر يعرف أنه كان على حق أم على باطل.

(1) المزار لابن المشهدي: ٥٢٩.

(2) مستدرك الوسائل ١: ٤٢٢.

قصة الحارث الهمداني:

ولهذا نجد الإمام عليّ عليه السلام في قصة الحارث الهمداني وهو رجل كبير من اليمن من بني هَمدان حين جاء ودخل على أمير المؤمنين أيام الاضطرابات السياسيّة ويوجد إرهاب يتحرك وهناك أمام الباب اضطرابات، والإمام أمير المؤمنين كالجبل الشامخ دخل عليه الحارث في تلك الاضطرابات السياسية وهو من شيعة أهل البيت مضطرباً قلقاً دخل وهو متوكؤ على عصاه لأنه رجل كبير في الثمانين من عمره دخل على عليّ قال له الإمام: «ما وراءك يا أخا همدان؟».

قال: يا أمير المؤمنين ساءني اختلاف الناس ببابك.

قال: «فيمَ اختلافهم؟».

قال: مختلفون فيك وفي الذين سبقوك، هذا يقول عليّ وذاك يقول عمر وثالث يقول أبا بكر ورابع يقول عثمان.

الإمام عليّ عليه السلام قال له: «يا أخا همدان، ألا إن خير شيعتي النمط الأوسط... وأبشرك يا حارث لتعرفني عند الممات، وعند الصراط، وعند الحوض، وعند المقاسمة، أقول للنار: هذا وليي فاتركيه وهذا عدوي فخذيه...».[1]

والحمد لله رب العالمين

* * *

(1) بحار الأنوار ٦: ١٧٨.

المحاضرة السادسة والخمسون:

معرفة الوجود بحقيقة أهل بيت النبوة

«حَتَّى لا يَبْقَى مَلَكٌ مُقَرَّبٌ وَلا نَبِيٌّ مُرْسَلٌ وَلا صِدِّيقٌ وَلا شَهِيدٌ وَلا عَالِمٌ وَلا جَاهِلٌ وَلا دَنِيٌّ وَلا فَاضِلٌ وَلا مُؤْمِنٌ صَالِحٌ وَلا فَاجِرٌ طَالِحٌ وَلا جَبَّارٌ عَنِيدٌ وَلا شَيْطَانٌ مَرِيدٌ وَلا خَلْقٌ فِيمَا بَيْنَ ذَلِكَ شَهِيدٌ إلا عَرَّفَهُمْ جَلالَةَ أَمْرِكُمْ وَعِظَمَ خَطَرِكُمْ وَكِبَرَ شَأْنِكُمْ وَتَمَامَ نُورِكُمْ وَصِدْقَ مَقَاعِدِكُمْ وَثَبَاتَ مَقَامِكُمْ وَشَرَفَ مَحَلِّكُمْ وَمَنْزِلَتِكُمْ عِنْدَهُ».

بسم الله الرحمن الرحيم

معرفة الوجود بمنزلتهم:

«حتّى لا يبقى ملك مقرب ولا نبي مرسل إلاّ عرّفهم جلالة أمركم».

ما زال الحديث عن منزلة أهل البيت عند الله تبارك وتعالى. وهذا المقطع من الزيارة يعطي مدلولاً جديداً يحتاج إلى تفسير.

النص هكذا يقول: «حتّى لا يبقى مَلَكٌ مقرَّب ولا نبيٌّ مرسَل ولا صدّيق ولا شهيد ولا عالِم ولا جاهل ولا دَنيٌّ ولا فاضل ولا مؤمن صالح ولا فاجر طالح ولا جبّار عنيد ولا شيطان مريد ولا خَلقٌ فيما بين ذلك شهيد إلاّ عرفهم جلالة أمركم».

ماذا يعني ذلك؟

يعني لا يوجد شيء لا في الأرض ولا في السماء، ولا ما بين الأرض والسماء، لا مَلَك ولا إنسان ولا جِن ولا حيوان، ولا شجر ولا مدر ولا مؤمن ولا كافر، ولا صالح ولا طالح حتّى الجبابرة حتّى العتاة المردة إلاّ وهم يعرفون منزلة أهل البيت!! حينئذٍ من حقكم أن تسألوا كيف ذلك؟ هل أن جميع الجبابرة وجميع الشياطين وجميع الكائنات الحية تعرف منزلة أهل البيت، الحيوانات الأشجار الجبال العتاة الملوك الجبابرة كلهم يعرفون منزلة أهل البيت كيف؟ وما هو الدليل؟ إذن كيف قتلوهم؟ كيف سجنوهم؟ كيف نفسر ذلك؟

هناك خمسة تفاسير لهذا النص: «حتّى لا يبقى ملك مقرب ولا نبي مرسل إلاّ عرفهم جلالة أمركم».

١ – المبالغة الأدبية:

التفسير الأوّل: أن هذا النص مذكور على سبيل المبالغة، باعتبار أن هذه أدبيات عربية وأن الأدب العربي فيه مبالغة تقول مثلاً: إن فلاناً عالم فذاعَ صيته في البلدان، ويعرفه أهل المشرق والمغرب. وأنت تقصد أنه عالم مشهور وليس بالضروري يعرفه جميع أهل الشرق والغرب، الأدب العربي فيه مبالغة، أحياناً يدخل صديق لك في البيت تقول له أشرَقَت وأنوَرَت، وأن لا تقصد بالضبط أن وجهه يشع نوراً، لكن الأدب العربي يسمح بذلك فتقول له: (أشرقت وأنورت) أو تقول له: (نوَّرت بيتنا اليوم) هذا ليس كذباً بل هذا على سبيل المبالغة، هكذا النص حينما يقول: حتّى لا يبقى مَلَك في السماء ولا إنس في الأرض ولا ما بين الأرض والسماء فإن هذا قد يكون على سبيل المبالغة وليس على سبيل الحقيقة والدقة.

هذا هو التفسير الأوّل، ولكن هذا التفسير مرفوض، لأن هذا النص الوارد في الزيارة لا يقبل المبالغة، هذا النص هو نصٌّ في الاستيعاب من الناحية اللغوية لا يقبل المجاملة، ولا يقبل المبالغة، وأحاول أن أوضح الفكرة لكم.

النص العربي مرة يمكن أن تحمله على المبالغة والمجاملة، ومرة لا يقبل الحمل على ذلك. حينما تقول مثلاً: اليوم دخل بيتي أربعة وعشرون شخصاً فإن هذا لا يمكن أن يكون على سبيل المبالغة فأنت ذكرت عدداً معيناً وهو لا يقبل المبالغة، مثال آخر: القرآن الكريم حينما يقول: ﴿يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَالأَرْضِ﴾،[1] فإن هذا لا يقبل المبالغة

(1) النور: ٤١.

وكذلك ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾،[1] فإن هذا لا يقبل المبالغة، هذا يسمى نص صريح في الاستيعاب والشمولية، وليس مطلقات يمكن أن تُحمل على سبيل المبالغة، والآن لاحظوا الإمام الهادي في الزيارة الجامعة لو كان يقول أنتم يا أهل البيت لكم منزلة عند الله تعالى حتّى يعرفكم الخلائق، فلعلك تقول هذا على سبيل المبالغة، لكن الإمام يعرض التفاصيل ويذكر العناوين بأسمائها يقول: «حتّى لا يبقى مَلَك مقرب ولا نبيٌّ مرسَل ولا صدّيق ولا شهيد ولا عالم ولا جاهل ولا دني ولا فاضل ولا مؤمن صالح ولا فاجر طالح ولا جبار عنيد ولا شيطان مريد»، هذا الأمر لو كان على سبيل المبالغة ما كان يتوسع بهذه السعة، ويخص هذه العناوين بالذكر «ولا جبار عنيد ولا شيطان مريد ولا خلق فيما بين ذلك إلاّ عرفهم جلالة أمركم»، هذا لا يقبل المبالغة والمجاملة هذا نصٌّ صريح ودقيق ومحسوب. ولا بدّ أن الإمام يقصد ما يقول: «أن لا يبقى نبي مرسل ولا ملك مقرب ولا شيطان مريد»، إلاّ وهم يعرفون قدركم.

٢ - النشأة الأولى:

التفسير الثاني: أن هذا النص يتحدّث عن النشأة الأولى لعالم الإنسان النشأة ما قبل الدنيا ولا يتحدّث عن نشأة الدنيا.

توجد ثلاث نشآت يعني ثلاث دوائر لوجود الإنسان ولنقل ثلاث مراحل، مرحلة ما قبل الدنيا، وعالم الدنيا الذي ولدنا فيه، وما بعد الدنيا.

هناك عالم يسمى النشأة الأولى وهو عالم ما قبل الدنيا، رحم الله

---

(1) الإسراء: ٤٤.

العلامة الطباطبائي صاحب كتاب تفسير الميزان له كتاب غاية في العمق وهو من روائع المنجزات الفكرية في عالم التشيع له كتاب مختصر لكن يستحق أن يكتب من ذهب اسمه (رسالة الولاية) وهو يتحدّث عن الإنسان ما قبل الدنيا والإنسان في الدنيا والإنسان ما بعد الدنيا) المراحل الثلاث للإنسان يستعرضها وفقاً للفكر الإسلامي.

القرآن الكريم يشير إلى أن هناك نشأة أخرى لهذا الإنسان قبل عالم الدنيا تسمى في الروايات بعالم الذر، أو عالم الميثاق. حيث القرآن الكريم في واحدة من الآيات يشير إلى هذا العالم بقوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قالُوا بَلى شَهِدْنا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هذا غافِلِينَ﴾،[1] في عالم ما قبل الدنيا الله جمع الخلائق وأشهدهم بالربوبية. وهنا تأتي روايات أهل البيت عليهم السلام المكررة والتي جمعها المجلسي في كتاب بحار الأنوار في الجزء السادس والعشرين والجزء الثالث والعشرين تقول: إن الله تبارك وتعالى في ذلك العالم حينما عرض الخلائق، وأشهدهم على أنفسهم بربوبيته أخذ عليهم الولاية للنبي وآل بيت النبي، فشهدوا بالولاية ولكن بعضهم حينما جاء لعالم الدنيا قَبِل بالولاية وبعضُهم جَحَدها، الروايات المتكررة تقول إن الخلق في عالم النشأة الأولى اعترفوا بربوبية الله ونبوة نبينا ومقام أئمّتنا في ذلك العالم بلا استثناء. وبعض الروايات تقول أن ولاية أهل البيت ليست معروضة على الخلائق من الإنس والجن والملائكة فقط، بل إن ولاية أهل البيت معروضة على جميع الكائنات حتّى الحجر

---

(1) الأعراف: ١٧٢.

والمدر فبعضٌ جَحد ولايتهم وبعض قبلها، أنا لست بصدد استعراضها وهي كثيرة، بعض الروايات تقول إن تلك الأرض الفقيرة المالحة هي تلك الأرض التي عرضت عليها ولايتنا فجحدتها فعاقبها الله تعالى فجعلها فقيرة مالحة. وتلك الأرض الطيبة المباركة هي تلك الأرض التي عرضت عليها ولايتنا فقبلتها.[١]

هذه مفاهيم أحببت أن أضعكم في أجواءها، ولكن أنا قلت لكم نحن لسنا مغالين ولا نقبل بالغلو، لكن لدينا أصولٌ قرآنية كل الكائنات تعترف بالربوبية. وهذا المفهوم نحن نقبله دينياً وقرآنياً بالنسبة إلى الله تبارك وتعالى كل من في الوجود يعترف بربوبية الله حتّى الحجر والحصى نقبل هذه القضية بصريح القرآن الكريم فقد يقول قائل هذا غلو لكن القرآن يقول: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾،[٢] هذا خارج إدراكنا لكننا نؤمن به، وهناك مفهوم آخر نحن غير قادرين على إدراكه أيضاً ﴿وَما أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً﴾.[٣]

اليوم كنت أقرأ في بعض التقارير العلمية عجائب يقول هذا التقرير العلمي إن الخلايا العصبية في بدن الإنسان تبعث في الثانية الواحدة خمسين مليون رسالة، يعني أنت حين تضع يدك على الورقة فهناك خمسين مليون رسالة تنتقل، وتتفاعل مع هذا الحدث، نحن ما زلنا في بداية طريق المعرفة.

ويقول إن خلايا الدماغ الإدراكية هي بتعداد نجوم مجرتنا (مجرة خط التبانة)، هذه المجرة التي أحد الأرقام الضخمة تقول إن عدد نجوم

---

(1) البحار ٥٤: ٧٦.

(2) الإسراء: ٤٤.

(3) الإسراء: ٨٥ .

خط التبانة مليون مليون نجم، هذه السماء التي تشاهدونها كلها عبارة عن زاوية تكاد لا ترى بالعين من صغرها بالنسبة إلى عالم السماء الفسيح، هي بمثابة مجموعة تراب تضعها إلى جانب سلسلة جبلية مثل سلسلة جبال هملايا، أن نسبة مجرتنا إلى عالم السماء كنسبة مجموعة التراب إلى جبال الهملايا، وهذه مجرتنا فيها أقل ما يقول الفلكيون مليون مليون نجم، وبعض هذه النجوم أكبر من الشمس بمئات المرات وبعض هذه النجوم بحجم الشمس وبعضها بحجم الأرض وهكذا.

ويقول هذا التقرير: إن بعض هذه النجوم الفاصلة بينها وبيننا مئتا مليون سنة ضوئية بينما نحن نعرف أن الفاصلة بين الكرة الأرضية وبين الشمس التي هي عبارة عن مئة وخمسين مليون كيلو متر، هذه الفاصلة الكبيرة جداً بحسب تصورنا يقطعها نور الشمس في سبع دقائق. بينما بعض النجوم في مجرتنا تبعد مئتي مليون سنة ضوئية، ليس غريباً حينما نعتقد قرآنياً أن السماء والأرض والجبال والبحار كلها تسبح بحمد الله وكلها تؤمن بولاية محمّد وآل محمّد، ليس عجيباً ذلك. رغم أنه خارج إدراكاتنا.

التفسير الثاني يقول: إنه في عالم النشأة الأولى للإنسان عرضت عليه ولاية الله والنبي والأئمّة الأطهار فقبلها الناس فمن جحدها في الدنيا كان كافراً ومن لم يجحدها كان مؤمناً، إذن هذا النص لا يتحدّث عن الدنيا حينما يقول: «حتّى لا يبقى جبار عنيد ولا شيطان مريد» وإنما يتحدّث عن نشأة ما قبل الدنيا في هذا العالم. فإن كثيراً من الناس لا يعترفون بأهل البيت ولا يقبلون بمنزلتهم، لكن هذه الزيارة تتحدّث عن عالم النشأة الأولى، هذا هو التفسير الثاني.

٣ - المعرفة الفطرية:

التفسير الثالث: هو المعرفة الفطرية لمنزلتهم فحين يقول: «إلاّ عرّفهم جلالة أمركم، وعظم خطركم ومنزلتكم، وثبات مقامكم» إنما يتحدّث عن المعرفة الفطرية بشأنهم.

ولتوضيح ذلك نقول: إن لدنيا مفهوماً قرآنياً وهو إن الإنسان مفطور على التوحيد ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّماواتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾،[1] **القرآن يقول: إن الناس جميعاً وحتّى الكافر منهم هو في عمق فطرته مؤمن بالله تعالى، وهذا مفهوم يحتاج إلى شرح، كيف أن كل الناس حتّى الكافر هو مؤمن؟ هذا يحتاج إلى تفسير، فالإيمان بمعنى البحث عن الحقيقة، وعن المطلق وعن المدبّر لهذا الوجود، إذن كل إنسان حتّى ذلك الكافر هو يركض وراء حقيقة وهو يدري أن وجوده في هذه الدنيا مرتبط بحقيقة أكبر منه، رغم أنه لا يعرفها لكنه يبحث عنها ويشعر بها، وحتّى أشد الناس كفراً هو يدرك في عمق وجدانه أنه لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً.**

هناك معرفة فطرية بأن الوجود أكبر منّا، بأن هناك شيء أعظم منا، سوى أن بعض الناس يسلّم لهذه الحقيقة فيسجد لها ويتواضع ويصلي ويناجي ويدعو وهو المؤمن، ومنهم من يجحد وذاك هو الكافر.

ونحن إذا قبلنا هذا المفهوم ﴿فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْها﴾،[2] **حينئذٍ هذا المفهوم يتمدد إلى ولاية أهل البيت وأنه «ما من جبار عنيد**

---

(1) الزخرف: ٩.

(2) الروم: ٣٠.

ولا شيطان مريد، ولا خلق فيما بين ذلك شهيد إلاَّ عرَّفهم جلالة أمركم»[1] إشارة إلى تلك المعرفة الفطرية التي تعني أن كل الناس في عمق فطرتهم يعرفون الله، ويعرفون رسالات الله ورسله، لا بشخص هذا النبي وهذا الإمام، وإنما من خلال البحث عن الشريعة الحقّة والقيَم الإلهية وأصحابها، يبحثون عن المنقذ، عن الحبل بين الأرض والسماء، يبحثون عن نبوة تمتد لهم من عالم الغيب. حتّى أولئك الكفرة هم يبحثون عن خيط يوصلهم بعالم السماء. هذه معرفة فطرية تسمى البحث عن الحقيقة، بحث عمّا وراء الدنيا، ما وراء عالم الشهادة، «إلاَّ عرفهم جلالة أمركم»، هناك صوت في عمق الوجدان الإنساني اسمه صوت الحق، اسمه صوت الفطرة، ذلك الصوت الوجداني في عمق الفطرة، مؤمن بالله والرسول والأئمّة والأنبياء في عمق الفطرة، لكن ذلك الصوت تراكمت عليه الأصوات وتراكمت عليه الإذاعات وتراكمت عليه الفضائيات فأصبح لا يسمع نداء الفطرة، ولعلَّ إلى ذلك تشير الآية الكريمة ﴿رَبَّنا إِنَّنا سَمِعْنا مُنادِياً يُنادِي لِلْإِيمانِ﴾،[2] متى سمعنا المنادي الذي ينادي للإيمان؟ أنا وأنتم ما سمعنا بأذننا هذا النداء، ورغم ذلك فنحن نقول: ﴿رَبَّنا إِنَّنا سَمِعْنا مُنادِياً﴾ في قلب فطرتنا، أخرج نصف الليل وأنظر إلى السماء والنجوم وحينئذٍ يجب أن تخر ساجداً ﴿إِنَّنا سَمِعْنا مُنادِياً يُنادِي لِلْإِيمانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنا فَاغْفِرْ لَنا ذُنُوبَنا﴾، هذا هو نداء الفطرة: أيها الإنسان إنك فقير، إنك محتاج إلى منقذ، إلى مرشد، إلى مربي، إلى

---

(1) الفقيه ٢: ٦١٣.

(2) آل عمران: ١٩٣.

مصلح، إلى أخلاق، إلى قيم، إلى ميزان عدالة، الناس كلهم يركضون وراء المنقذ، والمنقذ هو الأنبياء والأئمّة، إذن كل الناس يركضون وراء الأئمّة لكن أحدهم يتصور أن الإمام هو أبو حنيفة، والآخر يتصور أن الإمام هو الإمام الصادق والثالث يتصور أنه هو البابا، الجميع يبحث عن الإمام الحق لكن بعضهم أخطأ الطريق وظل كمن يركض وراء سراب فحسبه من بعيد ماءاً.

الناس يبحثون في عمق الفطرة عن منقذ هو الإنسان الكامل وكل واحد منهم يريد أن يقتدي به، كل البشر يريدون قدوة، والقدوة هم الأنبياء والأئمّة، إذن الناس يعرفون أن هناك إنسان هو القدوة وأن صفاته هي الصفات المثالية الكاملة، لكنهم لا يعرفون هذه القدوة بالشخص ويعرفونها بالصفات، كما أن الناس مثلاً يعرفون البرق والرعد في مظاهره ولكنهم لا يعرفون حقيقته، فهم يعتقدون بوجوده رغم أنهم لا يعرفون حقيقته، هذا هو ما نسمّيه المعرفة الفطريّة الإجماليّة لمقام الأنبياء وأئمّة الهدى، هذا هو التفسير الثالث لقوله: «إلاّ عرفهم جلالة أمركم وعظم خطركم».

٤ - المعرفة الوجودية:

التفسير الرابع لقوله: «حتّى لا يبقى ملك مقرب ولا نبي مرسل إلاّ عرّفهم جلالة أمركم وعظم خطركم»: هو المعرفة الوجودية وهذا حديث فلسفي نحاول أن نفتح له نافذة ثمّ نغلق تلك النافذة لأن طبيعة عرضنا للبحث لا يتحملها.

لاحظوا مثلاً أن الله تعالى سخّر لسليمان الجبال والطير كلٌّ له

أوّاب ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ﴾،[1] الجبال والرياح والطير والسحاب تفهم أمر النبي، وتعرف كلامه. وهذا مفهوم قرآني ثابت ولا أحد منّا يؤمن بالله وبالنبوة يشكّك في هذا المفهوم، وهذا يعني أن الكائنات كلها ذات مستوى من مستويات الإدراك لكن هذا الإدراك غير مكشوف لنا، وربما أحياناً وفي ظروف استثنائية يكشف الله تعالى هذا الأمر، كما حينما نزل رسول الله ﷺ من غار حراء فما كان شيء مما يمر عليه في الطريق من حصى وحجر ومدر إلاّ وهو يقول: «السلام عليك يا رسول الله»، يعني ذلك أن الجبل والحجارة والحصى له إدراك وهذا في الحقيقة اعتقاد فلسفي يؤمن به فلاسفة التوحيد حيث يعتقدون أن كل الموجودات لها نسبة من الإدراك، هذه الأرض التي تمشون عليها تقول الروايات إن الأرض إذا مشى عليها مؤمن تقول له:

«أيها المؤمن مرحباً بك مشيت على سطحي سأجازيك»، وإذا مشى عليها الكافر تقول: «لا بارك الله فيك أنت تمشي على سطحي سأكافئك حينما تأتي لي»،[2] إذن توجد نسبة من نسب الإدراك وهنا بحث فلسفي واسع يقول إن الله تعالى هو الوجود وكل موجود أعطاه الله نسبة من نِسَب الإدراك، وأكثر ما أعطى الإنسان، وعلى أساس هذه الرواية إذا كانت الكائنات عندها نسبة من

---

(1) سبأ: ١٢.

(2) في الكافي ٣: ٢٣٩/ ح ١٢/٤٧٢٤ عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «إن المؤمن إذا أُخرج من بيته شيعته الملائكة إلى قبره يزدحمون عليه، حتّى إذا انتهي به إلى قبره قالت له الأرض: مرحباً بك وأهلاً لقد كنت أحب أن يمشي عليَّ مثلك... وإن كان كافراً خرجت الملائكة تشيعه إلى قبره يلعنونه، حتّى إذا انتهي به إلى قبره قالت له الأرض: لا مرحباً بك ولا أهلاً، لقد كنت أبغض أن يمشي عليَّ مثلك...».

الإدراك، إذن كما أن الجبال سبحت مع داود إذ كلما كان يقول الله أكبر يسمع الصدى من الجبال الله أكبر، وكان يأمر الرياح والطير والجن فتطيع أمر سليمان، إذا كان هذا مقبولاً ليكن مقبولاً إذن أن كل الموجودات أيضاً لها نسبة إدراكية لمقام الأنبياء وآل بيت النبوة وكل الموجودات تعرف أن هذا نبي وهذا إمام وهؤلاء آل بيت النبوة، هذه النظرية نسميها نظرية المعرفة الوجودية لمقام الأنبياء ومقام الأئمّة.

هـذه الأرض حينمـا ينـزل عليهـا المطـر كيـف تتلقـى مـاء المطـر؟ وكيـف تـستوعب المطـر؟ وكيـف تمـتص المطـر؟ هـذا النبـات حينمـا تـشرق عليـه الـشمس كيـف يحتـضن نـور الـشمس؟ جـذور النبـات كيـف تـدخل عمـق الأرض وتبحـث عـن المـاء؟ كلهـا ذات معرفـة وجوديـة، لا يوجـد شـيء فـي الوجـود لا يملـك مـستوى مـن مـستويات المعرفـة، لا ورق الأشـجار ولا قطـرات الأمطـار، ولا جـذور النباتـات، ولا قمـم الجبـال، هـذه معرفـة وجوديـة تعنـي أن كـل شـيء يعـرف الـشيء الـذي ينفعـه والـشيء الـذي يـضره ﴿وَلَكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾،[1] كـل الموجـودات لهـا معرفـة بـالله والنبوات وأهل البيت.

٥ – المعرفة عند الموت:

التفسير الخامس والأخير هو أن الناس يعرفون منزلة أهل البيت عند الموت، بمعنى أنه إذا كان في الدنيا غير عارفٍ بمنزلتهم فإنه سيعرف منزلتهم عند الموت ولعلَّ إلى ذلك تشير آية قرآنية تقول: ﴿وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلاَّ لَيُؤْمِنَنَّ

(1) الإسراء: ٤٤.

بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ﴾[1] يعني لا يوجد أحد _ كما تقول الروايات عن الإمام الباقر والإمام الصادق عليهما السلام _ من أبناء الأديان لا يهود ولا نصارى إلاّ وهو عند موته ينكشف له الأفق والحقيقة ويرى النبي ويرى علياً ويرى الأئمّة الأطهار، وسيذعن لهم حينئذٍ لكن ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لا يَنْفَعُ نَفْساً إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ﴾،[2] الكل سيكتشفون الحقيقة عندما ينتقلون من عالم الدنيا إلى عالم ما بعد الدنيا، «إلاّ عرَّفهم جلالة أمركم وعظم خطركم»، عند الموت وما بعد الموت، لا يوجد واحد يقول أنا ما كنت أدري «ولا جبّار عنيد ولا شيطان مريد إلاّ عرَّفهم جلالة أمركم».

أبو بكر يطلب رضى الزهراء عليها السلام:

الخليفة الأوّل أبو بكر قال: يا عليّ أطلب لنا وقتاً ندخل على الزهراء عليها السلام ونعتذر منها، حيث بلغنا أن الزهراء غير راضية علينا فهم يعرفون أن الزهراء يرضى الله لرضاها ويغضب لغضبها، هم يعرفون ماذا فعلوا، الآن بعد أن أستتب الحكم لهم قالوا سنمتص غضب الرأي العام.

جاء أبو بكر وعمر كما يذكر ذلك بن أبي الحديد المعتزلي[3] وهو من أهل السنّة إلى عليّ وقالوا: يا عليّ خذ لنا إذناً ندخل على فاطمة نعتذر منها.

جاء عليّ إلى الزهراء قائلاً: يا فاطمة جاءني فلان وفلان يطلبون الإذن بالدخول عليك ليعتذرا.

قالت: لا آذن لهما.

---

(1) النساء: ١٥٩.

(2) الأنعام: ١٥٨.

(3) شرح نهج البلاغة ١٦: ٢٨١.

قال: فإني قد أذنت لهما.

قالـت: إذا كنـت قـد أذنـت فالبيـت بيتـك والحـرة زوجتـك، فأذِنَـت لهما، فأخبرهما فدخلا على الزهراء.

وقبل أن يدخلا طلبت الزهراء من فضة أن تدير وجهها إلى الجدار، وهذا له معنى، وهو أن فاطمة بنت رسول الله تستقبلهم بهذا الشكل، فدخلا وسلّما عليها فلم ترد عليهما السلام فجاءا عن يمينها فأدارت وجهها إلى شمالها.

فقالا: يا بنت رسول الله كلمينا.

قالت: لا والله لا كلمتكما كلمة حتّى تجيباني على سؤال أسألكما.

قالا: سلي يا بنت رسول الله.

قالـت: أنـشدكما بـالله هـل سـمعتما أبـي يقـول: «فاطمـة بـضعة منـي يرضى الله لرضاها ويغضب لغضبها يؤذيني ما يؤذيها»؟

قالا: بلى والله سمعنا ذلك.

قالت: اللهم اشهد وأنتم أشهدوا يا من حضر أنهما قد أغضباني وآذياني، ثمّ التفت إلى أبي بكر وقالت: والله لأدعون عليك عقيب كل صلاة.

فقام أبو بكر يتظاهر بالبكاء.

فقـال عمـر: أتبكـي لقـول امـرأة!! ومـا هـي إلاّ أيـام حتّـى دنـت منهـا الوفاة فـدعت أمير المـؤمنين قائلـة: يـا أبـا الحسن إذا أنـا مِـتُّ فحنطنـي ببـاقي حنـوط رسـول الله وكفّنـي وادفنـي لـيلاً إذا نامـت العيـون، وهـدأت الأصـوات ولا تدع أحداً من هؤلاء الذي ظلموني يشهد جنازتي.

إنا لله وإنا إليه راجعون

* * *

المحاضرة السابعة والخمسون:

علاقتنا التاريخيّة الوجودية

بأهل البيت عليهم السلام

«فَكُنَّا عِنْدَهُ مُسَلِّمِينَ بِفَضْلِكُمْ وَمَعْرُوفِينَ بِتَصْدِيقِنَا إِيَّاكُمْ».

بسم الله الرحمن الرحيم

الحديث هذا اليوم في شرح هذا المقطع من الزيارة: «فكنا عنده مُسلّمين بفضلكم»، الزيارة هكذا تقول: «خلقكم الله أنواراً فجعلكم بعرشه محدقين حتّى منّ علينا بكم فجعلكم في بيوتٍ أذن الله أن ترفع ويُذكر فيها اسمه وجعل صلواتنا عليكم طيباً لخلقنا وطهارةً لأنفسنا وتزكيةً لنا وكفارةً لذنوبنا...» إلى أن يقول: «فكنا عنده مُسلّمين بفضلكم» يعني نحن في سجل الله تبارك وتعالى معترفون ومسلّمون ومؤمنون بولايتهم عليهم السلام.

هذا المقطع «فكنا عنده مسلّمين بفضلكم» فيه أربعة مواقف:

الموقف الأوّل: قال: «كنا» ولم يقل: (صرنا).

الموقف الثاني: قال: «عنده» ولم يقل: (عند الناس).

الموقف الثالث: قال: «مُسلّمين» ولم يقل: (معترفين).

الموقف الرابع: «بفضلكم».

هذه أربعة مواقف في هذه الجملة الصغيرة التي هي عبارة عن أربع كلمات.

الموقف الأوّل: «كنا»:

لاحظوا أن الزيارة لم تقل: (فصرنا مسلّمين) بل قالت: «كنّا» فهناك فرق بين الكلمتين، يعني مرة نحن بعد النبوة وبعد الإمام صرنا معترفين مصدقين، هذا مفهوم وهناك مفهوم آخر تعطيه الزيارة فتقول: كنا من

قبل، الآن في عالم الدنيا اكتشفت الحقائق لكن نحن ما قبل الدنيا كنا مصدقين ومعترفين ومُسلّمين.

لاحظوا أن الأئمّة عليهم السلام عندما يعبّرون عبارة فإن لها مدلولاً، هذا إشارة إلى معنى عظيم أن الإيمان بالنبوة والإيمان بالله والأئمّة الأطهار هو أمر ثبته الله تعالى لنا قبل أن نُخلق وقبل أن ننزل إلى عالم الدنيا، الله تبارك وتعالى خلقنا من طينةٍ طيبةٍ، وسجل هناك في ذلك العالم أسماء المؤمنين وأسماء الكافرين، أصلاً قبل أن نولد كانت أسماؤنا موجودة، أنا أقرأ لكم رواية وهذه أحاديث علمية فلسفية مهمة لكن نحن مضطرون لأخذ لمسات بسيطة، والحمد لله الشباب المؤمن اليوم ينفتح على آفاق علمية ومن حقه أن يتساءل ولا نمر على القرآن الكريم أو على الزيارات والأدعية مرور الكرام بل يجب أن نقف ونتأمل، لماذا قال: «كنا عنده مُسلّمين» ولم يقل: (صرنا عنده مُسلّمين)؟

هنا الرواية عن الإمام الباقر عليه السلام ونحن في مثل هذا اليوم وهو الأوّل من رجب نعيش ذكرى ولادته عليه السلام والرواية يرويها عليّ بن أبي حمزة البطائني الذي يقول: دخلت أنا وأبو بصير على الإمام الباقر عليه السلام فدعا بصحيفةٍ فبدأ يفتح هذا السجل من أعلاه إلى أعلى ويظهر أسفله كتابة ويقرأ ما في الأسفل وإذا هذا السجل مكتوب فيه أسماء والإمام ينظر فيها، ثمّ قال لي: «يا عليّ أدنُ» فدنوت وإذا بهذا السجل أسماء فلان بن فلان وفلان بن فلان وأولاده وآبائه، أسماء كثيرة، يقول: فنظرت إلى ذلك السجل وإذا فيه اسمي واسم أبي واسم أولادي واسم أولاد لي لم يولدوا بعد.

قلت: يا بن رسول الله ما هذا؟

قال: «هذه أسماؤكم وأسماء شيعتنا فأسماؤهم مسجلة في هذا السجل».

ثمّ قال لي: «يا عليّ لولا أن لك عندي ما ليس لغيرك ما اطلعتك على هذا السجل، أما أنهم _ يعني أولادك _ سيزدادون».

قال عليّ: فمكثت والله بعد ذلك عشرين سنة ثمّ ولد لي أولاد بعدد ما رأيت في ذلك السجل.(١)

الأسماء موجودة عندهم:

في الحقيقة هذا مفهوم جديد يقول أن أسمائنا موجودة في سجل، هذا المفهوم قد يتصور بعض الناس أنه مفهوم غريب وفيه غلوّ وتطرف ومسحة من التصوّف، لا ليس كذلك، المفاهيم الأكيدة عندنا أن جميع المؤمنين أسماؤهم مسجلة عند الله في لوح محفوظ وأسماء غير المؤمنين أيضاً مسجلة في لوح محفوظ فهل من المستحيل أو الصعب على الله تبارك وتعالى أن يعطي تلك الأسماء إلى أهل بيت النبوة؟ فمثل ما أنزل عليهم القرآن والوحي فالله تبارك وتعالى ينزل عليهم أخبار ما يكون في آخر الزمان ومن يأتي، هذا ليس أمراً عجيباً أو مستحيلاً أو صعباً، ألسنا نعتقد أن اسم نبينا صلى الله عليه وآله موجود في التوراة والإنجيل؟ الكتب الإلهية تحدّثت عن أسماء تأتي فيما بعد، موسى عليه السلام الفاصل الزمني بينه وبين عيسى عليه السلام هو (١٤٠٠) سنة والفاصل الزمني بين عيسى وبين نبينا صلى الله عليه وآله هو (٦٠٠) سنة على رواية يعني المجموع (٢٠٠٠) سنة، نحن نعتقد كما القرآن الكريم يقول: ﴿وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ

---

(1) مناقب آل أبي طالب ٣: ٣٢٦.

أَحْمَدُ﴾،[1] وهذا اسم نبينا ﷺ موجود في التوراة وفي الإنجيل بل عندنا روايات تقول: إن بعض أسماء أئمّتنا موجودة كما في رواية جابر بن عبد الله الأنصاري وهو من أصحاب رسول الله ﷺ وقد عمّر طويلاً حتّى أدرك الإمام الباقر عليه السلام.

رسول الله ﷺ في الرواية التي يرويها صحاح السنة وليس فقط صحاح الشيعة قال له: «يا جابر إنك ستبقى بعدي حتّى تلقى واحداً من ولدي اسمه باقر مذكور في التوراة إذا لقيته فبلّغه عني السلام».

الرواية تقول: إن جابر بن عبد الله الأنصاري امتدت به الأيام إلى أن أدرك الإمام زين العابدين، وذات مرة دخل على الإمام زين العابدين عليه السلام فرأى غلاماً صغيراً يمشي في البيت، نظر إليه وقال: يا هذا أقبل، جاء الغلام، قال له: أدبر فرجع الغلام.

قال: شمائل رسول الله ﷺ فهذا الغلام الصغير يذكّرني برسول الله في مشيته وشكله.

قال: من تكون أنت؟

قال: «أنا محمّد بن عليّ بن الحسين».

يقول: لما قال أنا محمّد وقع جابر وهو رجل كبير على قدمي هذا الغلام الصغير يقبّلهما ويقول: إن جدك رسول الله يُقرؤك السلام.

فقال الإمام الباقر عليه السلام: «وعلى أبي رسول الله السلام وعليك يا جابر السلام بما بلّغت السلام».[2]

---

(1) الصف: ٦.

(2) أمالي الصدوق: ٤٣٤/ ح ٩/٥٧٥.

الفكرة أن أسماء أئمّتنا موجودة في التوراة والإنجيل قبل (٢٠٠٠) عام قبل نزول القرآن، هي ليست مشكلة أن أسماء البشرية موجودة في لوح، فالآن في هذا الزمان وفي قرص ليزري صغير يمكن أن تحشر فيه ملايين الأسماء فهل هذا صعب على الغيب وعلى الله تبارك وتعالى أن توضع أسماء المؤمنين كلها في قرص سيدي صغير، وهذا القرص موجود عند رسول الله صلى الله عليه وآله؟ وأية مشكلة في ذلك؟ ولهذا فإن الزيارة تقول: «فكنا عنده» أي أن أسماءنا موجودة من قبل، لا تتصوروا أن القضية هي قضية آنية، الله تبارك وتعالى خلقكم من طينةٍ طيبة وخلق أعداءكم من طينةٍ خبيثة، ونتائج الطينة الطيبة وامتدادها معلومة عند الله تبارك وتعالى وأعطاها إلى أنبيائه وأوليائه.

الموقف الثاني: «عنده»:

ولم يقل: (عند الناس)، يمكن أننا عند الناس لدينا اعتبارات أخرى. فبعض الناس يسموننا الشيعة الروافض وبعضهم يتهم شيعة أهل البيت بالكفر والشرك، لكن عند الله ماذا؟ المقياس عند الله، أيها المؤمنون المقياس ليس الدنيا، المقياس نحن عند الله صالحون أو غير صالحين؟ نحن عند الله من الناجين أو من غير الناجين؟ نحن عند الله مؤمنون أو غير مؤمنين؟ أما في الدنيا ما اسمنا وماذا يقول عنا الناس، فهذا ليس له قيمة، الجنسية وسجل الأحوال المدنية المسجَّل اسمك فيه ليس له أي قيمة وأن يسجل اسمك فيه مسلم أو مسيحي غير مهم فالمهم عند الله. ولهذا الزيارة تقول: «فكنا عنده مُسلّمين»، نحن أسماؤنا عند الله موجودة ونحن مسلّمون بفضلهم، ولهذا امرأة فرعون ماذا قالت؟ ﴿قَالَتْ

رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتاً فِي الْجَنَّةِ﴾،[1] محل الشاهد هو (عندك) فنحن لا بدّ أن نفكر دائماً بما عند الله ولا نفكر بما عند الناس، ما عند الناس يزول، وسجل الناس يزول ولا بدّ أن نفكر بما عند الله، ولهذا نقرأ في زيارة الإمام الحسين عليه السلام في الدعاء: «اللهم اجعلني عندك وجيهاً بالحسين عليه السلام» وليس عند الناس. فعند الناس قد يكون الإنسان سجيناً وهو يقول: ﴿رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾،[2] قد يكون فقيراً ومطروداً أو ملاحَقاً لكن المهم هو «اجعلني عندك وجيهاً»، أن يكون الإنسان وجيهاً عند الله تعالى فذلك هو الفوز العظيم.

أيها المؤمنون أن نكون عند الله وجهاء ماذا يعني؟ الوجاهة في الدنيا تعني _ مثلاً _ أنه إذا دخل الشخص مجلساً فإن أهل المجلس كلهم يقومون له احتراماً، ويجعلونه في صدر المجلس، هذا الإنسان إذا كان يوم القيامة وجيهاً يعني أنه لما يدخل الجنّة فالملائكة يحتفون به سماطين، ورسول الله والأئمّة يقولون له: ﴿ادْخُلُوهَا بِسَلامٍ آمِنِينَ﴾،[3] وجيه يعني محترم عند الله تبارك وتعالى «اجعلني عندك وجيهاً بالحسين عليه السلام». ولهذا القرآن الكريم في قصة موسى عليه السلام يقول: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسى فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قالُوا وَكانَ عِنْدَ اللهِ وَجِيهاً﴾،[4] فموسى عليه السلام عند قومه بني إسرائيل كان متهماً بأسوء التهم الأخلاقية وهذا ما لا يصدّقه أحد، لكن القرآن يشير إليه، أن أمّة بني إسرائيل أمّة عجيبة في اللجاجة والحماقة والكفر بالنعمة، هذا نبيهم موسى اتهموه بتهمة

(1) التحريم: ١١.
(2) يوسف: ٣٣.
(3) الحجر: ٤٦.
(4) الأحزاب: ٦٩.

أخلاقية ولهذا القرآن يقول لنا: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسى فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قالُوا وَكانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهاً﴾**، ما الذي يضر موسى أن يكون عند قومه متهماً؟ وما قيمة قومه؟ وما قيمة الدنيا إذا كان عند الله وجيها؟ ولهذا فإن الزيارة تقول: «فكنّا عنده»، لا بدّ أن تفكروا دائماً بأن تكونوا عنده وليس عندنا، ولهذا يجب أن تقول: كم لي عند الله وليس كم لي عند الناس. القرآن الكريم يقول:** ﴿ما عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَما عِنْدَ اللَّهِ باقٍ﴾**،[1] هذا الفرق بين ما عندكم أيها البشر، حتّى لو عمّر الإنسان آلاف السنين. السيد رئيس الوزراء نوري المالكي كان عنده زيارة بالأمس إلى الكونغرس الأمريكي كما تعلمون، ومن جملة ما أُهدي له مجسم عراقي مسروق من متحف الآثار العراقية والآن قد أُعيدت هذه المجسمة، الأخبار تقول إن هذه المجسمة تمتد إلى (٢٤٠٠) سنة قبل الميلاد، الآن نحن في سنة (٢٠٠٦) من الميلاد، هذه الصخرة يكون عمرها الآن (٤٤٠٦) سنوات ولو بقيت (٤) ملايين سنة أو (٤٠) مليون سنة، القرآن يقول:** ﴿ما عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ﴾ **فالكل ينتهي** ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّماواتُ﴾**،[2] هذه الأرض والسماء كلها تنتهي وكل المجرات سوف تنتهي، وإذا كان ما عند الله باقياً أبد الآبدين، إذن نحن يجب أن نفكر بما عند الله، وليس بما عند الناس ولهذا تقول الزيارة: «فكنّا عنده» وليس عند الناس، ليقولوا علينا ما يقولون، لكن يجب أن نكون عند الله تعالى من الناجين والفائزين.**

الموقف الثالث: «مُسلّمين»:

بالتشديد على قراءة، وعلى قراءة أخرى «مُسلِمين» بدون تشديد

(1) النحل: ٦٩.

(2) إبراهيم: ٤٨.

السلام، والقراءة المعروفة هي الأولى، «فكنا عنده مُسلّمين بفضلكم»، ونحن بصدد زيارة أهل البيت عليهم السلام نقول لهم: كنا ببركتكم وفضلكم وهدايتكم ونوركم مسلّمين مؤمنين في علم الله تعالى، وأسماؤنا مسجلة في لوائح المؤمنين.

إذن الحديث عن هذه الكلمة «مسلّمين»، لاحظوا الزيارة لم تقل: (فكنا عنده عارفين بفضلكم)، فهناك شيء اسمه معرفة وشيء اسمه تسليم فإبليس كانت عنده معرفة بالله تعالى وبفضيلة آدم، وعنده معرفة كثيرة لكن لم يكن عنده تسليم، بل كان عنده كفر وجحود، إذن المعرفة لا قيمة لها بدون تسليم وإيمان، ولهذا قال: «كنا عنده مُسلّمين» وهذه نعمة من الله تعالى أن يجعل الإنسان يُسلّم بالحق حينما يراه، هناك ناس يرون الحق ويعرفونه، لكن أنفسهم لا تسمح لهم بالحق والإذعان له.

اليوم أريد أن أضرب لكم مثالاً:

ابن تيمية من أئمّة المذهب السلفي وهو في القرن السابع الهجري، حينما تقرأ كتابه (منهاج السُنّة) حقيقةً تعجب لهذا الإنسان أي قلبٍ أسود يمتلكه، فهو لا يدع فضيلة لعليّ إلاّ وكذبها ولا يدع سيئة لأعداء عليّ إلاّ وزيّنها وحسّنها، يعني إنني أقرأ وأمتلئ انطباعاً سيئاً عن هذا الإنسان، وحينما أقرأ لكم بعض مما يقول فإنكم لن تصدقوا ذلك، فضائل الإمام عليّ عليه السلام لا تخفى على أحد سواءاً كان سُنّياً أو شيعياً أو مسيحياً، فضائل الإمام عليّ عليه السلام ومنزلته وعلمه أو على الأقل شجاعته فلا أحد يشك في شجاعته عليه السلام حتّى الكفرة. وهذا تاريخ متواتر، لكن ابن تيمية هذا الإنسان يشك في شجاعة الإمام عليّ، وفي علمه ثمّ يصل به الأمر إلى الشك في إيمان الإمام عليّ فيقول: (إن الرافضة ليس لديهم

أي دليل على إيمان عليّ بن أبي طالب)، الله أكبر! أنا أقرأ لكم بعض النصوص مما يقوله ابن تيمية، هذه الكتب الموجودة من صحاح السُنّة وصحاح الشيعة، من الثابت فيها أن الإمام عليّ عليه السلام قال في شأنه رسول الله صلى الله عليه وآله: «لأعطينّ الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله»،[١] وذلك في معركة خيبر. ومثل ذلك بطولات الإمام عليّ في معركة الأحزاب حين قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «برز الإيمان كله»،[٢] وقال صلى الله عليه وآله: «ضربة عليّ يوم الخندق تعدل عبادة الثقلين»،[٣] كل هذا ثابت ومتواتر لكن اسمعوا ماذا يقول ابن تيمية شيخ المذهب الوهابي.

يقول: (إنه كان مخذولاً حيثما توجه)،[٤] عجيب! طبعاً أنا أعتذر لأن هذا سوء أدب لمقام الإمام عليّ عليه السلام لكن أريد أن أبيّن لكم سواد قلب هؤلاء النواصب، وكيف كانوا يتعاملون مع الأئمّة الأطهار عليهم السلام وهذه من أهم الحقائق، ليته أعطانا رقماً واحداً يدل على أن الإمام عليّاً دخل في معركة أو مفاوضات أو قضاء ثمّ خُذل.

ثمّ اسمعوا ماذا يقول أيضاً عن قتال الإمام عليّ، الذي جاء فيه النداء من السماء: «لا سيف إلاّ ذو الفقار ولا فتى إلاّ عليّ»،[٥] وهذا ثابت في صحاح السُنّة وليس الشيعة فقط، لكن اسمعوا هذا القلب الأسود لابن تيمية ماذا يقول.

---

(1) الكافي ٨: ٣٥١؛ شرح نهج البلاغة ١١: ٢٣٤؛ كنز العمال ١٠: ٤٦٢.

(2) مناقب أمير المؤمنين عليه السلام ١: ٢٢٣.

(3) ينابيع المودة ١: ٢٨٢.

(4) راجع الدرر الكامنة لابن حجر ١: ١٥٤ في ترجمة ابن تيمية، وقول ابن حجر فيه: ومنهم من ينسبه إلى النفاق لقوله: إنه كان مخذولاً حيثما توجه... إلخ.

(5) كنز العمال ٥: ٧٢٣؛ شرح نهج البلاغة ٧: ٢١٩.

يقول: (إنما قاتل عليّ للرئاسة لا للديانة وهذه ليست فضيلة)، ثمّ يقول عن معاوية: (إن معاوية إنما قاتل للطلب بدم المظلوم وهذا حق).

ثمّ يقول: (إن الرافضة تعجز عن إثبات إيمان عليّ وعدالته)، الله أكبر، ثمّ يأتي إلى فضائل الإمام عليّ عليه السلام فيقول: (إن هذه كلها كذب إلاّ عشر فضائل ثبتت في الصحاح لعليّ وهذه العشرة لم ينفرد بها بل كانت لغيره من الصحابة) مثلاً هو يعترف بقول رسول الله صلى الله عليه وآله في معركة خيبر: «لأعطين الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله»، واشرأبت أعناق الناس أنه من يكون هذا الشخص الذي يمتاز بهذا الوسام الجميل؟ وكل واحد يقول: يا ليت الراية لي غداً، فكان اليوم التالي وجاء أمير المؤمنين وكان لا يبصر بعينيه فوضع رسول الله صلى الله عليه وآله شيئاً من ريقه على عينيه فأبصر بهما فأعطاه الراية كما في القصة المعروفة، ثمّ يأتي ابن تيمية ويقول:

وأما قوله: «لأعطين الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله» فهذه عامة لكل المؤمنين وليس فيها أي امتياز لعليّ، إذا كان كلامه صحيحاً. إذن لماذا قال رسول الله هذا الكلام ولماذا اشرأبت الأعناق؟ ثمّ يا ابن تيمية من قال أن كل مؤمن يحبه الله ورسوله فكم من الناس لعنهم الله والقرآن الكريم وهم يزعمون أنهم مؤمنون، فإن فضيلة بهذا الشكل من الوضوح يأتي ابن تيمية ويسقطها. نحن نستغرب ما هذا العداء لعليّ؟

يأتي ابن تيمية إلى فضيلة ثانية ثابتة للإمام عليّ عليه السلام وهي أن رسول الله صلى الله عليه وآله رفعه على كتفه وكسر الأصنام على الكعبة، حيث أنه لما فتحت مكّة كان هناك (٢٠٠) صنم على الكعبة، رسول الله صلى الله عليه وآله قال للإمام عليّ: «يا عليّ اصعد على كتفي واسقط هذه الأصنام واحداً

واحداً»[1] فرقى عليّ عليه السلام على كتف رسول الله صلى الله عليه وآله وكسّرها، هذه ثابتة في التاريخ، وابن تيمية لا يقدر على تكذيبها، لكن يأتي ويقول: (وهذه أيضاً ليست منقبة لعليّ، ثمّ أن الحسن والحسين كانوا يصعدون على كتفه وهم أطفال. ومثلما يصعد الأطفال على ظهر النبي فعليّ أيضاً يصعد على ظهر النبي، فلا تلك منقبة ولا هذه منقبة)، لكن من حقنا أن نسأل لماذا لم يصعد شخص آخر غير الإمام عليّ؟ ولماذا لم يكسر الأصنام شخص آخر غير الإمام عليّ؟ في القرآن الكريم نقطة العظمة في إبراهيم هي أنه كسر الأصنام ولما سألوه: ﴿مَنْ فَعَلَ هذا بِآلِهَتِنا﴾؟ قال: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هذا فَسْئَلُوهُمْ إِنْ كانُوا يَنْطِقُونَ﴾، الآن الإمام عليّ يكسر الأصنام من بين كل المسلمين، ويكون له هذا الامتياز والافتخار. ويأتي ابن تيمية ويقول إن هذا ليس فيه أي امتياز لعليّ.

ثمّ يستمر إلى فضائل الإمام عليّ فيكذبها جميعاً أو إذا ثبتت فيقول: إنها ليست فضيلة. ويا ليت أنه تعامل بمثل هذه الدقة وروح البداوة في كل القضايا، لكن حينما يصل إلى ابن ملجم يقول: (كان ابن ملجم أعبد الناس)، ثمّ يصل إلى يزيد بن معاوية فيقول:

(إن يزيد أوّلاً لم يأمر بقتل الحسين.

وثانياً: أن ليس يزيد هو الذي هدم الكعبة وإنما هو ضرب الكعبة، بالمنجنيق وهي ليست المقصودة، بل قصده أن يضرب عبد الله بن الزبير الذي كان يتحصن في الكعبة، فالذي هدم الكعبة ليس هو يزيد إنما هو ابن الزبير)! ثمّ نصل إلى واقعة الحرة التي قُتل فيها عشرة آلاف، حتّى وصلت الدماء إلى

(1) الفضائل لابن شاذان: ٩٧.

الروضة النبوية بعد أن أباح يزيد المدينة للجيش وقال: إن هذه المدينة كلها مباحة لكم رجالاً ونساءاً وأموالاً، فيأتي ابن تيمية وهو لا يستطيع تكذيبها لكنه يحاول تخفيفها فيقول: (إنه ما قتل عشرة آلاف ولا قتل أكثر الناس، وإنه لم يقتل جميع الأشراف ولا وصلت الدماء إلى الروضة النبوية).

ثمّ يصل إلى قول رسول الله ﷺ: «عليّ مع الحق» فيقول: (هذا كذب).

وعن المؤاخاة بين النبي وبين عليّ فيقول: (هذا كذب).

وحديث «والِ من والاه» فيقول: (هذا كذب وهو من موضوعات الروافض).

وهكذا إلى حديث الدار «من منكم يؤازرني على أن يكون أخي ووزيري وخليفتي» فيقول: (هذا كذب)، وهكذا نجده لا يدع فضيلة لعليّ إلا ويكذّبها، ولكنه لا يدع سيئةً لأعداء عليّ إلاّ ويحاول أن يحسّنها، ما معنى هذا؟

معناه أن لديه معرفة لأنه قرأ التاريخ، لكن ليس لديه تسليم للحق.

ولهذا فإن المهم عند الإنسان أن يكون صاحب تسليم وليس صاحب معرفة فقط. فما قيمة أن تعرف الحق ثمّ لا تتبعه؟ لهذا تقول الزيارة: «فكنا عنده مُسلّمين بفضلكم»، اليوم أيها الشباب إن نقطة القوة عندنا نحن أهل الحق هي التسليم للحق وليس فقط معرفة الحق.

أؤجّل الموقف الرابع وهو قوله «مُسلّمين بفضلكم» إلى المحاضرة اللاحقة إن شاء الله.

حتّى نصل إلى يوم عاشوراء، حيث الحسين عليه السلام علّمنا أشياء كثيرة، منها دروس في الثورة وفي الأخلاق والعبادة والصلاة والحلم والعفو، لكن علّمنا شيئاً آخر، علّمنا فضل الدعاء.

الحسين على رمضاء كربلاء عمل له وسادة من التراب، والعطش قد حال بينه وبين السماء حتّى صار ما بينه وبين السماء كالدخان، فكان لا يرى من شدة العطش، الحسين عليه السلام له دعاء يعتبر من أعظم الأدعية وأجملها وأنا أتمنى عليكم أن تحفظوه خاصة طلاب العلوم الدينية.

«اللهم أنت ثقتي في كل كرب، ورجائي في كل شدة، وأنت لي في كل أمر نزل بي ثقة وعدة، كم من هَمّ يضعف فيه الفؤاد ويخذل فيه الصديق، ويشمت فيه العدو أنزلته بك، وشكوته إليك رغبةً عمَّن سواك ففرجته عني، فأنت وليُّ كل نعمة ومنتهى كل رغبة»،[1] يقول الراوي: رأيت شفتي أبي عبد الله الحسين تتحركان بكلام لم أفهمه قلت: لو أن الحسين يدعو علينا إذن هلكنا ورب الكعبة، دنوت منه سمعته يقول: «يا قوم اسقوني جرعةً من الماء لقد تفتت كبدي من الظمأ».

إنا لله وإنا إليه راجعون

* * *

(1) الإرشاد ٢: ٩٦؛ تاريخ الطبري ٤: ٣٢١.

المحاضرة الثامنة والخمسون:

فضل أهل البيت عليهم السلام على الخلائق

«فَكُنَّا عِنْدَهُ مُسَلِّمِينَ بِفَضْلِكُمْ»

بسم الله الرحمن الرحيم

ما زال الحديث في هذا المقطع من الزيارة الجامعة الكبيرة وهو قوله ﷺ: «فكنا عنده مُسلّمين بفضلكم»، وحول هذا المقطع كان لدينا أربعة مواقف:

الموقف الأوّل: قال: «كنا» ولم يقل: (صرنا).

الموقف الثاني: قال: «عنده».

الموقف الثالث: قال: «مُسلّمين».

الموقف الرابع: «بفضلكم».

وشرحنا المواقف الثلاثة الأولى، ووصلنا إلى الموقف الرابع في هذا المقطع من الزيارة، وهو عند قوله: «بفضلكم».

قراءتان في النص:

هناك تفسيران وقراءتان لهذه الزيارة في هذا المقطع. فمرةً تُقرأ «مسلِمين بفضلكم» ومرةً «مسلّمين بفضلكم»، ونحن اليوم نريد أن نشرح معنى «بفضلكم» على القراءتين

«مُسلمين بفضلكم»، على القراءة الأولى «كنا عنده مُسلمين بفضلكم» يكون المعنى أن الإسلام وانتشاره وبقاءه وهداية الناس بالإسلام، كان ببركة النبوة وأهل بيت النبوة، لولا الأنبياء وأوصياؤهم لما كان هناك للتوحيد وللإسلام على أرض الواقع وجود، هذا الأمر في الحقيقة هو إشارة إلى نظرية: أن التوحيد

رغم أنه فطري، ومعرفة الله رغم أنها فطرية، لكن بدون حركة الأنبياء لكانت الفطرة تنحرف، ولكان التوحيد يزول على الأرض، الأنبياء هم الذين حفظوا التوحيد وحفظوا الإسلام بالمعنى الأعم للإسلام، إنما كان الإسلام بفضل الأنبياء وأهل بيت النبوة. «كنا عنده مُسلِمين»، لكن كيف صرنا مسلمين؟ لولا أهل بيت النبوة لكان الإسلام أثراً بعد عين. سواءٌ الإسلام بمعنى الأديان التوحيدية إبراهيم وموسى وعيسى حيث لولا موسى وعيسى وإبراهيم ونوح ما كان التوحيد ينجح على الأرض، أو الإسلام المحمّدي ﷺ أيضاً، إذ لولا النبي ﷺ وصبره وحركته، وأهل بيته لما بقي للإسلام أثر، اليوم لا يُسلم مسلم في العالم إلاّ بفضل أهل بيت النبوة، هذا طبعاً مفهوم ديني وتحليل سياسي، الآن أنا سأعطيكم الفكرة فقط، نحن نعتقد أنه حتّى الإسلام المنتشر في عالم المذاهب الأخرى من السنة القادرية والمتصوفة في كل البلاد، وحتّى لو كانوا لا يعرفون شيئاً من أهل بيت النبوة، لكن ذاك الإسلام إنما كان بفضل جهود أهل البيت وجهادهم وتضحياتهم وصبرهم. ولولا تلك الجهود لكان الإسلام أثراً بعد عين، ولكان الحكم الأموي وما بعده من الحكم العبّاسي ما أبقى للإسلام شيئاً أصلاً ولأعلنوها كفراً صريحاً معلناً، أنا أذكّركم بشيء على سبيل المثال، نحن في هذا العصر، صدام في السنوات الأخيرة أعلن عن شيء اسمه الحملة الإيمانية، والحال أن حزب البعث العربي الاشتراكي قائم على أساس حرب الدين. وهو أصلاً حكمه في العراق مخطط لأجل استئصال جذور الحركة الدينية في العراق. ونحن رأينا كيف أن صداماً وحزب البعث من اليوم الأوّل كانت الاعتقالات وملاحقة الكتاب الديني، وملاحقة الشاب الذي يذهب إلى المسجد حتّى كتاب الرسالة العملية للعلماء والفقهاء كان ممنوعاً، ومفاتيح الجنان ممنوعاً وحركة

المساجد مطوقة، هذا هو حزب البعث، لاحظوا جهود الذين صبروا وضحوا من العلماء والمراجع وجمهور المؤمنين، صمود هؤلاء اضطر صدام أن يعلن في السنوات الأخيرة عن أنه هو العبد المؤمن وهذه حملته الإيمانية، وأن الإمام عليّ هو جده وشجع على زيارة الإمام الحسين، وحفظ القرآن وأن السجناء إذا حفظوا القرآن يخرجون من السجن والحلقات الحزبية لحزب البعث التي كانت تبدأ بكلمات عفلق وما شابه، أصبحت تبدأ بآيات قرآنية وروايات شريفة، وكل عضو في حزب البعث يجب أن يحفظ آيات وروايات، وهو صدام نفسه أصبح حينما يتحدّث يتصور أنه جالس على منبر ويقرأ الآيات والروايات، وهذا صدام في سنواته السابقة وحقده على الدين والإسلام أخيراً لبس ثوباً آخر، كيف حدث هذا؟ حدث هذا حينما يثبت الدين وأهل الدين يفرضون على الحاكم الجائر أن يتلون بلونه، هذا في الحقيقة ببركة جهود هؤلاء العلماء، نحن نعتقد وبشكل واضح أن الإسلام في كل العالم، لولا صبر الإمام عليّ عليه السلام وتضحياته والإمام الحسن والحسين والأئمّة عليهم السلام واحداً بعد واحد لكان الحكام الطغاة أعلنوا الكفر صريحاً، لا صلاةَ ولا صومَ. والعالم الإسلامي وصل إلى بدايات هذا الوضع حينما صعد معاوية يقول: ما قاتلتكم لتصلوا ولا لتصوموا هذه في الأيام الأولى، حتّى وصلنا إلى يزيد بن معاوية الذي صرح بالكفر في قلبه حينما يقول:

لعبت هاشم بالملك فلا خبر جاء ولا وحي نزل

حتّى وصلنا إلى ذلك الحاكم الأموي الوليد الذي يرمي القرآن بسهم ويقول:

إذا ما جئت ربك يوم حشر فقل يا رب مزقني الوليد

تصوروا أن حاكم العالم الإسلامي هذا محتواه وهذه تصريحاته

أي شيء يبقى من الإسلام بعد، لولا حركة الحسين وحركة الأئمّة الأطهار التي فرضت عليهم أن يتقربوا ويتزلفوا إلى الإسلام، حتّى حينما جاء الحكم العبّاسي وعملوا انقلاباً على الحكم الأموي كان ذلك باسم الرضا من آل محمّد، أي أن شعار العباسيين كان الدعوة إلى الرضا من آل محمّد ﷺ وإلى حكم أهل البيت. ولهذا تقربوا إلى أهل البيت كثيراً وتأتي هنا قصة المأمون وولاية العهد للإمام الرضا عليه السلام.

هذا كله يعني أن ضغط الأئمّة عليهم السلام كان بمستوى أن الحاكم يحاول مجبوراً أن يسير وفق الوضع الإسلامي ولو شكلياً، أنت مثلاً حينما تقرأ التاريخ تجد مثلاً أن المذهب الشافعي، الحنفي، المالكي، الحنبلي انتشر في العالم الإسلامي ليس فقط في مكّة والمدينة والعراق وإنما وصل إلى مصر والأندلس وكل العالم الإسلامي، الآن كل العالم الإسلامي يمشي على المذاهب السنية الأربعة، أتعرفون لماذا؟ هذا في الحقيقة مخطط الحكم العبّاسي، لكي يخمد نور الإمام الصادق ونور الأئمّة الأطهار. برّز أولئك وأصبح يغدق عليهم الأموال. وأعلنوا عن غلق المذاهب على هؤلاء الأربعة. أن أي مذهب آخر في العالم الإسلامي لا يجوز، وأصبحوا يؤسسون مدارس ومساجد لأجل التغطية على مذهب أهل البيت. معنى هذا أن سر هذا الامتداد الإسلامي هو ببركة جهود أهل البيت عليهم السلام، هذا الحديث فيه تحليل سياسي وتحليل ديني.

التحليل الديني أن عملية الهدى لا تنتشر على الأرض إلاّ عبر حركة الأنبياء وأهل بيت الأنبياء رغم أن العقل يدل على الله، رغم أن الفطرة هي فطرة توحيدية، لكن هذه الفطرة تُغلب والعقل أيضاً يُغلب، يحتاج العقل إلى إسناد والإسناد هو حركة النبوة ولهذا نحن لدينا الروايات في مفهومنا الديني هكذا

تقول: إن لله على الخلق حجتين: حجة ظاهرة وهم الأنبياء وحجة باطنة وهو العقل. العقل هو حجة ودليل على الله تبارك وتعالى، لكن هذه الحجة الباطنة تحتاج إلى حجة أخرى تساندها وتدعمها وهي حركة الأنبياء فضلاً عن أن الأنبياء أعطونا أشياء أخرى، فالأنبياء ليسوا فقط دلونا على الله وإنما أعطونا معارف إلهية، العقل أقصى ما يؤدي إليه أن هناك لهذا الكون خالقاً لكن صفات هذا الخالق والجنّة والنار والحساب وعالم الموت وما بعد الموت والملائكة وعالم ما وراء الشهادة، الأنبياء حدّثونا بذلك والعقل غير قادر على أن يكشف عالم ما وراء الشهادة، وهكذا الأنبياء أعطونا تشريعاً ونظاماً لمجتمعنا وليس فقط دلّونا على التوحيد. ولهذا فإن الزيارة حينما تقول بناءاً على القراءة الأولى: «فكنا عنده مسلِمين بفضلكم»، يعني مسلِمين ببركة فضلكم وجهودكم، ولهذا فإن الكلمة المأثورة والمعروفة عندكم تقول: (الإسلام محمّدي الوجود علوي التربية حسيني البقاء) فعلاً لولا حركة الحسين ما أبقى يزيد شيئاً من الإسلام، بل ما كان الحكم الأموي ليسقط لولا حركة الحسين عليه السلام، و«ضربة عليّ يوم الخندق تعدل عبادة الثقلين»، هذه جهود أهل البيت، لولا عليّ عليه السلام ما كان معلوماً ما هو مصير الإسلام، كان رسول الله صلى الله عليه وآله في معركة الأحزاب يقول: «برز الإيمان كله إلى الشرك كله»، وهو يعني الإسلام تلخص في حركة الإمام عليّ، هذا بإجماع المؤرخين والمحدّثين، إذن اليوم لا توجد حركة هُدىً إلاّ ببركة أهل البيت عليهم السلام سواءٌ عرف أولئك الناس أهل البيت أم لم يعرفوهم، هذا امتداد لأهل البيت وللأنبياء في الحقيقة، وكذلك في العالم الغربي، ما يوجد من نقاط ايجابية هي ببركة عيسى وموسى وبركة هدي الأنبياء، رغم أن تلك الأمم ابتعدت عن نهج الأنبياء كثيراً، لكن يبقى أثر صوت عيسى نحو الفضيلة والقيم السامية إلى

اليوم، رغم أن هناك ألف محاولة لإخماد هذا الصوت، لكن بقي صوت عيسى بن مريم يعني صوت النبوة موجوداً حتّى في العالم الغربي، اليوم وكلما يوجد في ذلك العالم من قيم إنسانية، ومن حقوق إنسان. ومن إيمان بالله تبارك وتعالى كل هذا ببركة الأنبياء.

«فكنا عنده مسلِمين بفضلكم»، والقرآن الكريم أيضاً يؤكد هذه الحقيقة حينما نقرأ قوله تعالى: ﴿يا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ ما أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَما بَلَّغْتَ رِسالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾(١) وهذه الآية واضحة ويتفق المؤرخون أنها نزلت في بيعة الغدير، خلاصة المدلول لهذه الآية الكريمة أنه لولا عليّ عليه السلام وبيعته وولايته، لانتهت الرسالة الإسلاميّة ﴿وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَما بَلَّغْتَ رِسالَتَهُ﴾، وهكذا حينما يقول: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلامَ دِيناً﴾، يعني بدون ولاية عليّ فالإسلام غير مرضي. أي: أن الله لا يرضى به. وهذا يعني على أرض الواقع أنه لن يبقى هناك إسلام، الفكرة هي أنه تعالى رضيه ديناً على أرض الواقع.

هذا هو المعنى الأوّل لقوله: «فكنا عنده مسلِمين بفضلكم»، فنحن مسلمون ببركة جهود أهل بيت النبوة، رغم أننا لم ندركهم لكن الفضل لهم في إسلامنا في الدنيا، والفضل لهم في نجاتنا في الآخرة.

القراءة الثانية هي: «فكنّا عنده مُسلّمين بفضلكم» _ بتشديد اللام في مسلّمين _، هذا الأمر يعيدنا إلى الفرق بين مفهومين هما: المعرفة والتسليم، هناك شيء اسمه معرفة وليس كل من يعرف يسلّم فكما تعلمون أن إبليس كان يعرف الله تبارك وتعالى لكنه لم يسلّم لأمر الله،

---

(1) المائدة: ٦٧.

المعرفة لا تعني أنك صرت موحداً ومؤمناً، إبليس يعرف الله ويعلم أن الله هو خالق الكون لكن ليس عنده تسليم، وسأحدّثكم فيما بعد كيف أن هارون الرشيد لما دخل على قبر رسول الله صلى الله عليه وآله استأذن في اعتقال الإمام موسى بن جعفر عليه السلام فهو يعرف أن الإمام موسى بن جعفر عليه السلام هو ابن رسول الله، هارون الرشيد يقف على قبر الرسول ويقول: السلام عليك يا بن العم والإمام موسى بن جعفر عليه السلام يأتي ويقول: «السلام عليك يا أبه»، طبعاً هذا كله فيه تحليل سياسي وثقافي وهو أن الأئمّة عليهم السلام في مرحلة العصر العبّاسي كان يهمهم جدّاً أن يمزقوا قناع الشرعية الذي تحاول أن تلبسه الحكومة العبّاسية لأنهم جاؤوا باسم آل رسول الله صلى الله عليه وآله وباسم الرضا من آل محمّد. وهذا صار المعتز بالله وذاك المعتمد على الله وآخر المنتصر بالله ورابع المتوكل على الله، كل ذلك من أجل مخادعة الناس، وإشعارهم بأنها حكومات شرعية، دور الأئمّة عليهم السلام هو أن يقولوا للناس على مرّ التاريخ أن هذا الحكم العبّاسي لا يمثل الإسلام.

هذه القضية تذكر تاريخياً بأنها كالقشة التي قصمت ظهر البعير، يعني أن هارون الرشيد كان مصمماً على تصفية الإمام موسى بن جعفر عليه السلام لكن هذه القضية ألفتت نظره إلى أنه ما زال الإمام موسى بن جعفر عليه السلام موجوداً إذن لا يمكن للحكم العبّاسي أن يلبس ثوب الشرعية ويخدع الناس.

نرجع إلى أصل الفكرة أن هناك معرفة وهناك تسليم، المطلوب هو التسليم وليس المعرفة، هنا الزيارة تقول: «فكنا عنده مسلّمين»، نحن ببركة ولايتكم كنا مسلّمين، نعرف ونُسلّم ونذعن لك، هذا هو الفرق بين التسليم وبين مجرد المعرفة.

عقيدتنا في أهل البيت عليهم السلام:

ما هو اعتقادنا بأهل البيت؟

نحن لدينا مجموعة معتقدات بأهل البيت عليهم السلام وأنا مضطر للاختصار، نحن حينما نتحدّث عن أهل البيت نقصد النبي وآل بيته عليهم السلام.

نحن نعتقد أوّلاً: أنهم أفضل الخلق.

ثانياً: أنهم حجج الله على الخلق.

ثالثاً: أنهم أولياء الأمر على الخلق ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنْكُمْ﴾.[1]

رابعاً: أنهم أوّل من خلق الله.

وهذه الاعتقادات بعضها ليست ضرورية، لكن المهم أن نسلّم بأنهم أهل العصمة وأهل بيت الطهارة ونسلّم بإمامتهم، في نفس الوقت، نحن لدينا اعتقادات أخرى في أهل البيت عليهم السلام من قبيل اعتقادنا بأنهم عليهم السلام لهم شأن آخر عند الله تبارك وتعالى غير الشأن البشري. ورواياتنا تُجمِع على أن أوّل من خلق الله هو نور نبينا صلى الله عليه وآله وليس شخصه.

وأحياناً تضيع المفاهيم نتيجة عدم توضيحها بشكل جيد. فهناك شيء اسمه شخص النبي. وهو أنه صلى الله عليه وآله ابن فلان وابن فلانة وولد في عام كذا، لكن هناك شيء اسمه نور النبي وهو الهوية المحمّدية. ويسميه علماء المعرفة (الحقيقة المحمّدية) وهو الكنه لهذه الروح، وقد خلقه الله تبارك وتعالى نوراً قبل أن يخلق الخلق «أوّل ما خلق الله نوري»، كما أن لدينا في الروايات أن: «أوّل ما خلق الله العقل ثمّ قال له: أقبل فأقبل ثمّ

---

(1) النساء: ٥٩.

قال له: أدبر فأدبر»، والعلماء يجمعون بين هذه الروايات فيقولون المقصود بالعقل هو نور نبينا صلى الله عليه وآله.

وأيضاً من جملة ما نعتقد به أنهم عليهم السلام وسائط في هطول الرحمة الإلهية. يعني إذا كانت هذه الشمس هي واسطة في حياة الأرض فإن الأنبياء وأهل بيت النبوة هم وسائط هطول الرحمة الإلهية، إما بنحو مطلق وهذه هي نظرية واسطة الفيض وهذا حديث فلسفي، يهمني فقط أن أذكّركم ببعض العناوين الموجودة في كتب الفلسفة وكتب المعرفة، ولا أفتح الباب لأنه إذا فتحت الباب فسندخل في عالم آخر وغير معلوم أنكم ستخرجون منه أو لا، هذه النظرية يسمونها نظرية الواسطة في الفيض. وهي تعني أن كل فيض وجودي على الأرض إنما كان بواسطة نور نبينا صلى الله عليه وآله، هذه هي نظرية أن النبي وأهل البيت هم واسطة الفيض، مرةً بهذا الشكل المطلق أن كل فيض وجودي من آدم وما قبل آدم من السماوات والعرش كل فيض وجودي هو منهم عليهم السلام، كما أن جبرئيل مثلاً واسطة في نزول الوحي، وكما أن مَلَك الموت واسطة في ظاهرة الموت، وكما أن إسرافيل واسطة في تدبير شؤون الرياح والمياه وما شاكل ذلك، فكل واحد من هؤلاء الملائكة هو واسطة في عمل معين. النظرية هكذا تقول: إن نبينا صلى الله عليه وآله والأئمّة هم واسطة في كل الفيض الوجودي في الكون، هذه نسميها نظرية واسطة الفيض المطلق.

لكن لنبقَ مع قضية معلومة عندنا وهي أنهم واسطة الفيض الخاص. أي أن كثيراً من الأمور إنما تتحقق ببركتهم وبشفاعتهم وتوسطهم، إذن هم واسطة في الفيض وهم الطريق إلى الله تبارك وتعالى نتوسل بهم إلى الله تعالى في قضاء حاجاتنا.

الإمام موسى بن جعفر عليه السلام يلقب بباب الحوائج وهذا المعنى مفهوم عندنا وهذا ما نقرؤه في أدعية شهر رجب «فبكم يُجبر المهيض ويُشفى المريض وما تزداد الأرحام وما تغيض...»[1] ومن زيارة أمير المؤمنين عليه السلام: «وبكم يمسك السماء أن تقع على الأرض إلاّ بإذنه»،[2] بكم ببركتكم ومحبتكم هذا الكون مستقر، هذا من جملة ما نعتقد في شأن أهل البيت ومنزلتهم عليهم السلام.

أذكر رواية لكم وهي عن الإمام الصادق عليه السلام يرويها الشيخ الكليني في كتابه الكافي وهو من مصادر الكتب المهمة.

الرواية تقول: إن جبرئيل أتى رسول الله صلى الله عليه وآله برمانتين فأكل رسول الله صلى الله عليه وآله واحدة وقسم الثانية إلى نصفين، نصف له ونصف لعليّ عليه السلام ثمّ قال: «يا عليّ أتدري ما هاتان الرمانتان؟»

قال: لا.

قال: «أما الأولى فالنبوة، ليس لك فيها نصيب، وأما الأخرى: فالعلم أنت شريكي فيه...»[3] الحديث.

وهذا أيضاً حديث المنزلة: «أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلاّ أنه لا نبي بعدي» ورواياتنا تقول: إن هناك اشتراكاً وتساوياً في العلم.

أحياناً هناك أساطير ونحن ناس نتبع الدليل والعقل والقرآن وما صح عنهم عليهم السلام. مثلاً من جملة الروايات التي نعتبرها أساطير وخرافات

---

(1) مصباح المتهجد: ٢٢١؛ بحار الأنوار ٩٩: ١٩٥.

(2) المزار لابن المشهدي: ٢٤٤.

(3) الكافي ١: ١/٢٦٣.

وأكاذيب وضعت في بعض الكتب ذات مسحة الغلو تروي هذه الرواية: أنه كان هناك في زمن الإمام عليّ عليه السلام منجم، الإمام عليه السلام دعاه إلى طعام وقال: هذا رغيف لك وهذا رغيف لي.

ثمّ قال: اثرد أنت وأثرد أنا، ثمّ قال له الإمام عليه السلام: «أتدري في صحيفتك كم قطعة خبز؟». قال: لا.

قال: «أنت تزعم أنك تعرف أسرار النجوم وأعدادها وتنجم وتعلم ما سيأتي. والوعاء الذي أمامك لا تدري كم قطعة خبز فيه؟».

قال المنجم: يا عليّ وأنت تدري؟

قال: لا، أنا أيضاً لا أدري إلاّ أن يعلمني ربي، ولكن أنا أسأل ربي فيعلمني ذلك ويعلم الناس ما هو صحني وما هو صحنك، ثمّ سأل الله تعالى أن يعلم الناس ما هو رغيف الإمام عليّ وما هو رغيف المنجم.

تقول الرواية فارتفع صحن الإمام عليّ عليه السلام فأكل منه ثلاثة آلاف رجل من المدينة.

هذه الرواية موجودة لكن في الحقيقة نحن لا نحتاج لها، ولا أن منزلة الإمام عليّ عليه السلام تحتاج إلى صحن يأكل منه ثلاثة آلاف شخص، وكيف يمكن أن نقبل مثل هذه الرواية؟ وما هو المبرر لها؟ ولماذا الرواة والمؤرخون لا يذكرون هذه الروايات، إلاّ أن تأتي في كتب الغلاة والمتطرفين؟ وأي كرامة هذه؟ وهل الإمام عليّ يحتاج إلى مثل هذه الكرامة؟ وهي ليست مشكلة على الله تعالى أن يأكل من الرغيف عشرة أو مائة، لكن نحن نتحدّث أن الإمام عليّ عليه السلام هل هو بحاجة إلى مثل هذه المبالغات في الروايات؟ وهو شأنه أعظم من ذلك، ثمّ إن القضية

مفتعلة فهؤلاء أين كانوا مجتمعين وكيف جاؤوا؟ هذه أساطير غير مقبولة عندنا، ومنزلة الإمام عليه السلام أعظم من هذا المستوى، وأن فكر شيعة أهل البيت أعمق من هذا المستوى وفضل أمير المؤمنين وفضل أهل البيت وفضل رسول الله فوق أن نحصيه، نادى جبرئيل في السماء «لا سيف إلاّ ذو الفقار ولا فتى إلاّ عليّ» أي أن كل الرجولة والفتوة انحصرت في الإمام عليّ عليه السلام وكل البطولة انحصرت في الإمام عليّ عليه السلام وعلى طول التاريخ، وهذا برواية أهل السنة ورواياتنا أيضاً، ونحن مسلّمون بفضلهم عليهم السلام.

والحمد لله رب العالمين

* * *

المحاضرة التاسعة والخمسون:

اعتقادنا في النبوة

«فَبَلَغَ اللَّهُ بِكُمْ أَشْرَفَ مَحَلِّ الْمُكَرَّمِينَ وَأَعْلَى مَنَازِلِ الْمُقَرَّبِينَ وَأَرْفَعَ دَرَجَاتِ الْمُرْسَلِينَ».

بسم الله الرحمن الرحيم

اليوم حديثنا عن درجة الأنبياء ودرجة أهل البيت عليهم السلام حيث تقول الزيارة «فَبَلَغَ اللَّهُ بِكُمْ أَشْرَفَ مَحَلِّ الْمُكَرَّمِينَ وَأَعْلَى مَنَازِلِ الْمُقَرَّبِينَ وَأَرْفَعَ دَرَجَاتِ الْمُرْسَلِينَ».

هنا مجموعة أبحاث:

البحث الأوّل: الفرق بين النبي والرسول.

البحث الثاني: اعتقاداتنا في الرسل والرسالة.

البحث الثالث: في أفضلية نبينا صلى الله عليه وآله وأهل بيته على سائر الأنبياء والمرسلين.

الفرق بين الرسول والنبي:

علماء الإسلام يقولون، كما القرآن الكريم يقول: إن هناك مرحلتين هما مرحلة النبوة ومرحلة الرسالة، وليس كل نبي هو رسول فهناك آلاف الأنبياء، ولكن الرسل أقل من الأنبياء، مما يعني أن المرحلة الأولى هي أشمل وأوسع من المرحلة الثانية.

مرحلة النبوة هي مرحلة ابتدائية وما بعدها مرحلة أكثر تقدماً تسمى مرحلة الرسالة، مثلاً القرآن الكريم يقول: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾.[1]

(1) الحج: ٥٢.

وهكذا في وصف النبي ﷺ حيث أن القرآن هكذا يصفه: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ﴾،[1] إذن ما هو النبي؟ وما هو الرسول؟

الجواب: أن النبي هو ذلك الذي يُنبئ عن عالم السماء وعن عالم الغيب وينقل وصايا السماء ويدعو الناس للتوحيد، أصل كلمة نبي (نبيء) أي يُنبئ بمعنى يُخبر.

أما الرسول فهو ذلك النبي الذي حمل معه رسالة، هناك نبي ليس لديه رسالة وإنما هو تكرار للأنبياء الذين قبله، ويؤكد الرسالة السابقة، فقط مهمته الدعوة إلى توحيد الله لكن ليس لديه شريعة.

أمّا الرسول فهو ذلك النبي الذي لديه شريعة يقدمها للناس ويحمل رسالة من الله، والنبي هو ذلك الإنسان الذي يُنبئ عن عالم الغيب ويدعو الناس للتوحيد دون أن يحمل معه رسالة.

تفاضل الأنبياء:

القرآن الكريم يؤكد مفهوماً ثانياً هو أن الأنبياء والرسل بينهم مراتب وتفاضل، فصحيح أنهم طلاب جامعة واحدة وهي جامعة النبوة إذا صح التعبير، ولكن يوجد بينهم تفاضل. فبعض الأنبياء أفضل من البعض الآخر، وبعض الرسل أفضل من بعض الرسل والقرآن يقول: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنا بَعْضَهُمْ عَلى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ﴾.[2]

وفي آية أخرى يقول: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلى بَعْضٍ﴾.[3]

---

(1) الأعراف: ١٥٧.

(2) البقرة: ٢٥٣.

(3) الإسراء: ٥٥.

ثمّ أن هؤلاء الأنبياء كلهم أفضل من جميع البشر ﴿وَكلاًّ فَضَّلْنا عَلَى الْعالَمِينَ﴾.(1)

ولهذا نحن نعتقد أن الأنبياء الخمسة أولي العزم وهم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ونبينا ﷺ هم أفضل من سائر الأنبياء، ونعتقد أن نبينا ﷺ الذي هو خاتم الأنبياء هو أفضل من سائر الرسل.

اعتقادنا بالأنبياء:

نحن نعتقد بالأنبياء عدة أمور:

١ _ النبوءة الصادقة:

إن الأنبياء يُنبئون نبوءة صادقة.

قد يقول قائل إن هناك الكثير من الناس يمكن أن يكشف لهم عن عالم الغيب، كالكهنة والمرتاضين أو أولئك الذي يتحدّثون بما سيأتي في آخر الزمان ولكنهم ليسوا بأنبياء فهل كل من يُنبئ ويخبر عن السماء هو نبي؟

الجواب: لا، الأنبياء فقط هم الذين نعتقد بأن نبوءتهم هي نبوءة صادقة وتتطابق مع ما هو في عالم السماء فليست مجرد حدس كما هو عند أهل الكشوفات الأخرى، بل نعتقد أن نبوءتهم صادقة، فالله هو الذي أخبرهم والقرآن يقول: ﴿ذلِكَ مِنْ أَنْباءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾.

هذه الفكرة تكررت ثلاث مرات في القرآن الكريم. وهي أن هذا القرآن وحي صادق من عند الله تعالى بما يعني أن هذه نبوءة صادقة وليست كشفاً من كشوفات أهل التنجيم، وقراء الكف والمرتاضين

---

(1) الأنعام: ٨٦.

﴿ذلِكَ مِنْ أَنْباءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَما كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ﴾.(١)

ومرة أخرى في سورة هود يقول: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْباءِ الْغَيْبِ نُوحِيها إِلَيْكَ ما كُنْتَ تَعْلَمُها أَنْتَ وَلا قَوْمُكَ﴾(٢) **لدى الحديث عن قصة نوح** عليه السلام.

ومرة ثالثة في سورة يوسف يقول: ﴿ذلِكَ مِنْ أَنْباءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَما كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾،(٣) **أي انك لم تكن مع اخوة يوسف لما ألقوه في البئر ونحن نحدّثك بذلك الشيء.**

إذن أوّل اعتقاداتنا هو أن النبوة هي نبوءة صادقة وليست حدساً واحتمالات.

٢ _ النقل الدقيق:

نعتقد بأن نقل النبي صلى الله عليه وآله **لكلام الله ووحيه، هو نقل دقيق ١٠٠% وليس أقل من ذلك، وهو ما يمكن أن نجيب به اليوم عن سؤال: أن النبي حينما يتلو القرآن على لسانه فهل هذا عبارة عن ترجمة شخصية للوحي، والنبي ما هو إلاّ مترجم للوحي، وهذه الترجمة قد لا تكون دقيقة، أم هو ناقل للوحي بدون أي تصرف؟**

الجواب: إذا قلنا النبي هو مترجم للوحي فذاك يعني أنه سوف تدخل حالات النبي وشخصيته وذكائه وقدرته ومعرفته في دقة الترجمة أو عدم دقتها، ولا يمكن أن تكون صحيحة تماماً. ومن الممكن أن

(1) آل عمران: ٤٤.

(2) هود: ٤٩.

(3) يوسف: ١٠٢.

يوجد هناك مترجم أفضل من النبي سواء فيما سبق أو فيما يأتي. فهل أن النبي مترجم للقرآن أو ناقل للقرآن بشكل دقيق؟

الجواب: نحن نعتقد أن الوحي نقله رسول الله ﷺ نقلاً دقيقاً غير متأثر بأحواله الشخصية.

التكذيب الحداثي للأنبياء:

أنا أذكر هذا الكلام لأن هناك في هذا الزمان بعض الرؤى الحديثة التي هي تكذيب نسبي للنبي، يقولون صحيح أن النبي كُشف له عن عالم الغيب، لكن النبي ترجم عالم الغيب بمقدار ما ينسجم مع فهمه وإدراكه، ويمكن أن يأتي بعد ألف سنة من يُكشف له عالم الغيب بشكل أكبر، ويعطينا ترجمة عن الغيب أفضل من ترجمة النبي، فلماذا نبقى مقيدين بالقرآن الكريم وهو ترجمة تقبل الخطأ والصواب وقد تأتي ترجمة أفضل منه؟

نحن نعتقد أن النبي ليس مترجماً، بل هو رسول ناقل للوحي بشكل دقيق وبدون أن تدخل ذاتياته الشخصية على ما ينقل.

القرآن الكريم يقول: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلى غَيْبِهِ أَحَداً * إِلاَّ مَنِ ارْتَضى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَداً﴾،[1] أي أن هذا الغيب أوحاه الله للنبي وهو مصون من أمامه وهكذا من خلفه ولا تتدخل فيه أية عوامل أخرى.

وفي آية أخرى يقول: ﴿وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْناهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ﴾.[2]

---

(1) الجن: ٢٦ و٢٧.

(2) الإسراء: ١٠٥.

وفي آية أخرى يقول: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ * عَلى قَلْبِكَ﴾،[١] أي أن هذا القرآن نقل دقيق وليس ترجمة نسبية.

في آية أخرى يقول: ﴿وَإِنَّهُ لَكِتابٌ عَزِيزٌ * لا يَأْتِيهِ الْباطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ﴾،[٢] أي: أنه لا يقبل الخطأ بأي مستوى من المستويات. هذه الآيات القرآنية نقلها النبي كما جاء بها جبرئيل لا أكثر ولا أقل.

٣ _ الاختيار الإلهي:

نعتقد بأن النبوة فيها اختيار إلهي، لكي أصور لكم الفكرة في يوم معركة خيبر وأنتم سمعتم سابقاً بهذه الرواية: «لأعطين الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله»،[٣] أي أن العلاقة ذات طرفين، هنا في النبوة نعتقد أنه يوجد قابل ويوجد فاعل، القابل للوحي هو النبي ﴿نَزَّلَهُ عَلى قَلْبِكَ﴾،[٤] لكن من هو المرسِل والفاعل؟ هو الله تعالى، أي هناك طرفان النبي والله تعالى، النبي لم يكشف عالم الغيب من تلقاء نفسه، فيمكن أن يكون هناك ناس يكشفون عوالم ويتنبئون عن مستقبل الزمان، والآن في زماننا يوجد الكثير في بلاد الهند من الناس المرتاضين الذين يحدّثون بما سيكون و... الخ.

ويمكن أيضاً أن يوجد من يقرأ الكف أو يقرأ الأبراج وما إلى ذلك، لكن هذه الحالات فيها طرف واحد فقط، أما نحن نعتقد في حالة النبي أن هناك طرفين هما النبي وهو يقبل الوحي وطرف يُنزل الوحي

(1) الشعراء: ١٩٢.
(2) فصلت: ٤١ و٤٢.
(3) الكافي ٨ : ٣٥١/ ٥٤٨.
(4) البقرة: ٩٧.

وهو الفاعل وهو الله تعالى، نعتقد بالاصطفاء الإلهي للنبي، أي أن الله انتخبه وليس هو فقط وضع نفسه في هذا الموضع ﴿يا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْناكَ شاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً * وَداعِياً إِلَى اللهِ بِإِذْنِهِ وَسِراجاً مُنِيراً﴾.[١]

هذا الانتخاب الإلهي إذا صار معلوماً فسوف تنهار شبهة التكذيب النسبي للأنبياء.

قلت لكم يوجد تكذيبان، فهناك تكذيب للأنبياء في الزمان السابق حيث يقولون إنه ﴿ساحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾[٢] **وهذا نسميه تكذيب مطلق ينكر أصل النبوة والوحي، وهناك تكذيب نسبي يقولون فيه إن النبوة مقبولة لكن النبي ينقل الوحي بنسبة معينة كأن تكون ٦٠% أو ٧٠%، أي هو ينقل الوحي نقلاً نسبياً، وفي الحقيقة هذا أيضاً تكذيب لكنه تكذيب نسبي، في الزمان السابق يوجد تكذيب مطلق وفي هذا الزمان يوجد علمانيون وهذه هي العلمانية الحديثة والتي تقول إن النبي نقل لنا تجربته الشخصية التي قد تكون دقيقة أو غير دقيقة، كالطبيب فقد يكون جيداً وذكياً لكنه يمكن أن يخطئ.**

نحن نعتقد أن النبوة والرسالة ليست تجربة شخصية إنما هي انتخاب إلهي ﴿يا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْناكَ﴾،[٣] **أي لست أنت باختيارك ورغبتك صرت نبياً** ﴿إِنَّا أَرْسَلْناكَ شاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً﴾،[٤] **نحن الذين اخترناك وأرسلناك.**

---

(1) الأحزاب: ٤٥ و٤٦.

(2) الذاريات: ٣٩.

(3) الأحزاب: ٤٥.

(4) المصدر السابق.

٤ _ الخاتمية:

وهذا موضوع مهم فنحن نعتقد بأن النبي هو خاتم الأنبياء.

قد يقول قائل ويسأل سائل أنه هذه القضية من بديهيات الإسلام أن نبينا ﷺ هو خاتم الأنبياء حيث قال: «لا نبي بعدي»،[1] لكن ما هو الدليل من القرآن الكريم على أن رسالة رسول الله، وأن الإسلام هو آخر الأديان؟

مجموعة آيات ذُكرت في الدليل على ذلك، لكن يقول علماؤنا: إن أقوى آية في الدلالة على هذا الموضوع هي قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾،[2] وهذه الآية القرآنية تعتبر دليلاً قرآنياً على خاتمية الإسلام وخاتمية نبوة نبينا ﷺ.

معنى كلمة خاتم:

(الخاتَم) كما تعلمون هذا المصطلح يُستخدم للدلالة على (المِحبَس)، لكن هو في استعماله العربي الأصيل هو الشيء الذي يُختم به الكتاب، حيث كانوا يختمون الكتاب بالخاتم، ولم يكن حينها يوجد مطابع ومعامل لعمل الأختام، وإنما كان هناك محبس ذو علامة خاصة ومكتوب عليه اسم كأن يكون اسم ملك أو ما إلى ذلك وهذا هو ما يُختم به الكتاب، في ضوء ذلك يقول القرآن الكريم: ﴿وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ بالفتح ولم يقل (خاتِم) بالكسر.

وهنا (خاتَم) تأتي بمعنى (خاتِم) أيضاً يعني هو من يختمهم ويغلق ملفّهم أي يغلق ملف النبوة بختم نبينا ﷺ.

---

(1) الكافي ٨: ٢٦.

(2) الأحزاب: ٤٠.

هذا الموضوع لا أحتاج إلى الاستدلال عليه كثيراً لأن جميع أهل اللغة حينما قرؤوا هذه الآية ﴿وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ فهموا منها أن المقصود بالخاتَم هنا ليس المقصود به أن النبي خاتَم يتزين به كفُ النبوة ولو كان ذلك هو المقصود لكان الأولى أن يقول تاج النبيين أو فصّ النبيين.

الخاتَم في اللغة العربية ما يُختم به الكتاب والملف، أهل اللغة جميعاً فهموا من هذه الآية أن النبي ﷺ هو الذي ختمت به النبوات السماوية.

وهنا بحث في الحقيقة عن إشكالات في مدى إمكانية استفادة هذا المعنى من الآية القرآنية، لكن نحن لسنا بحاجة إلى هذا البحث أو الاستدلال، لأن من بديهيات الدين الإسلامي أن نبوة نبينا ﷺ هي نبوة خاتمة ولا نحتاج إلى مناقشة وبحث وقد نؤجلها إلى وقت آخر.

٥ ـ نبينا أفضل الأنبياء:

نعتقد بأن نبينا ﷺ هو أفضل الأنبياء.

حديثنا كان في قوله: «وأرفع درجات المرسلين»، نبينا ﷺ بلغ أرفع درجات المرسلين.

توجد أبيات مذكورة ومكتوبة بالخط الكوفي القديم على حجرة نبينا، هذه الأبيات مطلعها يقول في فضل النبي ﷺ:

يا مَن يقومُ مَقامَ الحمدِ منفرداً	للواحدِ الفرْدِ لم يُولدْ ولم يَلِدِ
يا مَن تَفَجَّرتِ الأنهارُ نابعةً	من إصبعيه فروى الجيشَ بالمَدَدِ
ربُّ الجمالِ تعالى اللهُ خالِقُهُ	فمثلُه في جميع الخلق لم أجِدِ

٦ ـ أفضلية أهل البيت:

نعتقد بأفضلية أهل البيت عليهم السلام على باقي الأنبياء والمرسلين عدا

رسـول الله ﷺ، يعنـي نعتقـد أن عليّـاً عليه السلام أفـضل مـن الأنبيـاء، الحـسن أفـضل مـن الأنبيـاء، الحـسين أفـضل مـن الأنبيـاء، حتّـى نـصل إلـى الإمـام الهـادي والعـسكري وإمامنـا صـاحب العـصر والزمـان الـذي يُجمـع المؤرخـون والمحـدّثون مـن الـشيعة والـسنة أن عيـسى بـن مـريم عليه السلام يـصلي خلف إمامنا المنتظر عليه السلام مما يعني أن أئمّتنا هم أفضل من سائر الأنبياء.

العلامـة المجلـسي فـي كتابـه البحـار وفـي الجـزء (٢٦) عقـد بابـاً خاصـاً تحت عنـوان أنهـم أفضل مـن جميـع الأنبيـاء ذكـر فيـه (٨٨) حـديثاً فـي ذلـك ثـمّ نقـل كـلام الـشيخ الـصدوق فـي كتابـه الاعتقـادات، ونقـل كـلام الـشيخ المفيد في كتابه أوائل المقالات.

نظريـة الـشيعة يلخـصها الـشيخ الـصدوق والـشيخ المفيـد وهـي أن الأئمّة عليهم السلام هم أفضل من سائر الأنبياء.

لـدينا روايـة تقـول: «لـولا علـيّ لـم يكـن لفاطمـة كفـؤ مـن آدم فمـا دون»،[1] وهـذا يعنـي أن عليّـاً أفـضل مـن آدم ومـن نـوح وهكـذا، طبعـاً هنـا أيهـا الاخـوة والأخـوات نحـن نعتقـد أن هـذه المـسألة لـيس فيهـا غلـو أو مبالغـة، إذا قلـت أن مدرسـة رسـول الله ﷺ وأن الأئمّـة مـن ذريـة رسـول الله أفـضل مـن الأنبيـاء، فلـيس فـي ذلـك غلـو، فرسـول الله أفـضل، إذن علـيّ الـذي علمُـه علـمُ رسـول الله، والحـسن والحـسين اللـذان همـا سـيدا شـباب أهـل الجنّـة، والزهـراء التـي هـي سـيدة نـساء العـالمين أفـضل مـنهم، لـيس غلـواً إذا قلـت إن الزهـراء أفـضل مـن مـريم أو أن الحـسن والحـسين أفـضل مـن عيسى وموسى.

---

(1) البحار ٤٠: ٧٧.

روايات مرفوضة:

لكن قد نجد روايات فيها غلواً، وعلماؤنا يتهمون تلك الروايات بالغلو وأن فيها مبالغة وأنها موضوعة ومكذوبة على الأئمّة الأطهار.

سأقرأ لكم بعض الروايات الواردة في كتبنا لكن ليس كل ما ورد في كتبنا صحيحاً فيجب أن نناقشه لنرى إن كان صحيحاً أم لا.

ومن جملتها رواية يذكرها صاحب كتاب (مشارق أنوار اليقين) وهو (رجب البُرسي) وهذا الكتاب علماؤنا يعتقدون أن فيه الكثير من المبالغات والغلو ونحن لا نقبل كل ما جاء فيه.

مثلاً يذكر رواية عن أمير المؤمنين عليه السلام وهو يُعرّف نفسه فيها وسأقرأ لكم بعض سطور هذه الرواية لترون ماذا يوجد في الكتب وكيف أن علماءنا يمحّصون هذه الكتب، فنحن لا نقبل كل الروايات، نحن نقبل حديث الثَقَلين وحديث السفينة، وهو «مثل أهل بيتي فيكم مثل سفينة نوح»،[1] لكن بعض الروايات نجد فيها إفراطاً ولدينا موقف سلبي منها.

مثلاً هذه الرواية عن أمير المؤمنين في كتاب (مشارق أنوار اليقين) أنه يقول: «أنا ولي الحساب، أنا صاحب الصراط، أنا قسيم الجنّة والنار، أنا آدم الأوّل، أنا نوح الأوّل، أنا آية الجبار، أنا حقيقة الأسرار، أنا مورق الأشجار، أنا مونع الثمار، أنا مفجر العيون، أنا مجري الأنهار، أنا خازن العلم، أنا طود الحلم، أنا مخرج من في القبور، أنا صاحب يوم النشور، أنا صاحب نوح ومنجيه، أنا صاحب أيّوب المبتلى وشافيه، أنا

---

(1) بصائر الدرجات: ٣١٧.

أقمت السماوات بأمر ربي، أنا صاحب إبراهيم، أنا سر الكليم، أنا الناظر في الملكوت، أنا أمر الحي الذي لا يموت، وأنا ولي الحق على سائر الخلق».

واسمعوا ماذا يقول أيضاً في هذه الرواية: «أنا أرسيت الجبال الشامخات، وفجرت العيون الجاريات، أنا غارس الأشجار ومخرج ألوان الثمار، أنا مقدر الأقوات، أنا منشر الأموات، أنا منزل القطر، أنا منور الشمس والقمر والنجوم، أنا قيّم القيامة، أنا مقيم الساعة، أنا حي لا أموت، أنا ميت لم أمت، أنا اسم الله المخزون، أنا عالم بما كان وما يكون» إلى أن يقول: «أنا نور الأنوار، أنا حامل العرش مع الأبرار، أنا صاحب القرون الأولى، أنا الصامت ومحمّد الناطق، أنا جاوزت بموسى في البحر وأغرقت فرعون وجنوده، أنا الذي أجوز السماوات السبع والأرضين في طرفة عين، أنا الذي يصلي عيسى خلفه، أنا مصباح الهدى، أنا خازن السماوات والأرض بأمر رب العالمين، أنا القائم بالقسط، أنا ديان الدين، أنا الذي لا يقبل الأعمال إلاّ بولايته ولا ينتفع بالحسنات إلاّ بمحبته»،[١] إلى آخر هذه الرواية العجيبة.

هذه الرواية فيها مضامين صحيحة مثل قوله: «أنا قسيم الجنّة والنار»، فهو ثابت عندنا بإجماع المحدّثين، أن عليّاً قسيم الجنّة والنار، لكن فيها مضامين حينما نعرضها على القرآن الكريم، وحينما نعرض متنها على لغة أهل البيت نجد أنها نصوص لا يمكن الاطمئنان لصحتها. ولهذا وضع علماؤنا علامة استفهام على هذه الروايات.

---

(1) راجع: مشارق أنوار اليقين: ٢٦٩.

فما هو المبرر أن يذكر الإمام كلمات تثير التهمة والشك؟ ولأي حكمة وفلسفة يثير الإنسان الشك على نفسه؟ ويثير شبهة الغلو والربوبية فكأنه يدعي الربوبية؟ ورسول الله لم يتحدّث بمثل هذا الحديث ولا القرآن الكريم. وهذه اللغة غير موجودة في أدب أهل البيت عليهم السلام ولا الأنبياء، مثل هذه اللغة «أنا محيي الأموات ومميت الأحياء» هي خطاب إعلامي لا يخدم الإمام عليّ عليه السلام في تلك الظروف التي يحتاج فيها إلى تصحيح الشبهات وهو داخل في معارك سياسية ضارية.

ما هي الحكمة والمبرر لأن يتكلم بمثل هذه الكلمات؟ هذا كله بغض النظر عن أن هذه الروايات ضعيفة من الناحية السندية ويتفرد بها بعض المؤلفين، ولهذا لا يذكرها علماؤنا في كتبهم. وهم يفترضون أن هذه النصوص هي من الروايات النادرة والشاذة.

خلاصة القول نحن نعتقد بأن الأئمّة الأطهار أفضل من الأنبياء لكن لا نصل بذلك إلى حد الغلو، مثل «أنا محيي الأموات، أنا مورق الأشجار، أنا مونع الثمار» وفي الحقيقة فإنه لا داعي لهذا المقال ولا يؤيده القرآن الكريم وأئمّتنا عليهم السلام أعطونا قاعدة حيث قالوا: «ما ورد عنا اعرضوه على كتاب الله فما وافق كتاب الله فخذوه، وما خالف كتاب الله فَدَعوه»،[1] أو في رواية أخرى تقول: «فاضربوا به عرض الحائط»،[2] أي أن كل رواية لا تتطابق مع النص القرآني أو الفكر القرآني فنحن غير

---

(1) روي عنهم عليهم السلام أنهم قالوا: «إذا جاءكم عنا حديثان فاعرضوهما على كتاب الله، فما وافق كتاب الله فخذوه، وما خالفه فاطرحوه» راجع: الاستبصار ١: ١٩٠/ ١٠٦٦٨.

(2) عدة الأصول: ٣٥٠.

مجبـرين علـى قبولهـا فإمّـا أن نردهـا أو نتوقـف فيهـا ونقـول هـذه روايـة مشكوك فيها.

محاولات تصحيحية:

طبعاً يأتي هنا بعض العرفاء، وبعض الفلاسفة الإسلاميين ويعطون نظرية ويقولون هذه الروايات يمكن أن نقبلها حسب نظرية يسمونها (نظرية الجمع) أو (النظرية الجمعية) طبعاً هذه لغة جديدة ومفهوم جديد أذكرها لكم فقط على مستوى العنوان دون أن أدخل في تفاصيل شرحها، يقول الفلاسفة العرفاء على الطريقة العرفانية وليس كل العلماء يقبلونها: إن الإنسان أحياناً يبلغ إلى حالة الجمع بمعنى أن تجتمع صفات الله تبارك وتعالى فيه، وكأنه يتحد مع الله وهذه المرتبة تسمى مرتبة الجمعية، مرتبة الجمعية تعني أن الإنسان يتحد مع صفات الله تبارك وتعالى ويذوب ويفنى في الله تعالى، وحينئذٍ يحق له أن يتحدّث بمثل هذا الحديث ويقول: «أنا خالق السماوات، أنا مفجر الأنهار، أنا مورق الأشجار، أنا الذي نصرت موسى، أنا الذي نصرت إبراهيم، أنا الذي أخمدت نار إبراهيم»، حيث المقصود ليس هو الأنا الشخصي بل الأنا بمقدار تجلي صفات الله فيه، وهو الوجه الإلهي في الإنسان ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾،[1] طبعاً هذا كله تأويل، ولكن نحن لسنا بحاجة إلى هذا التأويل، ولا إلى قبول هذه الروايات، ولا هي صحيحة من حيث السند، ولهذا فإننا نترك هذه الروايات إلى مجالاتها ولا نعتمد عليها، ونضع عليها علامة استفهام، ومع كل هذا نحن نعتقد أن أهل البيت بلغوا أرفع درجات المرسلين.

---

(1) البقرة: ١١٥.

الإمام عليّ عليه السلام علمياً لا أحد يشك أنه وصل إلى مرتبة من العلم لا يضاهيه أحد «علّمني رسول الله ألف باب يفتح من كل باب ألف باب».[١]

«أنا مدينة العلم وعليّ بابها»،[٢] طبعاً اعتقادنا نحن الشيعة أن علم الإمام عليّ هو علم رسول الله لا أكثر ولا أقل كما جاء في بعض الأحاديث الإشارة إلى ذلك.

أحد الظواهر التي انفرد بها الإمام عليّ هي: أنه كان يقول: «سلوني قبل أن تفقدوني»،[٣] هذه لغة في الحقيقة لم نسمعها من رسول الله صلى الله عليه وآله ولا من الحسن والحسين، سُجّلت للإمام عليّ عليه السلام في أكثر من موقع أنه قال: «سلوني قبل أن تفقدوني»، ويبدو أنه قال هذه العبارة في أكثر من مرة، ويبدو أنه كان يأسى ويأسف على الأمّة الممزقة التي تاهت في الضلالات، والإمام الحجة نور الله موجود بينهم ويقول لهم: «سلوني»، وهو الحق القائم بينهم «عليّ مع الحق والحق مع عليّ».[٤]

سلوني قبل أن تفقدوني:

العلامة الشهيد المحقق السيد حسن القبانجي ; له كتاب (مسند الإمام عليّ عليه السلام) يتألف من عشرة مجلدات وهو أحد علماء النجف الذين قُتلوا في المقابر الجماعية، في هذا الكتاب يذكر عدد المرات التي قال فيها الإمام عليّ عليه السلام: «سلوني قبل أن تفقدوني» وقد كان جواب

(1) البحار ١٨: ٦٧٧.
(2) الخصال: ٥٧٤.
(3) بصائر الدرجات: ٢٨٦.
(4) كفاية الأثر: ٢٠.

الناس له غير مقنع، وكانت أسئلة الناس أسئلة يأسف لها الإنسان، في أكثر من مرة قال الإمام هذه العبارة.

في إحدى المرات قام له ابن الكوّى ويبدو أنه كان من الخوارج وقُتل فيما بعد في معركة النهروان وقال للإمام: كم بين موضع قدمك وبين العرش؟ ولم تكن هذه الأسئلة لأجل الاستعلام وإنما كانت أسئلة إحراج للإمام عليه السلام، وفي رواية مفصلة أن الإمام عليّاً أجابه.

وقال: «من موضع قدمي إلى عرش ربي أن يقول القائل مخلصاً لا إله إلاّ الله»،(1) فالمسافة ليست مكانية ولا زمانية، المسافة بين الأرض وبين العرش كلمة لا إله إلاّ الله مخلصاً.

ومرة ثانية حين قال الإمام: «سلوني قبل أن تفقدوني»، قام له صعصعة بن صوحان وهو من خيار الشيعة وسأل مسألة علمية.

وقال: يا عليّ حدّثنا بما يجري آخر الزمان.

فقال الإمام عليّ عليه السلام: «تجتمع في آخر الزمان في أمّتي مائة خصلة.. إلى أن يقول يحج الناس على ثلاثة: الأغنياء للنزهة، والأوساط للتجارة، والفقراء للمسألة فيختبئ الإسلام وتظهر دولة الصبيان».(٢)

مرة ثالثة حين قال الإمام عليّ عليه السلام: «سلوني قبل أن تفقدوني» قام له شخص اسمه ذعلب فقال: هل رأيت ربك؟

---

(1) الاحتجاج ١: ٣٨٦.

(2) راجع: إلزام الناصب ٢: ١٦٢، من خطبة لأمير المؤمنين عليه السلام وهي المعروفة بخطبة البيان في علامات الظهور.

فقال عليه السلام: «لم أكن لأعبد رباً لم أره، ولكن ما رأته العيون بمشاهدة الأبصار، وإنما رأته القلوب بحقائق الإيمان».(١)

وهناك موضع رابع قال فيه أمير المؤمنين: «سلوني قبل أن تفقدوني» وهذه الرواية أنتم تعرفونها فقام له شخص يبدو أنه هو سعد بن أبي وقاص.

وقال له: كم شعرة في لحيتي ورأسي؟ هذا سؤال تهكّم وسؤال منافقين، الإمام عليه السلام يقول: «سلوني قبل أن تفقدوني، سلوني عن طرق السماء فإني أعلم بها من طرق الأرض» فيقوم له هذا الشخص مستهزءاً ويقول: كم شعرة في لحيتي ورأسي؟

قال له الإمام: «تحت كل شعرةٍ في لحيتك ورأسك شيطان يلعنك وأن في بيتك سخلاً يقتل ولدي الحسين».(٢)

مرّت الأيام والسنين وحلّ محرم الحرام عام (٦١هـ) أصبح عمر بن سعد هو قائد القوات لحرب الحسين عليه السلام، الإمام الحسين عليه السلام أراد أن يقيم عليه الحجة فأرسل إليه يوم السابع من محرم الحرام رسولاً قائلاً إن الحسين يريد أن يكلمك، ولديه مفاوضات معك ما زلنا قبل القتال فهناك مجال للبحث، خرج الحسين عليه السلام يوم السابع من محرم الحرام ومعه عشرون شخصاً من أصحابه وأهل بيته ومنهم العبّاس والأكبر، وخرج ابن سعد ومعه عشرون شخصاً من أصحابه وابنه وغلامه فلما تقاربا التفت الحسين إلى أصحابه وقال: انسحبوا فنحن نريد لقاءاً خاصاً فانسحب أصحاب الحسين وبقي العبّاس والأكبر، ابن سعد لما شاهد هذا الموقف التفت أيضاً إلى أصحابه وقال لهم: انسحبوا ولم يبقَ معه إلاّ ابنه وغلامه.

---

(1) روضة الواعظين: ٣٣.

(2) راجع: أمالي الصدوق: ١٩٦/ ح ١/٢٠٧.

قال له الحسين عليه السلام: «يا بن سعد أتقاتلني وأنت تعلم ابن من أنا؟ هل لك أن تترك هؤلاء وتلتحق بي؟».

ابن سعد قال: أخاف من ابن زياد أن يهدم داري.

قال الحسين: «أنا أبنيها لك».

قال ابن سعد: أخاف أن يأخذ ضيعتي.

قال: «إني أخلف عليك مما عندي».

وهكذا كلما تعذر ابن سعد بعذر والحسين يغلق عليه الباب إلى أن يئس منه الحسين عليه السلام ورأى أن هذا قد استحوذ على قلبه الشيطان.

قال له: «لا أكلت من بُر العراق طويلاً وسلَّط الله عليك من يذبحك وأنت على فراشك».

ابن سعد وقد استحوذ على قلبه الشيطان قام هازئاً وهو يقول: إن في الشعير كفاية، وافترق المجلس على حرب، أي حُسم الموقف وابن سعد كان قراره أن يدخل في حرب، والحسين عليه السلام قراره أن يدخل في دفاع، وأصبحت الجيوش تحتشد من يوم السابع من محرم الحرام حتّى ليلة العاشر من محرم الحرام اكتملت الجيوش ثلاثين ألفاً.

هنا الحسين عليه السلام يقول لابن سعد: «أتقاتلني وأنت تعلم أنا ابن من؟».

يوم العاشر من محرم الحرام هناك كلمة مماثلة للعقيلة زينب عليها السلام، يوم العاشر من محرم الحرام حين كان شمر بن ذي الجوشن على صدر الحسين جاءت مدهوشة ومرعوبة إلى ابن سعد تقول له: يا بن سعد أيقتل أبو عبد الله وأنت تنظر إليه؟

إنا لله وإنا إليه راجعون

* * *

المحاضرة الستون:

القرب والبُعد من الله

«وَقُرْبَ مَنْزِلَتِكُمْ مِنْهُ»

بسم الله الرحمن الرحيم

الإجماع الإسلامي على ولايتهم:

حديثنا اليوم عن قوله: «وقرب منزلتكم منه»، والذي يدل على قرب منزلة أهل البيت وشيعتهم عند الله تعالى.

هناك اتفاق إسلامي على أن أقرب الناس منزلةً عند الله يوم القيامة هم النبي وآل بيته الأطهار. وهذا الأمر ليس من اختصاصات الشيعة بل كل المسلمين يتفقون عليه، فهناك اتفاق في تفسير قوله تعالى: ﴿قُلْ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبى﴾،[1] على أن القربى هم آل بيت النبي صلى الله عليه وآله.

هناك إجماع على أن التوحيد لا يُقبل بدون النبوة، والنبوة لا تُقبل بدون الاعتراف بولايتهم عليهم السلام.

وهناك إجماع على أن الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنّة، وهو تعبير واضح عن أنهم أقرب منزلةً عند الله تعالى من غيرهم، ولهذا فإنه لا مناقشة بين المسلمين على أن الصلاة لا تقبل إلاّ بالصلاة على النبي وآله، فلو أن الإنسان صلى كامل الصلاة مع تمام الوضوء واستقبال القبلة وطهارة الملابس وبتوجه كامل إلى الله تعالى، ولكنه إذا وصل إلى التشهد وقال: «الحمد لله أشهد أن لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له وأشهد

---

(1) الشورى: ٢٣.

أن محمّداً عبده ورسوله» ولم يقل: «اللهم صل على محمّد وآل محمّد» فإن صلاته باطلة.

أمير المؤمنين أيضاً باتفاق الرواة والمؤرخين هو من يحمل لواء رسول الله يوم القيامة، فإن الرواية تقول إن رسول الله ﷺ يوم القيامة لديه لواء واسم هذا اللواء هو (لواء الحمد) وهذا اللواء لا يحمله القائد عادةً بل يحمله من يقود العمليات، لواء الحمد كما تقول الروايات يحمله أمير المؤمنين عليه السلام وأوّل من يدخل الجنّة بلواء الحمد هو أمير المؤمنين.(١)

القرب و البعد من الله:

القرب والبُعد من الله تعالى هو مفهوم قرآني مكرّر في العديد من الآيات القرآنية.

القرآن الكريم يقول: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾،(٢) ويتحدّث عن الذين كفروا يوم القيامة وهم أهل جهنم فيقول: ﴿أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾،(٣) أي هناك قرب وهناك بعد من الله تعالى.

الله تعالى يقول: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾.(٤)

وهكذا الرواية تقول عن الإمام الصادق عليه السلام(٥) إنه مكتوب في

---

(1) وجاء في تكملة الحديث: «وله أربع زوايا، واحدة بالمشرق، وواحدة بالمغرب، وواحدة تحت العرش، وواحدة تحت الأرض السابعة، وعليّ مع الملائكة، ويسلمون عليهم وإلاّ فيبلغهم السلام في خمسة...» الحديث. مستدرك الوسائل ٧: ٤٥٩/ ١٥.

(2) البقرة: ١٨٦.

(3) فصلت: ٤٤.

(4) ق: ١٦.

(5) الكافي ٢: ٤٩٦.

التوراة أن موسى سأل الله تعالى وقال: «يا رب أقريب أنت فأناجيك؟ أم بعيد فأناديك؟» فأوحى الله تبارك وتعالى إليه: «أنا جليس من ذكرني».

أي إنني قريب ولست ببعيد، هذا كله لبيان أن هناك قرباً وهناك بعداً من الله تبارك وتعالى، ولهذا نقرأ أيضاً في المناجات الشعبانية وهي مناجاة أمير المؤمنين، يقول عليه السلام: «يا قريباً لا يبعد عن المُغترّ به ويا كريماً لا يَبخل عمَّن رجا ثوابه»،[1] حينئذٍ يأتي السؤال: ما معنى القرب من الله والبعد من الله، فهل أن الله تعالى موجود في مكان معيّن؟

هناك ثلاثة تفاسير: التفسير المادي، والتفسير التأويلي، والتفسير الحقيقي.

التفسير الأوّل: التفسير المادي:

هذا هو تفسير أهل الظاهر وهو يقول: إن معنى القرب والبعد من الله تعالى هو القرب والبعد المادي، فهناك إنسان بعيد عن الله تعالى مليون سنة ضوئية مثلاً وهناك إنسان بعيد عن الله تعالى مسافة سنة ضوئية وهناك من يبعد مائة كيلو متراً وهناك من هو جالس في جوار الله ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ﴾،[2] الفاصل عن الله هو فاصل مكاني مادي، والقرب والبعد هو عبارة عن بعدٍ وقربٍ مادي (مكاني).

رسول الله صلى الله عليه وآله حينما عُرج به إلى السماء في ضوء هذا التفسير اقترب قرباً مكانياً من الله.

هذا التفسير يتعامل مع النصوص تعاملاً مادياً وكأن القضية تقاس بالكيلو مترات أو الأمتار!! لكن كما تعلمون فإن هذا التفسير غير مقبول؛

---

(1) إقبال الأعمال ٣: ٢٩٨.

(2) القمر: ٥٥.

لأننا في الفكر الإسلامي الثابت والأكيد لا نعتقد أن الله تعالى موجود في مكان مخصوص وغير موجود في الأماكن الأخرى فهذا خطأ، بل هو موجود في كل مكان ﴿فَأَيْنَما تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾.[١]

القرآن يقول: ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّماءِ إِلهٌ وَفِي الأَرْضِ إِلهٌ﴾،[٢] أي إن الذي يعرج بالطائرة ويصعد مسافة اثني عشر ألف قدم مثلاً، وذاك الذي يعبر الغلاف الجوي للكرة الأرضية والذي هو في المركبة الفضائية ليس أقرب إلى الله ممن هو في الأرض، فالله سبحانه وتعالى ليس موجوداً في المريخ أو القمر وليس موجوداً في الأرض بل هو موجود في كل مكان. الإسلام يقول إن الله موجود في كل مكان، وهو أقرب إلينا من حبل الوريد.

هذا التفسير في الحقيقة هو نفسه الذي انطلق منه فرعون حين قال لرئيس الوزراء لديه وهو هامان: ﴿يا هامانُ ابْنِ لِي صَرْحاً _ أي برجاً _ لَعَلِّي أَبْلُغُ الأَسْبابَ * أَسْبابَ السَّماواتِ فَأَطَّلِعَ إِلى إِلهِ مُوسى﴾،[٣] هذا جهل فالله غير موجود فوق السحاب لكي يرتفع الإنسان فوق بناياتٍ ليراه.

التفسير الثاني: التفسير التأويلي:

وهو تفسير أهل الباطن الذين يقولون إذا كان التفسير الأوّل (المادي) غير مقبول، فإننا سنضطر إلى تأويل الآيات والروايات التي تتحدّث عن القرب والبعد فنقول معنى القرب والبعد من الله هو القرب

(1) البقرة: ١١٥.

(2) الزخرف: ٨٤ .

(3) غافر: ٣٦ و٣٧.

والبُعد من الجنّة والنعيم ودار الخلود الأبدي كما في تفسير قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ * إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾،[1] ففي تفسير هذه الآية تقول مدرسة أهل الباطن إن كلمة ﴿نَاظِرَةٌ﴾ تعني أنها ناظرة إلى رحمة الله وجنّاته ونعيمه، أي إن القرب من الله تعالى ليس قرباً مكانياً، وإنما هو القرب من جنّته، ولكي تقترب من الجنّة يجب أن تؤدي الأعمال التي تدخلك الجنّة، القرب من الثواب والبعد عن العقاب، القرب من الجنّة والبعد عن النار.

رسول الله ﷺ في الحديث الشريف يقول: «ما من شيءٍ يقربكم من الجنّة ويبعدكم عن النار إلاّ وأخبرتكم به»،[2] وبهذا المعنى جاءت الروايات في من صام ثلاثة أيام أو يوماً أو يومين في شهر رجب تقول: «من صام يوماً من شهر رجب بَعُدت عنه النار مسيرة سنة»،[3] إذن هذا قرب وبعد مكاني، لكن ليس من الله بل من النار والجنّة.

قال تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾،[4] وأهل الباطن يقولون إن القرآن لم يقل: (إن الله قريب من المحسنين) بل قال: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾، وهذا هو التفسير التأويلي، ولهذا المؤمنون جميعاً تكون نيتهم في صلاتهم وأعمالهم هي التقرب من الله بمعنى التقرب إلى ثوابه، إذن مفهوم البعد والقرب هو مفهوم داخل في شرايين المؤمنين.

---

(1) القيامة: ٢٢ و٢٣.

(2) نهاية الأفكار ٣: ١٧٧.

(3) الخصال: ٥٠٣/ ٦.

(4) الأعراف: ٥٦.

العلامة اليزدي في كتابه (العروة الوثقى) يذكر خمسة مستويات لنية التقرب إلى الله تعالى أحدها عبارة عن رجاء الثواب.

بمعنى أن نقترب من الثواب وليس نقترب من الله. فهو ليس في مكان دون مكان، هذا هو عمق القرب من الله تعالى في ضوء تفسير أهل الباطن.

التفسير الثالث: التفسير الحقيقي:

القرب والبعد من الله تعالى لا هو قرب مادي ولا هو قرب تأويلي بل هو القرب من الله بالمعنى الحقيقي وليس المادي، ونحن نعرف أن القرب المادي أو المكاني ليس كل شيء في الوجود، أنت تحب صديقاً ما حتّى وإن كان بعيداً عنك آلاف الكيلو مترات وتقول هو أقرب الناس إليَّ محبةً، أنت الآن بينك وبين النبي ﷺ والأئمّة الأطهار عليهم السلام مسافة تزيد على ألف سنة زمنياً وبعداً مكانياً أيضاً لكن أنت تقول أنا قريب منهم وإن أقرب الناس إلى قلبي هو رسول الله ﷺ وأمير المؤمنين عليه السلام وفاطمة الزهراء عليها السلام وهذا هو القرب الحقيقي الذي لا يضره التباعد الزماني والمكاني، إذن هناك قرب حقيقي لا هو قرب مكان ولا هو بمعنى القرب من الجنّة بل هو قرب المنزلة والموقع.

إذا أردت أن أسلّط الضوء على هذا المعنى أكثر قلت أن القرب من مصدر الوجود، القرب من الطاقة الكبرى، القرب من المؤثر الحقيقي في الوجود، لأننا نعتقد أن هناك طاقة كبرى هي التي تسيّر الوجود وتقول للشيء: ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾، تلك الطاقة الكبرى موجودة مع كل شيءٍ فهي معك وأنت مستيقظ وأنت نائم فنبضات القلب وعمل الرئة وملايين

العمليات التي تعمل وأنت نائم لا تدري، تلك الطاقة الكبرى حينما نريد أن نقترب منها فليس الاقتراب مكانياً؛ لأنها موجودة في كل مكان وإنما الاقتراب منها يكون على مستوى الارتباط والاتصال وعلى مستوى أخذ القدرة واكتسابها منها فتصبح تقول للشيء: كن فيكون.

الإنسان المؤمن والعابد يكون قريباً من مصدر الطاقة الكونية يناجيه ويحدّثه ويستلهم منه الطاقة المؤثرة في الوجود، وحينئذٍ يكون مؤثراً في الوجود ويقول للقمر: انشق فينشق، ويقول للشمس: ردّي إلى عليّ فتَرُد الشمس إلى عليّ عليه السلام، وهذا بحث مهم جداً في معنى القرب الحقيقي من الله تعالى، الإنسان حينما يكون ساجداً يكون في أقرب موضع من الله تعالى وهذا القرب ليس قرباً مكانياً بحيث لو أنك كنت قائماً فإن الله قد ابتعد عنك؟ المقصود ليس هذا، بل المقصود أنك في السجود وبمقدار ما تتفاعل وتذوب وتفنى مع تلك الطاقة الكونية فتكون إرادتك هي إرادتها وتكون إرادتها هي إرادتك، فتكون أيها الإنسان متصلاً بالله تعالى.

وهذا هو ما يصطلح عليه العرفاء باتحاد العابد والمعبود فعندما تقول: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، فأنت تتحدّث مع المعبود وكأنه قريب منك ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾،[1] هذا المقام يسميه العرفاء مقام قرب النوافل. وربما يكون هذا حديث جديد عليكم لكن المهم أن نرتقي بمستوى شبابنا إلى حديث العرفاء والعلماء، هذه مرتبة اقتراب من الطاقة الكونية الكبرى، هذا هو مقام قرب النوافل _ النافلة هي العبادة المستحبة _ أي أنه قد اقترب من الله تبارك وتعالى.

---

(1) الفاتحة: ٥.

قصة الشيخ البهائي:

الشيخ البهائي في كتاب الكشكول يروي حادثة ويقول: إن شيخاً من المشائخ في بستان من البساتين رأى عقرباً كأنه بصدد الهجوم وهو مسرع في سيره حتّى وصل إلى مستنقع ماء وإذا بسلحفاة عند الساحل فجاء العقرب وصعد على ظهرها فزحفت به إلى الجانب الآخر من المستنقع وكأنها مركب هيأه الله تعالى لهذا العقرب.

الشيخ يقول: انتقلت إلى الجانب الآخر من المستنقع وإذا بهذا العقرب بعد أن ألقته السلحفاة على الأرض ذهب مسرعاً، وإذا برجل نائم قد اقترب منه ثعبان ليلدغه فجاء هذا العقرب مسرعاً ولدغ ذلك الثعبان وقتله ثمّ انسحب، فقال الشيخ: سبحان الله واقترب من الرجل النائم وإذا به يَشَمُّ من فمه رائحة الخمر، فقال: سبحان من قال: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾،[1] والآجال التي لا يتقدمها إنسان ولا يتأخرها إنسان جعلت التقدير الإلهي بهذا الشكل إن العقرب تحمله سلحفاة ويذهب إلى الجانب الآخر من المستنقع لينقذ هذا الرجل النائم لعناية من الله تعالى ورحمة بهذا العبد ولسبب من الأسباب.

الله تعالى يقول: أنا قريب ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾.[2]

مرتبة قرب النوافل:

ولنعد للحديث عن مرتبة قرب النوافل، الحديث الشريف عن الإمام الصادق عليه السلام وهو حديث صحيح السند هذا الحديث يقول عن

(1) الأعراف: ١٥٦.

(2) يونس: ٦١.

الله تبارك وتعالى: «... وما يتقرب إليَّ عبد من عبادي بشيء أحب إليَّ مما افترضت عليه وإنه ليتقرب إليَّ بالنافلة حسنى أحبه فإذا أحببته...»،[١] يرويها الشيخ الكليني في الجزء الثاني من كتابه أصول الكافي، لاحظوا في مرتبة قرب النوافل يتحقق الاتحاد بين العبد وبين الله تعالى فيسمع حينئذٍ بسمع الله ويبصر ببصر الله وينطق بلسان الله وهذا معنى ﴿وَما رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلكِنَّ اللهَ رَمى﴾،[٢] فأنت قد اتصلت بمصدر الطاقة الكبرى.

القرب الحقيقي من الله يعني القرب من القدرة المؤثرة في الكون وتلك القدرة موجودة في كل مكان، وتحتاج إلى شيء واحد وهو عبارة عن الاتصال بها من خلال السجود والبكاء والانفتاح عليها، أي أن لا تكون مشغولاً عنها فهي موجودة حولك، لكن كيف تستطيع أن لا تغفل عنها، النبي محمّد ﷺ هو أقرب المقربين من الله سبحانه وتعالى فكان قاب قوسين أو أدنى أي لم يستطع أحد من الخلائق _ لا من البشر ولا المَلَك ولا الجن _ أن يصل إلى الرتبة التي وصل إليها النبي ﷺ، الأنبياء بلغوا مراتب عالية لكن لم يبلغوا مرتبة النبي ﷺ.

إبراهيم عليه السلام وهو شيخ الأنبياء وهو نبي مقدس وقد وصل إلى مرتبة عالية ﴿وَاتَّخَذَ اللهُ إِبْراهِيمَ خَلِيلاً﴾،[٣] ونبي الله موسى عليه السلام ﴿وَكَلَّمَ اللهُ مُوسى تَكْلِيماً﴾،[٤] لكن نبينا ﷺ بلَغ مرتبةً أكبر ﴿فَكانَ قابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنى﴾.[٥]

---

(1) الكافي ٢: ٣٥٢.
(2) الأنفال: ١٧.
(3) النساء: ١٢٥.
(4) النساء: ١٦٤.
(5) النجم: ٩.

عوامل القرب من الله تعالى:

ما هي عوامل القرب من الله تعالى؟

فهل القرب من الله هو من اختصاص مراجع الدين؟

القرب من الله تعالى غير مرتبط بالعلم والفقه بل هو مرتبط بتطهير القلب، وبمقدار ما يكون هذا القلب نقياً زكياً يكون قريباً من الله، حتّى وإن كان إنساناً بسيطاً.

قال ﷺ: «أقربكم مني غداً وأوجبكم عليَّ شفاعة: أصدقكم لساناً وآداكم للأمانة وأحسنكم خلقاً وأقربكم من الناس».[1]

فالرسول ﷺ لم يقل: إن أقربكم مني غداً هم أكثركم علماً وفقهاً ومالاً وعشيرةً وأولاداً وما إلى ذلك، بل أشار إلى هذه الخصال الأخلاقية وهي الصدق والوفاء وحسن الأخلاق.

أربع صفات تستطيع أن تبحثها مع نفسك وهي:

١ _ صدق اللسان.

٢ _ أداء الأمانة.

٣ _ حُسن الأخلاق.

٤ _ والقرب من الناس، فبمقدار قربكم من الناس يكون قربكم إلى الله.

نرجع إلى الإمام الحسين عليه السلام ودوره في تزريق الإرادة في بدن العالم الإسلامي، إرادة التغيير، يزيد يجب أن يسقط، والأمويون يجب أن يسقطوا، أيها المسلمون لا تستسلموا لعصابة أموية أو عصابة عبّاسية أو عثمانية أو بعثية، يجب أن تسقط هذه الدكتاتوريات وأنتم تحكمون البلاد.

---

(1) الأمالي: ٥٩٨.

هذه هي رسالة الحسين عليه السلام.

المـشكلة كانـت يومئـذٍ هـي غيـاب الإرادة. فالنـاس لـم تكـن لـديهم إرادة وهـم يـرون آل رسـول وهـم سـبايا ويبكـون. فلـيس لـديهم إرادة تغييـر، سـبايا كـربلاء حينمـا دخلـوا الكوفـة كـان أهـل الكوفـة كلهـم يعرفـون الحـسين عليه السلام وكلهـم كـانوا بـالأمس فـي قـوات أميـر المـؤمنين عليه السلام فالمشكلة لم تكن هي غياب الحقيقة وإنما كانت غياب الإرادة.

والحمد لله رب العالمين

* * *

فهرست الموضوعات

* * *